

الحجّ في أحاديث الإمام الخميني عليه السلام

... إنّ الحجّ يمثّل أفضل مكان لتعارف الشعوب الإسلامية، حيث يتعرّف المسلمون على إخوانهم وأخواتهم في الدين من شتى أنحاء العالم، ويلتقون مع بعضهم في البيت الذي تتعلّق به كلّ المجتمعات الإسلامية من أتباع إبراهيم الحنيف عليه السلام وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق (١). وبنبذهم ما يميزهم من اللون والقومية والأصل، يعودون إلى أرضهم وبيتهم الأول. وبراءاتهم للأخلاق الإسلامية الكريمة، وتجنّبهم للجدال ومظاهر الزينة، يجسّدون صفاء الأخوة الإسلامية ومظهر وحدة الأمة المحمديّة

... أنتم يا حجاج بيت الله الحرام، (يا من) وفدتكم من أطراف

العالم وأكنافه على بيت الله مركز التوحيد ومهبط الوحي ومقام ابراهيم ومحمد الرجلين العظميين الشائرين على المستكبرين، وسارعت للوصول الى المواقف الكريمة التي كانت في عصر الوحي أرضاً يابسة وهضاباً جافة، غير انها كانت مهبط ملائكة الله ومحلاً لهجوم جنود الله، ولتوقف أنبياء الله وعباد الله الصالحين!! اعرفوا هذه المشاعر الكبرى وتجهّزوا من مركز تحطيم الأصنام لتحطيم الأصنام الكبرى التي ظهرت على شكل قوى شيطانية و (على شكل) غزاة يمتصون الدماء. ولا تخشوا هذه القوى الفارغة من الايمان، وبالاتكال على الله العظيم وفي هذه المواقف الكريمة اعقدوا بينكم ميثاق الاتحاد والاتفاق أمام جنود الشرك والشيطنة، واحذروا من التفرّق والتنازع ﴿... ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...﴾^(٢).

ريح الايمان والاسلام، التي هي أساس النصر والقوة، تزول بالتنازع والتشرذم المنسجم مع الأهواء النفسية، والمخالف لأحكام الله تعالى. والاجتماع على الحق وتوحيد الكلمة وكلمة التوحيد (عناصر تشكل) أساس عظمة الأمة الإسلامية وتؤدي إلى الانتصار.

الهوامش :

(١) الحج : ٢٧ .

(٢) الأنفال : ٤٦ .

الحجّ في أحاديث الإمام الخامنئي (مد ظله العالي)

... في آيات الحج نرى القرآن يدعو الجميع إلى البراءة من أوثان

المشركين:

﴿... فاجتنبوا الرّجس من الأوثان ...﴾^(١).

وهذه الأوثان كانت يوماً تلك الأوثان المنتصبة في الكعبة، لكنها اليوم ودائماً، تلك القوى التي تمسك - دون حقّ - بزمام الحاكمية على نظام حياة البشر، وتتجلى اليوم بوضوح أكثر في قدرة الاستكبار وقدره أمريكا الشيطانية، وقدره ثقافة الغرب، والفساد والتحلّل المفروض على البلدان والشعوب المسلمة. واضح أنّ أذناب الحكومات المهزوزة ومأجوريها يُصنّرون على أنّ الأوثان ليست إلا «منات» و «لات» و «هبل»، التي سُحقت وحُطّمت تحت أقدام جيش

رسول الله ﷺ في الفتح الإسلامي الظافر.

هدف وعّاظ السلاطين هؤلاء أن يفرغوا الحجّ - كما يصرّحون هم بذلك - من أيّ محتوى سياسي ... غافلين أن هذا التجمع المليونى الإسلامى من كلّ حدب وصوب، فى بقعة معيّنة وفى زمانٍ معيّن، ينطوى بنفسه على أكبر مضمون سياسى، إنه استعراض للأمة الإسلامية تذوب فيه الاختلافات العنصرية واللغوية والجغرافية والتاريخية، وينبثق منه «كلّ» واحد.

هؤلاء وأسيادهم يلقّقون كلّ ألوان الأكاذيب والخداع والأباطيل من أجل أن لا يعي المسلمون حقيقة هذا التجمع الكبير، وأن لا يستشعروا الروح الجماعية فيه .. ولكي يضيقوا الساحة على الداعين إلى الوحدة، والمنادين بالبراءة من أئمة الشرك.

إيران الإسلام أرادت أن تقوم بأقلّ عمل - إن لم يكن بأكبر عمل - يتناسب مع موضوع الحج، وهو دعوة المسلمين إلى الاتحاد، وتبادل الأخبار بين الشعوب، وإعلان النفرة والبراءة من أئمة الشرك والفساد. وكلّ من يجابه هذه الأهداف السامية القيّمة، فهو مهما قال، فقد قال زوراً. والقرآن يقول: ﴿... واجتنبوا قول الزور﴾ (٢).

«قول الزور» هو ذلك الحديث الباطل الذى يسيء إلى الجمهورية الإسلامية، لأنّ الجمهورية الإسلامية رفضت حاكمية دولة الصهاينة على فلسطين الإسلامية، وردّت كلّ تسوية تقوم بها حفنة من الفاسدين المطرودين مع الغاصبين، وأدانت التدخل الأمريكى الاستيلائى فى البلدان العربية، واستنكرت خيانة بعض حكام العالم الإسلامى لشعوبهم المسلمة إرضاءً لأمريكا والصهيونية،

ودعت المسلمين إلى معرفة قوّتهم الكبرى التي لا تقوى أية قوة كبرى اليوم أن تقف بوجهها، وقرّرت أن المعرفة الإسلامية وأحكام الشريعة قادرة على إدارة البلدان الإسلامية، وحذّرت من غارة الثقافة الغربية على البلدان الإسلامية، متمثلة في التعرّي والسكر وزلزلة الإيمان ... وبعبارة موجزة أصرّت على اتباع القرآن.

واليوم فإنّ أي بلد من البلدان الإسلامية يعلن صراحة مثل هذا التبنّي وهذه المواقف، أي يرفض إسرائيل الغاصبة، ويرفض التدخل الأمريكي المتغطرس، ويرفض الانغماس في الخمر والتحلل والفساد الجنسي واختلاط الجنسين، ويرفض الاتفاق مع الصهاينة المعتصبين، ويدعو المسلمين إلى الوحدة والمقاومة أمام القوى الكبرى، وإلى تطبيق الأحكام الإسلامية في الحكم والاقتصاد والسياسة وغيرها من مجالات الحياة

الهوامش :

(١) الحج : ٣٠.

(٢) الحج : ٣٠.

شريعة إبراهيم عليه السلام في القرآن المجيد

عبد الله جواد آمل

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل
إلا من بعده أفلا تعقلون﴾.
﴿ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به
علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.
﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما
كان من المشركين﴾.
﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله
ولي المؤمنين﴾^(١).

بحث تفسيري:

تتلخص المباحث التفسيرية للآيات الآتية الذكر، التي تستنطق سيرة
النبي إبراهيم عليه السلام بعدة محاور:

- ١- احتجاج ومناظرة أهل الكتاب.
- ٢- عدم وجود الارتباط بين إبراهيم عليه السلام واليهود والنصارى.
- ٣- أصل وأساس دين إبراهيم الخليل - سلام الله عليه -.
- ٤- استدلال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالآية، فيما يتعلق بمسألة الخلافة.

احتجاج أهل الكتاب:

بما أنَّ النبيَّ إبراهيمَ عليه السلام يُذكر بكلِّ عظمةٍ في الكتب السماويَّة، وبين اتباع الأديان الإلهيَّة كذلك، فإنَّ كلاً من اليهود والنصارى عدَّوه عليه السلام منهم، ووصفوه بأنَّه مسيحي أو يهودي، وذهبوا في ذلك إلى مرحلة المحاججة والمناظرة.

محور الاحتجاج:

المستفاد من ظاهر الآية: أنَّهم كانوا يحاجُّون على أمرٍ غير معقول! فهل ذلك كان بسبب ما تقوله اليهود: إنَّ النبيَّ إبراهيمَ عليه السلام كان يعمل بشريعة موسى، أم لما تقوله المسيحيَّة من أنَّه عليه السلام كان يعمل طبقاً لدين عيسى؟! من المستبعد أن يحصل مثل هذا الاحتجاج؛ لأنَّه من الواضح جداً أنَّه عليه السلام سبق موسى وعيسى، وعاش قبل هذين النبيَّين عليه السلام بعدة قرون، إذن كيف يمكن أن يتَّبع ديناً لم يأت بعد؟!

قبل البدء بالبحث حول محور احتجاج أهل الكتاب، يجب أن نعلم أنَّ احتجاجهم، كان حول دين النبي إبراهيم عليه السلام وشريعته الخاصَّة، ولم يكن حول أصل نبوِّته أو رسالته أو جهاده. ويجب أن نعلم أيضاً، أنَّهم عندما كانوا يقولون «كان إبراهيم يدين بديننا»؛ كان مرادهم أنَّ ديننا استمرارٌ لطريق إبراهيم ونحن

ورثته ﷺ؛ لأنّه كما بينا ذلك آنفاً، ليس من المعقول أن يقول قائل: إنّ إبراهيم الذي عاش قبل عدّة قرون من نزول التوراة والإنجيل، عمل وفقاً لدينك الكتابين اللذين شرّعاً بعده، وكان يعمل وفقاً لهما! وإن كان لا يستعبد القول: أنّه ﷺ كان عالماً بالشرعية اللاحقة وله اطلاع بها.

رأي العلامة الطباطبائي رحمه الله صاحب تفسير الميزان:

يمكن تلخيص رأي المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي في عدّة نقاط:

- ١- أنّ هذه المناظرة كانت محصورة بين اليهود والنصارى فقط.
 - ٢- أنّ اليهود والنصارى احتجّوا بنوعين من الحاجة والمناظرة:
- الف - استدلال علمي ومنطقي؛ حيث إنّ القرآن الكريم يقول بصحّة مثل هذه الحاجة والاستدلال.
- ب - احتجاجٌ غير عقلائي واستدلالٌ غير منطقي.

أسلوب الاحتجاج العلمي لليهود والنصارى:

كان النصارى يقولون لليهود - الذين يدّعون أنّ دينهم وكتابهم أبدي ولا سبيل إلى نسخه؛ لقد نُسخَتِ التوراة بنزول الإنجيل، الذي يبيّن شريعة عيسى ﷺ، ويجب على أتباع الدين السابق الإيمان بالدين اللاحق، ويعدّوه دينهم الحقّ هذا أولاً. وثانياً: إنّ عيسى النبيّ كان طاهراً، وإن مريم ﷺ سيدة طاهرة وعفيفة.

وبالمقابل، فإنّ اليهود خاطبوا النصارى بقولهم: أنتم على باطل؛ لا اعتقادكم بالتثليث، وقولكم المسيح ابن الله .



الاحتجاج غير العقلاني والاستدلال غير المنطقي:

إن المناظرة غير العقلانية لكل منهم تتمثل بقولهم: «إن إبراهيم الخليل عليه السلام منّا»، ولذا من البديهي أن يكون ذم القرآن وتوبيخه لهم في هذا المحور فقط؛ لأن مثل هذه المناظرة لا تستند إلى برهان عقلي، ولا يوجد أيضاً في كتابهم السماوي حديث بهذا الخصوص، لكي تستند مناظراتهم إلى الوحي. يقول القرآن الكريم بهذا الخصوص: ﴿أتتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾^(٢).

أما كون المسلمين يعدّون النبي إبراهيم الخليل عليه السلام منهم، فلاّتهم يستندون في ذلك على القرآن الكريم، الذي بيّن قصّته عليه السلام وقصة أتباعه. وبناءً على ذلك، فلمَ تحاجّون وتناقشون فيما ليس لكم به علم واطلاع، وهذه كتبكم لا تحتوي على مطلبٍ حول النبي إبراهيم الخليل عليه السلام يدلّ على ارتباطه بكم؟!^(٣)

تحليل مقولة الميزان:

إن حديث المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي مقابل غيره من المفسّرين، وإن كان عميقاً وقابلاً للمناقشة والتأمل، ولكن من الصعب أولاً: إثبات أن احتجاجهم كان محصوراً بينهم، وأن ذلك يستفاد من ظاهر الآية، وثانياً: أن قوله: إن اليهوديّة أقامت الحجّة العلمية على المسيحيّة، يمكن أن يكون تاماً ومحل ثناء وتقدير، لو كانت الحجّة في غير محور الثقلين، ونبوة السيد المسيح عليه السلام؛ لأنّه بإمكان المسيحيّة أيضاً، إقامة الحجّة على اليهود، حول قولهم: إنّ عزيز ابن الله ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾^(٤)، وبناءً على ذلك، فإن الطائفة المبتلاة بالشرك لا يمكنها محاجة الطرف المقابل في موضوع الشرك.

ولكن احتجاج المسيحية على اليهود المستند إلى نسخ الكتاب السابق بواسطة الكتاب اللاحق، احتجاج حق وصحيح.

رأي الزمخشري:

يعتقد الزمخشري بأن الله - تعالى - يحقر المتحاججين في كلا الموردين ويوبخهم. وهو يفسر قوله تعالى ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ على هذا النحو: «ها أنتم هؤلاء الجهلاء قد حاجتكم فيما لكم به علم، وتحدث حوله كتابكم أيضاً، فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم، ولم يرد في التوراة والإنجيل كلام حوله؟!».

تناسب ظاهر الآية مع بيان الزمخشري:

بما أنّ الجملة تبدأ بحرف تنبيه (ها أنتم هؤلاء) - اللذين وضعنا لتحذير الغافل - فهي إذن أنسب للدلالة على التحقير. إضافة لذلك، هناك آية أخرى في القرآن الكريم، استعملت فيها (هاء) التنبيه للتحقير؛ كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لَتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥)؛ كالذي يعدّ نفسه لامتحان في كتاب لم يطالعه، ولما ينجح في الكتاب الذي قرأه. فيقال له هنا: إنك لم تفلح في الخروج مرفوع الرأس من امتحان الكتاب الذي طالعت، فأنت لك أن تمتحن في كتاب لم تقرأه؟!

ولذا يقال لأهل الكتاب: ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم، وتحدث به كتابكم عن موسى وعيسى ورسول الله - عليهم صلوات الله - وفشلت، فكيف تحاجّون في شريعة لا اطلاع لكم بها إطلاقاً، ولم يرد لها ذكر في كتابكم. ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً...﴾^(٦).



في هذا الجزء من الآية، نلاحظ وجود عدّة جمل سلبية، وجملة واحدة اثباتية؛ ففي الجزء السلبي منها، تبين إبراهيم على أنه منفصل عن اليهودية والنصرانية، وتنفي ارتباطه عليه السلام بهاتيك المجموعتين؛ لأنه أولاً: مثل هذا الدين الممتزج بالتحريف، ينفر منه حتى موسى وعيسى عليه السلام وثانياً: مع أن الديانتين اليهودية والنصرانية الأصليتين حقّ، إلا أن إبراهيم الخليل عليه السلام لم يعمل بتعاليم دين نزل فيما بعد. أما حملتها الإثباتية فهي: إن إبراهيم عليه السلام يعدّ مسلماً مستقيماً.

عظمة إبراهيم بين أهل الكتاب:

بما أن اليهود والنصارى، لم يكن بوسعهم إنكار حق إبراهيم الخليل الذي تحدّث بعظمته الكتب السماوية؛ مثل صحف إبراهيم والقرآن الكريم، فإن كلاً منهما كان ينسب الخليل عليه السلام له، ويصفه على أنه يهودي أو مسيحي. ولكن القرآن الكريم يشطب على جميع هذه الأوهام بخطّ البطلان، وينفي انتسابه عليه السلام لليهود والنصارى ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾.

ادّعاء اليهود والنصارى بالأنبياء الإبراهيميين ورأي القرآن بذلك:

ناهيك عن ادّعاء اليهود والنصارى بانتساب إبراهيم إليهم، فإنهم ذهبوا إلى القول بانتساب بقيّة الأنبياء الإبراهيميين إليهم، وقالوا: إنهم يهود أو نصارى، ولذلك فإن القرآن الكريم، بين وجهة نظره بقيّة الأنبياء الإبراهيميين على هذا الأساس: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله...﴾^(٧).

بحث لغوي:

«الحنيف»؛ يعني المائل إلى الوسط، والمستقيم الذي يراد به الميل إلى الحق؛ فالذي يسير في الشارع مثلاً، ويسعى للابتعاد عن الرصيف والانتقال إلى الوسط، يقال عنه «حنيف»، ويقال كذلك عن الذي رجله مستقيمة ومائلة إلى الوسط بأنه «أحنف»، ولذلك ومن باب «تسمية الشيء باسم ضده» يقال عن الذي اعوجّت رجله وانحرفت: بأنه «أحنف»؛ كما يقال عن الأعمى (بصير).

حنيفية المشركين:

إنّ القرآن الكريم، ومن أجل الفصل بين الحنيفيّة بمعناها الآنف الذكر، والحنيفية المتداولة بين المشركين، فقد قيّدتها بكلمة «مسلماً»؛ لأنهم كانوا يؤدّون مناسك الحجّ والزيارة، مع كونهم مشركين، ولهذا السبب فقد كانوا يسمونهم حنفاء^(٨). ولذا ينفي القرآن صفة الشرك الموجودة عند اليهودية والنصرانية عنه ﷺ في نهاية الآية من باب التأكيد. ﴿وما كان من المشركين﴾.

إبراهيم عليه السلام:

بعد أن سلب القرآن الكريم اليهودية والنصرانية عن إبراهيم الخليل، فقد قال عنه: إنه مسلم ﴿ولكن حنيفاً مسلماً﴾.

معنى الإسلام:

تطلق كلمة الإسلام أحياناً بمعناها الشائع والمتعارف عليه - الذي يشمل الأصول والفروع وما جاء به خاتم الأنبياء - وأحياناً يراد بكلمة الإسلام الخطوط العامة والأصول الأساسية، ويذكر بهذا المعنى في المصطلح القرآني، وإن



بعض الآيات وردت بلحاظ هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٩).

المراد بكون إبراهيم عليه السلام مسلماً:

أما كون المسلمين يعدّون إبراهيم الخليل عليه السلام مسلماً، وينسبونه لهم في مناظراتهم، فإنّ السبب في ذلك يعود أولاً: إلى أنهم يستظهرون سيرته عليه السلام من كتابهم السماوي. ويعود ثانياً: إلى أن مرادهم من كلمة الإسلام هو أنه عليه السلام منسجم ومتطابق مع الدين الإسلامي في الخطوط الأصلية والأصول الأساسية، وإن كان عليه السلام متطابقاً مع الخطوط العامة للتوراة والإنجيل أيضاً، ولكن بما أن دينك الكتابين ابتلياً بالتحريف وبقي القرآن مصوناً منه، لذا يمكننا أن نقول: إنه عليه السلام وبقية الأنبياء الإبراهيميين يتوافقون مع أصول القرآن ودين المسلمين. ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٠).

ارتباط ثلاثة مجاميع بسيدنا إبراهيم:

بعد أن نفت الآية الكريمة في الجزء السابق، ارتباط سيدنا إبراهيم باليهود والنصارى، ونفت كذلك انتساب وارتباط تلك المجموعتين به، فقد قدّمت ثلاثة مجاميع على أنّهم ورثته وأتباعه:

- ١- المؤمنون به من الذين عاصروه واتّبعوه ونصروه ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.
- ٢- خاتم الأنبياء ﴿وهذا النبي﴾.
- ٣- المؤمنون بخاتم الأنبياء ﴿والذين آمنوا﴾.

البحث الأدبي والتفسيري الصحيح:

قرأ البعض ﴿هذا النبي﴾ على النصب، وفسروه بهذا المعنى «أن أولى الناس بإبراهيم، للذين اتبعوه وأتباع خاتم الأنبياء». إلا أنه ناهيك عن عدم تناسب هذه القراءة مع ظاهر الآية، فإن عبارة ﴿والذين آمنوا﴾ ستلغى أيضاً. وبناءً على ذلك، فإن قراءة الرفع هي الأرجح.

القرآن واحترام خاتم الأنبياء:

بما أن القرآن الكريم ينظر باحترام خاص للسيد الخاتم ﷺ، ويرى أنه أعظم من أن يكون تابعاً لأحد، لذا فإنه عندما يذكر الأنبياء الإبراهيميين، يخاطبه بالقول: ﴿فبهدهم اقتده﴾^(١١). إلا أنه يخاطبهم ويخاطب المسلمين أيضاً للاقتداء بملة إبراهيم ﷺ: ﴿... ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين...﴾^(١٢).

نوح ﷺ من أول الدعاة إلى التوحيد:

يعدّ نوح ﷺ أول نبيٍّ صاحب كتاب وشريعة، وحصل على لقب شيخ الأنبياء. لذا عدّه القرآن الكريم من أول الدعاة إلى التوحيد، ويسلم عليه بكل عظمة وإجلال، ويقول: ﴿سلامٌ على نوح في العالمين﴾^(١٣)، حيث لم يرد مثل هذا التعبير بحق باقي الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿سلامٌ على موسى وهارون﴾^(١٤)، ﴿سلامٌ على إبراهيم﴾^(١٥).

النبي نوح ﷺ مؤسس التوحيد الإبراهيمي:

بعد ذلك عدّ القرآن الكريم سيدنا إبراهيم ﷺ من أتباع نوح ﷺ، وأنّ التوحيد الذي وضع أسسه نوح - سلام الله عليه - أساسٌ لدين إبراهيم، كما في



قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾^(١٦). أي «وإن من شيعة نوح إبراهيم الخليل - سلام الله عليه -».

معنى الشيعة:

يسمى الشيعة «شيعة»؛ لأن رشحات الشريعة تشيع وتنتشر، على أثر اتباع مجموعة ما لصاحب تلك الشريعة.

ولاية الله أساس اتباع الأنبياء:

وتذكر الآية الكريمة في نهايتها، السبب في جعل سيدنا إبراهيم عليه السلام محوراً؛ تمتعه بالولاية الإلهية، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ويتضح من ذلك أنه عليه السلام وأتباعه، وأن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، يعدّون من المصاديق الواضحة للمؤمنين، وأن امتلاك سيدنا إبراهيم لمثل هذا المقام، يعود إلى تمتعه بإيمان الولاية الإلهية الشامل الذي حباه الله تعالى به.

صفات اتباع إبراهيم عليه السلام:

من أراد أن يكون من أتباعه عليه السلام، عليه أن يتّخذ أسوة له، ويعمل وفق تعاليمه؛ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(١٧).

البراءة من المشركين:

من جملة واجبات اتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام، الوقوف بوجه الطواغيت، وإعلان البراءة من معتقدات المشركين، كما قال هو عليه السلام والذين آمنوا به: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾، والافتداء به عليه السلام في قضية البراءة من الطواغيت والمشركين،

كاقتدائهم به في الجانب الإيجابي من الاقتداء أي المولاة، كمناسك الحج والزيارة.

إثبات الإمامة في نهج البلاغة:

الآية الكريمة: ﴿إِن أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ من جملة الآيات التي استفاد منها أمير المؤمنين عليه السلام لإثبات حقه كما ورد في نهج البلاغة، وجعلها محوراً لاستدلاله على هذا الأمر.

نموذجان من كلام الإمام عليه السلام:

النموذج الأول: عبارة عن الكتاب الذي أرسله الإمام عليه السلام إلى معاوية، حيث استنطق فيه سمّة من فضائل أهل البيت. ويقول عليه السلام أيضاً: «إِنْ قَوْمًا يَقْتُلُونَ فِي جِهَاتِ الْقِتَالِ، وَلَكِنْ قَتَلْنَا يَحْظِي بِلِقَبِ «سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ»، وَإِنْ قَوْمًا قَطَّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي الْمَعَارِكِ، حَتَّى إِذَا قَطَّعَتْ يَدُ أَحَدِنَا، بَلَغَ مَقَامَ «الطَّيَارِ فِي الْجَنَّةِ» وَ«ذَوِ الْجَنَاحَيْنِ».

صلة الرحم وطاعة النبي عاملا تثبيت الخلافة:

يقول عليه السلام في نهاية الكتاب: «فإسلامنا قد سُمِعَ، وجاهليتنا لا تُدْفَعُ، وكتابُ الله يجمع لنا ما شَدَّ عَنَّا»؛ أي: إن سوابقنا ولواحقنا واضحة، وآيات القرآن الكريم جمعت ما شَدَّ عَنَّا؛ وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾^(١٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. وطبقاً لما جاء في هاتين الآيتين، نحن أولى بالإمامة والخلافة لو كانتا على أساس القرابة. وإن كانتا على أساس الطاعة والاتباع، فنحن أولى بالأمر أيضاً، وإننا أقرب إلى النبي في كلتا الحالتين، فنحن

مرّةً أولى بالقرابة وتارةً أولى بالطاعة.

بناءً على ذلك وطبقاً لما جاء في الآية الأولى، فنحن أقرب إلى النبي وأنتم أبعد، ولما جاء في الآية الثانية، نحن المطيعون وأنتم العاصون. النموذج الثاني: - ورد في باب حكمه عليه السلام: «إن أولى الناس بالأنبياء، أعلمهم بما جاءوا به».

وقد جاءت كلمة «أعملهم» بدل «أعلمهم» في بعض النسخ والكتب التفسيرية، ولكن يستفاد من القرائن المستحصلة، بأن أعلمهم هي الصحيحة، لأن المراد من كلمة العلم، في كلامه عليه السلام، ليس خصوص العلم النظري؛ لكي يتسنى لأولئك الذين يقرءونها أعلمهم أن يستندوا في ذلك إلى مطابقة الرواية مع الآية القائلة بجعل التبعية العملية هي المحور الأساس. بل إن كلمة العلم يصطلح بها - أيضاً - على من ينسجم عمله مع قوله؛ كما جاء في إحدى الروايات: «العالم من صدق قوله فعله»، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ هذه الآية والرواية تدلان على هذه المسألة دلالة واضحة؛ لأن الخوف مرحلة «عملية» ترتبط بالعقل العملي، ولا علاقة له «بالعقل النظري».

بعد ذلك يقول الإمام علي عليه السلام في استنطاق الآية الشريفة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾؛ يقول: «إن ولي محمد ﷺ من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وعدوّ محمد ﷺ من عصى الله وإن قربت قرابته». وبناءً على ذلك، فإن الإمام يبيّن للجميع، أنه من كان مطيعاً للنبي ﷺ فهو من أقربائه وأوليائه وإن بعدت لحمته. وعدوّه من عصاه ولم يطع أوامره، وإن كان من أقربائه ولحمته.

الهوامش :

- (١) آل عمران : ٦٥-٦٨ .
- (٢) الأحقاف : ٤ .
- (٣) الميزان ٣ : ٢٧٦ .
- (٤) التوبة : ٣٠ .
- (٥) محمد : ٣٨ .
- (٦) آل عمران : ٦٧ .
- (٧) البقرة : ١٤٠ .
- (٨) ورد في مكان آخر أنه لو لم يكن قيد «مسلماً» موجوداً، فإن الموضوع كان واضحاً أيضاً، وإنما جاء القيد لغرض التوضيح ليس الآ.
- (٩) تطرقنا إلى شرحه بالتفصيل آخر الآية.
- (١٠) آل عمران : ٦٨ .
- (١١) الأنعام : ٩٠ .
- (١٢) الحج : ٧٨ .
- (١٣) الصافات : ٧٩ .
- (١٤) الصافات : ١٢٠ .
- (١٥) الصافات : ١٠٩ .
- (١٦) الصافات : ٨٣ .
- (١٧) الممتحنة : ٤ .
- (١٨) الأنفال : ٧٥ .

الحجّ في السنّة واعظ زاده الخراساني

الحجّ والعمرة في اللغة يعنيان القصد والذهاب إلى مكان معين للزيارة^(١)، غير أنّ العرب أطلقت اللفظين - حتى قبل الإسلام - على نوعين من العبادة والزيارة لبيت الكعبة. والقرآن استعمل اللفظين مراراً بهذا المعنى الشائع لهما كقوله تعالى: ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(٢). من هنا فإنّ المعنى الشائع لهذين اللفظين ليس «حقيقة شرعية» ولا هو اصطلاح شرعي إسلامي كما تصوّر البعض ذلك.

كلمة «الحجّ» - بكسر الحاء - في الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣) وكذلك كلمتا «حَجٌّ» و«اعْتَمَرَ» في الآية: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾^(٤) تدلّ جميعاً على أنّ الحجّ والعمرة بمعناهما الشائع اليوم كانا

موجودين في اللغة العربية قبل الإسلام.

السورة ٢٢ من القرآن تحمل اسم الحج، ويطلق أحياناً على الحج اسم «الحج الأكبر» وعلى العمرة اسم «الحج الأصغر» لمناسبة ما ورد في الآية: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾^(٥)، مع أن هذا اليوم موضع اختلاف بين أن يكون يوم عرفة أي يوم التاسع من ذي الحجة^(٦)، أو يوم النحر أي يوم العاشر منه.

توافرت الروايات عن طريق الفريقين أن الحج من دعائم الإسلام، وأنه واحد من الأسس الخمسة التي بني عليها الإسلام وهي: الشهادتان، والصلاة، والصوم، والحج^(٧)، وفي الروايات الشيعية ذكر اسم ولاية أهل البيت مكان الشهادتين^(٨) في آخر الأسس الخمسة.

إحدى الروايات النبوية^(٩) تصف كل واحد من أركان الدين بوصف معين، فتصف الصوم أنه جنة، والزكاة أنه مطهر للأموال، والجهاد بأنه عز الإسلام، وتصف الحج بأنه الشريعة، دلالة على أهمية هذه العبادة حتى كأنه الشريعة بأجمعها.

أهمية فريضة الحج في الإسلام تبلغ درجة بحيث إن تركها في لسان القرآن كفر: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١٠). وفي الجواب عن السؤال بشأن (الأهلة) يذكر القرآن الحج بشكل منفصل، إلى جانب مواقيت سائر الأعمال والعبادات فيقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(١١).

يمكن دراسة الحج على أربعة أصعدة: القرآن، والسنة، والفقه، وعمل المسلمين، وواضح أن البحث الوافي والكامل لكل صعيد لا يمكن أن ينفصل عن بقية الأصعدة. غير أننا نستهدف دراسة الحج على صعيد السنة، ولابد قبل ذلك من استعراض سريع لآيات الحج.



عرض لآيات الحج في القرآن:

الآيات المرتبطة بالحج والكعبة تبلغ ثلاثين آية ووردت في خمس سور هي: البقرة ١٣ آية^(١٢) وآل عمران: ١٢ آية^(١٣)، والمائدة: ٤ آيات^(١٤)، والتوبة: ٣ آيات^(١٥)، والحج: ٨ آيات^(١٦). هذا إلى جانب آيات سورة البقرة بشأن القبلة^(١٧)، وحرمة القتل في الحرم^(١٨)، وإلى جانب آيات سورتي «الفيل» و«إيلاف» التي ترتبط بالكعبة بشكل من الأشكال.

المواضيع التي تناولتها الآيات حول الحج بالتفصيل حيناً، وبالإجمال حيناً آخر عبارة عن: بيت الكعبة أول معبد، وبناء البيت بيد إبراهيم وإسماعيل، ودعوة إبراهيم للناس بالحج، والآيات البيّنات ومقام إبراهيم، وكون الحرم آمناً، ووعد الله للمسلمين بدخول المسجد الحرام، ووجوب الحج على المستطيع، ووجوب إتمام الحج والعمرة لله، وأشهر الحج، وبعض محرّمات الإحرام، والحج الأكبر، وسقاية الحاج، والطواف وصلاته، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف في المشعر الحرام والإفاضة من المشعر وعرفات، والحلق والتقصير، وذكر اسم الله على الهدي بدل اسم الأوثان، وأكل الأضحية والتصدّق بها، وحكم المعذور عن الحج، والتكبير في أيام منى ومقدار الوقوف فيها، وحرمة الصيد في الحرم وكفارته، وحليّة صيد البحر، وحرمة الشعائر والقلائد، والأشهر الحرم وتعظيم الشعائر الإلهية، وجواز الهجوم في الحرم على من يصدّ الناس عن الحج، كما تتضمّن إشارة إلى فلسفة الحج كما في الآية: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾^(١٩).

لو ألقينا نظرة سريعة على آيات الحج في القرآن الكريم لاستخلصنا منها المسائل التالية:

١ - الكعبة والحرم والمشاهد المقدسة، وهكذا أعمال الحج ومناسكه ذكريات بقيت عن عهد إبراهيم الخليل جدّ الرسول الأكرم، واستمرّت ما يقارب

من ألفي عام بين أبناء إسماعيل والعرب، لكنها انحرفت وتغيّرت بالتدريج، وهذه المناسك التوحيدية المعبرة عن الخلوّص لله الواحد الأحد، قد تلوّثت بالشرك والوثنيّة، وتبدل بيت التوحيد إلى بيت للأصنام.

نفهم من القرآن أنّ سيدنا إبراهيم دعا الناس - لأوّل مرّة بأمر ربّه - إلى الحج، وذكرنا أنّ كلمتي الحج والعمرة كانتا شائعتين قبل الإسلام، من هنا فالحج ليس عبادة فحسب، بل رسالة ودعوة، والعمل به تلبية لتلك الدعوة، والتلبية في الحج إجابة لدعوة الله في الميثاق الأزلي، ودعوة شيخ الأنبياء إبراهيم معاً.

٢ - نظراً لعراقة مناسك الحجّ، فإنّ آيات الحجّ إمّا أن تكون قبولاً، أو رفضاً للمناسك الشائعة بين العرب قبل الإسلام. فلم يتحدّث القرآن عن الحج بلغة التأسيس والإنشاء دون الالتفات إلى تاريخه، كما تحدّث عن سائر العبادات. من هنا فإنّ فهم كثير من آيات الحجّ يحتاج إلى فهم تاريخه وسابقتها، وهذا ما نجده في محتويات السنّة، وفي الروايات والأحاديث الواردة بشأن الحجّ. أي أنّ الروايات الواردة عن الرسول والصحابة وأئمة آل البيت تتحدّث عن مراسم وآداب الجاهلية في بعض أعمال الحجّ، من خلال تفسير الآيات المرتبطة بتلك الأعمال.

٣ - نستطيع أن نفهم مما تقدّم سبب عدم بيان كيفية مناسك الحج والعمرة بالترتيب في القرآن الكريم. سائر العبادات طبعاً لم تُذكر أيضاً تفصيلها في القرآن الكريم، بما في ذلك الصلاة التي هي عمود الدين. بل ذكر القرآن مسائلها العامة تاركاً للسنّة ذكر التفاصيل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصلي».

إضافة إلى هذه القاعدة العامة الشاملة لكلّ العبادات، هناك مسألة خاصّة بالحجّ. فالقرآن استند إلى فهم الناس لأعمال الحجّ في العصر الجاهلي، واكتفى



بالإشارة إلى نقاط الانحراف في تلك المناسك الجاهلية. لذلك فإن الحاجة ماسة إلى السنة في تعيين التفاصيل، وتشخيص المواضع والأمكنة داخل مكة وخارجها بما في ذلك مواقيت الإحرام. ولا تبلغ عبادة في حاجتها إلى السنة مبلغ هذه العبادة.

٤ - مع أن القرآن ذكر في مواضع عديدة إشارة أو تصريحاً أكثر مناسك الحج وأعماله، فبعض أجزاء الحج ليس لها ذكر في القرآن، وسندها الوحيد نجده في السنة، مثل: استلام الحجر، ورمي الجمار، أو ترتيب الحج والعمرة والتفاوت بينهما، وأحكام الخلل والشكوك وكفارة كثير من المحرمات وأمثالها. ولندخل الآن في صلب الموضوع لدراسة الحج في السنة.

ما هي السنة؟

السنة في اللغة الطريقة والأسلوب، وفي عرف المسلمين سنة رسول الله، ويعبر عنها وعن القرآن الكريم بالكتاب والسنة. وهذا الاقتران بين الكتاب والسنة باعتبارهما مصدرين أساسيين للإسلام، ورد على لسان الرسول الأعظم، وكان شائعاً دون شك في عصر الرسول^(٢٠). فحديث الثقلين في أكثر مصادر أهل السنة والشيعة ورد بعبارة «كتاب الله وعترتي» لكنه ورد في بعض مصادر أهل السنة بلفظ «كتاب الله وسنتي» وإلى هذا اللفظ الأخير استند كثير من الكتاب والمفكرين من أهل السنة في كتاباتهم وأحاديثهم، ناسين عبارة «كتاب الله وعترتي»^(٢١) بينما تمسك الشيعة بهذه العبارة التي بلغت حد التواتر في كثرة روايتها.

غير أن تعبير «الكتاب والسنة» شائع على لسان الشيعة في مصادرهم الحديثية والفقهية مثلما هو شائع في المصادر السنية باعتبارهما مصدرين

أساسيين للشريعة^(٢٢). ففي الكافي للكليني باب تحت عنوان «باب الردّ إلى الكتاب والسنة، وأنه ليس شيء من الحلال والحرام، وجميع ما يحتاج الناس إليه إلا وقد جاء فيه كتاب أو سنة»^(٢٣) وباب آخر تحت عنوان «باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب»^(٢٤). وثمة روايات عن الإمامين الصادق والباقر مضمونها أن: «ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة».

جميع الفرق الإسلامية تؤمن بأن الكتاب والسنة مصدران أساسيان من مصادر الفقه، وتجمع عليهما، وإن اختلفت في أصول الفقه الأخرى.

السنة باعتبارها طريقة الرسول وسيرته قُسمت بالتدريج إلى القول والفعل والتقرير. أي إن كل قول أو فعل صدر عن الرسول، ويُبنى بحكم من الأحكام التكليفية أو الوضعية على صعيد الأعمال الفردية والاجتماعية والعبادية ولو بالايحاء والإشارة المعتبرة، أو السكوت ذي المعنى، هو سنة، وقابل للاستناد إليه. ومن هنا نستطيع أن نقول: إن كل حياة الرسول بعد النبوة بما في ذلك الحركة والسكون والإقدام والامتناع والقول، والسكوت المفيد لحكم حسب القواعد المقررة في علم الأصول، هي سنة قابلة للتأسي بها، ومصدق الآيات الكريمة: ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(٢٥)؛ ولذلك اهتم المسلمون بتقصي تفاصيل أعمال وأقوال وسيرة الرسول وحفظها في الصدور، ثم تدوينها ونقلها من جيل إلى جيل. وبين أيدينا اليوم كنوز قيّمة، ومجاميع واسعة نفيسة في سنة الرسول هي كتب السنن وجوامع الحديث، التي هي حصيلة الجهد العلمي لعلماء المذاهب الإسلامية المختلفة. هذا وإن جرح الأحاديث الواردة في هذه الكتب وتعديلها وقبولها أو رفضها يحتاج إلى تخصص في عدد من الفروع العلمية. وهذه الفروع العلمية هي أيضاً حصيلة الجهود العلمية لعلماء الحديث.

مصطلح السنة الذي كان أساساً يطلق على سنة رسول الله اتسع فيما بعد،



وأضحى يشمل عند أهل السنة أقوال الصحابة الذين يثقون بعدالتهم وقداستهم واجتهادهم. وأصبح قول مثل هؤلاء الصحابة تعبيراً عن قول الرسول. وفي مقابلهم وسّع الشيعة وأتباع مدرسة آل البيت مفهوم السنة مستندين إلى حديث الثقلين وإلى أدلة أخرى، لتشمل أقوال وأفعال أئمة آل البيت المعصومين الوارثين لعلم الرسول. ولم يفرّقوا عملياً بين سنة الرسول وسنة الإمام. وعلى أي حال، كل فريق يطلق كلمة السنة على الأحاديث والروايات المعتبرة لديه الدالة على سنة الرسول، ولو أنها كانت قول الصحابي أو فعله (أو قول الإمام أو فعله عند الشيعة)، التي يطلق عليها اسم السنة الحاكية، مقابل ما يسمّى بالسنة المحكيّة وهي: السنة الواقعية لرسول الله أو الإمام.

نقصد بالسنة هنا المعنى العام الشائع لها عند الفريقين، ونستهدف تقديم صور عن أعمال الحج ومناسكه في الروايات والأحاديث الإسلامية، أو كتب السيرة والتاريخ، التي توضح بأي حال أقوال الرسول وأفعاله في الحج، بما في ذلك آثار أهل السنة المعتبرة، أو الشيعة الإمامية والزيدية والإسماعيلية. وسنحصر البحث في إطار السنة، ولا نتطرق إلى المباحث القرآنية والفقهية ذات العلاقة الأساسية بمباحث السنة، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك.

جولة في أحاديث الحج:

الرجوع إلى جميع المصادر الحديثية الموثقة عند المسلمين، ليس بالأمر اليسير، ولا بمقدور هذا البحث المحدود أن يستوعب ذلك. لذلك لابد من الاختصار على كتب معينة. فن كتب أهل السنة نرجع إلى الصحاح الستة، أي صحيح البخاري ومسلم وسنن النسائي، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود، وابن ماجة، إضافة إلى السنن الكبرى للبيهقي وسنن الدارمي .. وإلى طبقات ابن سعد

وموطاً مالك ... وإلى تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام. ومن كتب الشيعة الإمامية: الكافي للكليني، والتهذيب للشيخ الطوسي، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، وبحار الأنوار للعلامة المجلسي، ووسائل الشيعة للشيخ الحرّ العاملي، والوافي للفيض الكاشاني، ومن الزيدية، مسند زيد بن علي، ومن الإسماعيلية، دعائم الإسلام للقاضي النعمان، ونرجع أيضاً عند الضرورة إلى مصادر أخرى.

سنستعرض أولاً الموضوعات العامة للحج، وأحاديثه في هذه الكتب، وتجنباً للإطالة نركز البحث بعدها على أحاديث حجة الوداع. نستطيع تقسيم محتويات أحاديث الحج إلى عدة موضوعات:

١ - موضوعات غير فقهية لها علاقة بالكعبة ومكة والحج مثل: خلق أرض الكعبة وامتداد الأرض منها (دحو الأرض)، وبدء بناء الكعبة، وحج آدم، وإبراهيم، وإسماعيل، وسائر الأنبياء عليهم السلام، وتاريخ الحجر الأسود، وسبب الحث على استلامه، وارتباط هذا العمل بمسألة عالم الذر، وأخذ الميثاق من الناس، وامتحان الخلائق عن طريق الكعبة، وأسرار الحج وعلل أعماله، وقصة أصحاب الفيل، وحفر زمزم، وهدم الكعبة وتجديد بنائها، وأمثال ذلك، المتوفرة في روايات الشيعة المجموعة في الكافي ^(٢٦)، ومن لا يحضره الفقيه ^(٢٧)، وبحار الأنوار ^(٢٨)، أكثر من كتب أهل السنة، وتحكي بشكل عام عن علاقة الحج بإبراهيم وإسماعيل.

هذا عرض لمواضيع الحج التي لا ترتبط كثيراً بالجانب الفقهي له، وهذه الموضوعات قلماً نجدتها في الكتب الحديثية المقتصرة على السنن والأحكام، مثل التهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي ووسائل الشيعة، وجامع أحاديث الشيعة، ومستدرک الوسائل من كتب الشيعة، وفي الصحاح والسنن - غير صحيحي



البخاري وجامع الترمذي اللذين لا يختصان بالسنن - من كتب أهل السنة المعتمدة، لكن كتب التفسير والتاريخ مفعمة بهذه الموضوعات.

٢- الموضوعات التي تُشكّل مقدمة لسفر الحج مثل: آداب السفر، وآداب تربية الراحلة المذكورة غالباً في بداية كتب الحج أو في نهايتها، وهكذا آداب زيارة النبي، والمزارات الشريفة، وسائر الأماكن المقدسة، المذكورة غالباً في نهاية أكثر هذه الكتب.

٣- أحكام الحجّ التي هي موضوع بحثنا. القسم الأعظم من روايات الحج في كتب أهل السنة تتضمن شرحاً لأعمال وأقوال الرسول الأكرم في حجة الوداع، وأحياناً في عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وفتح مكة، أو بشكل عام أحكام الحج دون ذكر الزمان والمكان. أما الكتب الحديثية للشيعة فتتضمن عرضاً لحجة الوداع - كما سيأتي - وباباً تحت عنوان «حجّ رسول الله ﷺ» في بعض هذه الكتب مثل الكافي للكليني^(٢٩)، والوافي للفيض الكاشاني^(٣٠)، وجمار الأنوار^(٣١)، لكن أكثر الروايات في هذه الكتب تتضمن أقوال وفتاوى وآراء أئمة آل البيت في مسائل الحج، التي كانوا يُسألون عنها، أو التي ترتبط بمظاهر الانحراف في الحج، وبمسألة حج التمتع، وهكذا تتضمن نقلاً لأحكام الحج عن رسول الله عن طريق أئمة آل البيت عليه السلام.

عناوين أبواب كتب الحديث تفصح عن مضمونها، ويمتاز كتاب «وسائل الشيعة» من بين الكتب الحديثية بوضع عناوين دقيقة للأبواب مستنداً إلى الأحكام المستفادة من الروايات. وفهرس هذا الكتاب الذي أسماه المؤلف «من لا يحضره الإمام»^(٣٢) يضم خلاصة وعصارة للروايات الفقهية عند الشيعة الإمامية.

٤- الأحاديث المرتبطة بتفسير آيات الحج، وهو جزء من سائر الأقسام.

والبخاري في صحيحه^(٣٣) اتخذ من هذه الآيات عنواناً لعدد من أبواب صحيحه، وذكر الروايات الواردة في شرحها. لكن هذه الأحاديث وردت في عدد آخر من كتب الحديث موزعة على الأبواب الأخرى، كل في محلها. بعض الكتب الحديثية مثل الوافي للفيض الكاشاني، وبحار الأنوار للمجلسي، وجامع الأحاديث، دأبت على ذكر الآيات المرتبطة بكل باب في بداية ذلك الباب، وفي مكان واحد. والعلامة المجلسي في بحار الأنوار شرح الآيات أيضاً بعد ذكرها وقبل أن يبدأ بذكر الأحاديث.

ذكرنا حتى الآن النقاط المشتركة في كتب الحديث بشأن الحج. ونستعرض الآن روايات الحج، ورواتها في كل واحد من كتب أهل السنة والشيعة، لكي نستطيع أن نقارن بينها بعد ذلك.

روايات الحج في كتب أهل السنة، ورواتها:

التدقيق النسبي في كتب أهل السنة المذكورة آنفاً، دللنا على أن أحاديث الحج والعمرة نقلت عما يقارب من خمسة ومائة صحابي^(٣٤). وهذه الروايات تتضمن غالباً مشاهدات الرواة، ومسموعاتهم في حجة الوداع، بيتوها بشكل صريح حيناً، وبشكل مبهم حيناً آخر. بين هؤلاء عددٌ روى أحاديث عن عمرة الحديبية^(٣٥)، وعمرة القضاء^(٣٦)، وفتح مكة^(٣٧)، أو خروج النبي وهجرته من مكة^(٣٨)، مما له علاقة بالحج. بين هؤلاء الصحابة أربعة فقط ممن اشتركوا تأكيداً في حجة الوداع، ورووا القسم الأعظم من الواقعة، أو روى أحكام الحج بشكل عام، وهؤلاء الصحابة بترتيب عدد الروايات المنقولة عنهم:

١ - عبد الله بن عباس؛ ما يقارب من ٤٥ حديثاً.

٢ - عائشة؛ ما يقارب من ٤٢ حديثاً.



٣- عبد الله بن عمر بن الخطاب؛ ما يقارب من ٣٢ حديثاً.

٤- جابر بن عبد الله الأنصاري؛ ما يقارب من ٢٢ حديثاً.

هذه النتيجة التي توصلنا إليها وجدناها بعد ذلك عند الإمام الشافعي إذ يقول: لهؤلاء الأربعة ميزة في حجة الوداع^(٣٩). إضافة إلى هؤلاء الأربعة، روي عن أنس بن مالك صحابي الرسول وخادمه ما يقارب من أربع عشرة رواية، وعن عليّ عليه السلام في كتب أهل السنة هذا العدد نفسه تقريباً، لكن الكتب الحديثية الشيعية كما سنرى نقلت عن عليّ روايات كثيرة.

ولابدّ من الإشارة إلى مسألة لا تخفى على المتخصصين في هذا الحقل: هي أنّ رواية الراوي في كتب الصحاح والسنن تكرر، بطريق واحد أحياناً، أو بطرق متعددة أحياناً أخرى، مع وجود اختلاف في ألفاظها. وفي إحصاء روايات الراوي ينبغي أن نحذف المكرّر، وهذا ما فعلناه. ومع أننا فهرسنا روايات الحج في الكتب المذكورة، راجعنا - تجنباً للمكرّر - كتاب «التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول» الذي أدغم مكرّر كتاب أو عدة كتب، واحتسبنا أيضاً الروايات التي لم ترد في هذا الكتاب، ورويت في مصادر أخرى. ومع ذلك لا ندّعي أن إحصاءنا يطابق الواقع تماماً، لكنّه يقترب منه حتماً.

بين هؤلاء الأربعة، ينفرد جابر بن عبد الله الأنصاري بروايته لحجة الوداع كاملة كما رآها، ونحن سندرس هذا الحديث، وحديثاً آخر شبيهاً له روي عن طرق الشيعة دراسة مقارنة. أما الثلاثة الآخرون فرؤوا حجة الوداع بشكل متفرّق من خلال روايات متعددة، وروايات كلّ منهم تتضمنّ قسماً رئيساً من أحداث حجة الوداع. وهذا استعراض لمكانة الصحابة الأربعة من حجة الوداع:

١- عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: ابن عم الرسول، كان في حجة

الوداع مع أسرة الرسول الأعظم، وشاهد عن كتب مجريات حجة الوداع. كان له

آنذاك من العمر ما يقارب ثلاثة عشر عاماً. ومع أنّ القسم الأعظم من رواياته في هذا المجال تعتمد على مشاهداته ومسموعاته مباشرة - كما صرح بذلك، هو - فمن المؤكد أنّ القسم الآخر سمعه عن الآخرين، وذكر أسماءهم أحياناً من أمثال: الفضل^(٤٠) وعبد الله^(٤١)، شقيقه الأكبرين، وأبي طلحة^(٤٢)، وأحياناً رجع إلى أفراد من أمثال أبي أيوب الأنصاري^(٤٣) للسؤال عن الحج، ورجع أيضاً إلى الحصين بن عوف^(٤٤)، وعمر^(٤٥).

توصلتُ من خلال دراستي لروايات ابن عباس أن أكثر رواياته التي رواها عن رسول الله في الموضوعات المختلفة وصلته عن طريق الآخرين، وابن عباس وسائر الصحابة لم يذكروا أسماء من رووا عنهم بسبب الثقة المتبادلة السائدة بين المسلمين آنذاك. وإلا فإن سنن ابن عباس لم يقتض أن يسمع ويدون هذا العدد من الروايات مباشرة عن الرسول، وابن عباس صرح بنفسه أنه استفاد من معلومات أكثر الصحابة.

ابن عباس مثل عليّ وجابر، وبعض الصحابة الآخرين، قاوم بشدة رأي الخليفة الثاني بشأن منع حجّ التمتع الذي أقرّه الرسول الأكرم في حجة الوداع. وهذا الموقف ظاهرٌ في رواياته^(٤٦).

٢ - عائشة زوج الرسول، وابنة الخليفة الأول أبي بكر، صحبت الرسول في هذا السفر، وروت حادثة حيضها في بداية السفر، وما قرّره الرسول لها من حكم، وكيفية عمرتها مع أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر من «التنعيم» (محلّ خارج مكة) بأمر الرسول ﷺ، وقصة الأضاحي التي قدّمها الرسول عن أزواجه، وحوادث أخرى عن هذه السفرة^(٤٧). رواياتها حول كيفية إحرام الرسول والمسلمين في حجة الوداع المرتبطة بمسألة عمرة التمتع الخلافية، فيها اختلاف حيرت المحدثين^(٤٨). يبدو أنّ هذه الروايات المنسوبة إلى أم المؤمنين

فيها تحريف لطريقة الإحرام، وانحياز بشكل غير مباشر لتأييد رأي الخليفة الثاني بشأن «التمتع»، وهذا الانحياز تجلّى في آل الزبير بمن فيهم ابن أخت عائشة عروة بن الزبير^(٤٩).

٣ - عبد الله بن عمر بن الخطاب. كان يوم حجة الوداع شاباً، عمره بضع وعشرون سنة، وكان بدلالة رواياته حاضراً في تلك الحجة. استند في رواياته مراراً إلى مشاهداته في حجة الوداع، لكن موقفه من «حجّ التمتع» الذي منعه والده خلال فترة خلافته، غير واضح. بعض الروايات تحكي معارضته، ومقاومته الشديدة لرأي والده^(٥٠)، غير أنّ إصرار خلفاء بني أمية على اتباعه في مناسك الحج^(٥١)، تدلّ على أنه انتهج في هذه المسألة السياسة العامة نفسها للحكم الأموي، القائمة على أساس الدفاع عن رأي الخليفة في هذه المسألة، التي اتخذت منذ زمن عثمان طابعاً سياسياً.

٤ - جابر بن عبد الله الأنصاري، أحد أصحاب الرسول الأوفياء، وبعد الرسول استمرّ وفاءه لعليّ وأهل بيته حتى نهاية عمره الطويل. وتوفيّ سنة ٧٨ للهجرة.

جابر في حجة الوداع كان أيضاً شاباً ينيف على العشرين، وتابع كلّ شيء بدقة رؤيةً وسماعاً، واحتفظ به في ذاكرته، ونقله.

عدد رواياته في الحج، مع أنها أقل من عدد روايات الثلاثة الآخرين، انفردت - كما ذكرنا وسنفضّل الحديث في ذلك - برواية حجة الوداع من أولها إلى آخرها، وإن نقل الرواة بعد ذلك فقرات من ذلك الحديث بطرق مختلفة، وأحياناً بالطريق نفسه، كما رووا عن جابر ما لم يرد في ذلك الحديث المفصّل أحياناً أخرى.

جابر نقل بصراحة «حجّ التمتع» عن الرسول، ونقل المنع الذي صدر عن

الخليفة لهذا الحج، وفي الخلاف الذي ثارَ بين الصحابة بشأن هذه المسألة أصرَّ جابر على العمل بسنة الرسول (٥٢).

من خصائص جابر الأخرى، أن روايته في حجة الوداع كانت نقطة التقاء بين فقه وحديث الشيعة وأهل السنة في الحج. فهذه الرواية، وإن كانت قد رويت في كتب أهل السنة بأسانيدهم وطرقهم، تضمّنت طرقها إمامين من أئمة الشيعة هما: الإمام محمد بن علي الباقر، والإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، وكما سنرى فإن جميع الطرق تنتهي إلى جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله. وفي الوقت نفسه، أحداث حجة الوداع رويت بالشكل نفسه مع بعض التفاوت بطرق الشيعة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق. وسنفضّل الحديث في أسانيد كلّ من الروايتين، ومواضع اختلاف نصّها. كما سنقدّم للقارئ في نهاية المقال النصّ الكامل للحديثين. ولعلّ هذه المقارنة فريدة من نوعها بشأن هذين الحديثين. ولكن قبل ذلك نلقي نظرة على روايات الحج، ورواتها في آثار فرق الشيعة، بما في ذلك الشيعة الإمامية

له تابع في العدد القادم

الهوامش :

(١) في القاموس وأقرب الموارد، إحدى معاني الحج القصد، وكثرة التردد، يقول صاحب أقرب الموارد حجّ فلاناً حجاً: قصده، وبنو فلان فلاناً: إذا أطالوا الاختلاف إليه، أي يقصدونه ويزورونه. هذا أصله، ثم تُعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك، الحجّ (بالكسر) لغة في الحج، وقيل بالكسر الاسم وبالفتح المصدر، ويقول في العمرة: اسم من الاعتماد، وهي لغة: القصد إلى مكان عامر والزيارة التي فيها عمارة الودّ، وشرعاً أفعال مخصوصة تسمّى بالحج الأصغر

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) آل عمران: ٩٧.



- (٤) البقرة: ١٥٨.
- (٥) التوبة: ٣.
- (٦) الكافي ٤: ٢٦٥ عن قول الصادق: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمي الجمار، والحج الأصغر العمرة، في بحار الأنوار، ط كمباني ١: ٧٤ روايات بهذا المضمون، ورواية بأنه يوم النحر ورواية في ردّ قول ابن عباس تشريح أنه يوم النحر لا يوم عرفة، جامع الترمذي ٤: ١٦٢ ويقال للحج الأكبر: يوم النحر، وللحج الأصغر: العمرة.
- (٧) صحيح البخاري ١: ٩.
- (٨) في جامع أحاديث الشيعة ١: ٤٦١ وما بعدها، روايات عديدة بطرق وألفاظ مختلفة عن الرسول الأعظم وأئمة أهل البيت، هذه الرواية في دعائم الاسلام ١: ٢ كالتالي: بني الاسلام على سبع دعائم: الولاية، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد.
- (٩) جامع أحاديث الشيعة ١: ٤٧٥ نقلاً عن خصال الصدوق وعلل الصدوق.
- (١٠) آل عمران: ٩٧.
- (١١) البقرة: ١٨٩.
- (١٢) البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩، ١٥٨، ١٨٩، ١٩٦-٢٠١.
- (١٣) آل عمران: ٩٦ و ٩٧.
- (١٤) المائدة: ٩٤-١٠٧.
- (١٥) التوبة: ٣ و ١٩ و ٣٧.
- (١٦) الحج: ٢٦-٣٠ و ٣٢-٣٤.
- (١٧) البقرة: ١٤٢-١٤٥ و ١٤٧-١٥٠.
- (١٨) البقرة: ١٩١-١٩٤.
- (١٩) الحج: ٣٨.
- (٢٠) شواهد ذلك في سنن الدارمي ١: ٤٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠.
- (٢١) مصادر هذا الحديث تجدها في مفتاح كنوز السنة، كلمة (عترة)، المراجعات: ٢٢ - ورسالة حديث الثقلين للشيخ قوام الدين الوشنوي القمي - وجامع أحاديث الشيعة ١: ٢٢-٣٥ و ١٨٦ وما بعدها، في ص ٢٢ ذكر أنّ هذا الحديث منقول عن ٣٤ صحابي وصحابية وأكثر من ١٨٠ من أكابر أهل السنة إضافة إلى الشيعة، وفي ص ٢٠٤ ذكر اسم هؤلاء الأفراد نقلاً عن صاحب كتاب «العبارات».
- (٢٢) جامع أحاديث الشيعة ١: ١٢٦، عن أبي عبد الله عليه السلام: إنا إذا لقينا ربنا قلنا يا ربنا عملنا بكتابك وسنة نبيك، ويقول القوم برأينا، وعنه: إنا لا نعدل بكتاب الله وسنة نبيه.
- (٢٣) الكافي ١: ٥٩.
- (٢٤) الكافي ١: ٦٩.
- (٢٥) الأحزاب: ٢١. أنظر إلى آيات حجية سنة النبي في جامع أحاديث الشيعة ١: ١٢٠ وما بعدها.
- (٢٦) الكافي ٤: ١٨٤ وما بعدها.
- (٢٧) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٣٤ وما بعدها.
- (٢٨) بحار الأنوار، ط كمباني ٢١: ٦ وما بعدها.

(٢٩) الكافي ٤: ٢٤٤.

(٣٠) الوافي ٢: ٣٠.

(٣١) بحار الأنوار، طبعة دار الكتب الإسلامية ٢١: ٣٩٠.

(٣٢) وسائل الشيعة ج ١ مقدمة الفهرست.

(٣٣) صحيح البخاري ٢: ١٦٣، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٢، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣٤) على النحو التالي:

١. أبو أيوب الأنصاري: ١؛ ٢. أبو أمامة عمن أبصر النبي: ١؛ ٣. أبو رزين العقيلي: ١؛ ٤. أبو موسى الأشعري: ١؛ ٥. أبو سعيد الخدري: ١؛ ٦. أبو بكر: ١؛ ٧. أم الحصين: ١؛ ٨. أبو غادية رجل من أصحاب النبي ﷺ: ١؛ ٩. أبو مليكة أو ابن أبي مليكة: ١؛ ١٠. أبو طلحة: ١؛ ١١. أبو بكر: ١؛ ١٢. أبو الطفيل، عامر بن وائلة: ١؛ ١٣. أسماء بنت أبي بكر: ١؛ ١٤. أبو ذر الغفاري: ٣؛ ١٥. أم ولد شيبة: ١؛ ١٦. أم جندب أو أم سليمان بن عمرو: ١؛ ١٧. أبو هريرة: ٩؛ ١٨. أم سلمة: ٢؛ ١٩. أسامة بن زيد: ٢؛ ٢٠. أنس بن مالك: ١؛ ٢١. أم الفضل: ١؛ ٢٢. أم حبيبة: ١؛ ٢٣. أم معقل: ١؛ ٢٤. أبو بردة بن دينار: ١؛ ٢٥. أبو شريح العدوي: ١؛ ٢٦. البراء بن عازب: ١؛ ٢٧. بلال بن رباح: ١؛ ٢٨. بلال بن الحارث: ١؛ ٢٩. بديل بن ورقاء: ١؛ ٣٠. بريدة: ١؛ ٣١. ثوبان مولى رسول الله ﷺ: ١؛ ٣٢. جابر بن عبد الله: ٢؛ ٣٣. جبير بن مطعم: ١؛ ٣٤. جرير بن عبد الله: ١؛ ٣٥. حارثة بن وهب الخزاعي: ١؛ ٣٦. حجاج بن عمرو الأنصاري: ١؛ ٣٧. حفصة بنت عمر: ١؛ ٣٨. الحصين بن عوف: ٢؛ ٣٩. الحكم والد مسعود بن الحكم الزرقني: ١؛ ٤٠. رافع بن عمرو المزني: ١؛ ٤١. رجل من الصحابة: ١؛ ٤٢. زيد بن ثابت: ١؛ ٤٣. زيد بن أرقم: ١؛ ٤٤. زيد بن خالد الجهني: ١؛ ٤٥. زيد بن الخطاب: ١؛ ٤٦. ذويب أبي قبيصة: ١؛ ٤٧. سبرة والد ربيع بن سبرة: ١؛ ٤٨. سودة بنت زمعة: ١؛ ٤٩. سعد بن مالك: ١؛ ٥٠. سعد بن أبي وقاص: ١؛ ٥١. سراقبة بن خثعم: ١؛ ٥٢. سعدي بنت عوف: ١؛ ٥٣. سهل بن سعد: ١؛ ٥٤. السائب أبو خلاد الأنصاري: ٣؛ ٥٥. سائب بن يزيد: ١؛ ٥٦. صعب بن جثامة: ١؛ ٥٧. طلحة بن عبد الله: ١؛ ٥٨. عاصم والد أبي البداع: ١؛ ٥٩. عثمان: ٣؛ ٦٠. علي ﷺ: ١؛ ٦١. حواله: ١؛ ٦٢. عمر بن الخطاب: ٧؛ ٦٣. عبد الله بن عباس: ٤؛ ٦٤. عائشة: ٣؛ ٦٥. عمرو بن الأحوص: ١؛ ٦٦. عبد الله بن مسعود: ٣؛ ٦٧. عبيد الله بن عباس: ١؛ ٦٨. عبد الله بن أبي بكر: ١؛ ٦٩. عمران بن الحصين: ٢؛ ٧٠. عبد الله بن عمرو بن العاص: ٢؛ ٧١. عبد الله بن السائب: ١؛ ٧٢. عبد الله بن أبي مغيث: ١؛ ٧٣. عبد الله بن يعمر الديلي: ١؛ ٧٤. عمرو بن خارجة: ١؛ ٧٥. عبد الرحمن بن معاذ: ١؛ ٧٦. عبد الله بن قذافة: ١؛ ٧٧. العلاء الحضرمي: ١؛ ٧٨. عبد الله بن قرط: ١؛ ٧٩. عروة بن مضر الطائي: ١؛ ٨٠. عبد الرحمن بن صفوان: ١؛ ٨١. عبد الرحمن بن أبي بكر: ١؛ ٨٢. عبد الله بن عدي بن حرمان: ١؛ ٨٣. عبد الله بن جُبينة: ١؛ ٨٤. عباس بن مُرداس: ١؛ ٨٥. عبد الله بن عمر: ٣٢؛ ٨٦. عقبة بن عامر الجهني: ١؛ ٨٧. الفضل بن عباس: ٢؛ ٨٨. قدامة بن عبد الله: ١؛ ٨٩. كعب بن عُجزة: ١؛ ٩٠. المطلب بن أبي ذراع السهمي: ١؛ ٩١. مسور وردان: ١؛ ٩٢. منبسط بن شريط الأشجعي: ١؛ ٩٣. محرّس الكعبي: ١؛ ٩٤. مردان: ٢؛ ٩٥. ناجية الأسلمي: ١؛ ٩٦. نبيثة: ١؛ ٩٧. نبط والد سلمة بن نبط: ١؛ ٩٨. والد أبي البداح: ١؛ ٩٩. الهرماس بن زياد الجاهلي: ١؛ ١٠٠. يحيى بن أبي كثير: ١؛ ١٠١. يزيد بن شيبان: ١؛ ١٠٢. يعلي بن أمية: ١؛ ١٠٣. أبو رافع: ١؛ ١٠٤. ابن أبي أوفى: ١؛ ١٠٥. أسماء بنت عميس: ١؛ (٣٥) ١. عبد الله بن أبي قتادة: سنن النسائي ٥: ١٨٥-٢. أبو قتادة: سنن النسائي ٥: ١٨٦-٣. عبد الله بن عمر:



- التاج ١٥١: ٢ نقلاً عن البخاري - ٤. كعب بن عُجْزة: التاج ١٥٣: ٢ رواه الخمسة.
- (٣٦) ١. محرس الكعبي: سنن الدارمي ٥٢: ٢ - سنن النسائي ١٩٩: ٥ و ٢٠٠ - التاج ١٤٩: ٢ - أنس بن مالك: سنن النسائي ٢١٣: ٥ - ٣. جابر بن عبد الله: سنن الدارمي ٦٦: ٤ - عبد الله بن أبي أوفى: سنن الدارمي ٦٩: ٢ - سنن ابن ماجه ٩٩٥: ٥ - علي بن أبي طالب: سنن الدارمي ٦٨: ٢.
- (٣٧) ١. يعلي بن أمية، التاج ١٠٥: ٢ رواه الخمسة - ٢. أنس بن مالك، سنن الدارمي ٧٣: ٢ - ٣. جابر بن عبد الله، سنن الدارمي ٧٤: ٢ - ٤. عبد الرحمن بن صفوان، التاج ١٢٠: ٢ نقلاً عن أبي داود - ٥. عبد الله بن عباس، التاج ١٥٨: ٢ و ١٦٢ رواه الشيخان - ٦. أبو شريح العدوي، التاج ١٥٨: ٢ رواه الشيخان والترمذي.
- (٣٨) ١. عبد الله بن عدي بن الحمراء، ...
- (٣٩) شرح صحيح مسلم ٨: ١٣٥ في هذا المصدر ذكرت خصائص كل واحد من هؤلاء الأربعة بالتفصيل.
- (٤٠) طبقات ابن سعد ٣: ١٨٠ - وسنن ابن ماجه ٢: ٩٧١، ١٠١١، ١٠١٧.
- (٤١) ...
- (٤٢) سنن ابن ماجه ٢: ٩٩٠.
- (٤٣) سنن ابن ماجه ٢: ٩٧٨.
- (٤٤) سنن ابن ماجه ٢: ٩٧١.
- (٤٥) سنن ابن ماجه ٢: ٩٩١ - وسنن أبي داود ١: ٢٨٤.
- (٤٦) سنن النسائي ٥: ١٥٣، ١٥٤ - صحيح البخاري ٢: ١٥٥، ١٥٧ - جامع الترمذي ٢: ٣٨ - مستدرك الحاكم النيسابوري ١: ٤٦٥.
- (٤٧) في صحيح البخاري ٢: ١٧٤ وما بعدها - صحيح مسلم ٨: ١٣٤ وما بعدها، ١٥٧.
- (٤٨)
- (٤٩) صحيح مسلم ٨: ٢١٩.
- (٥٠) سنن الدارمي ٢: ٧٠ - سنن النسائي ٥: ١٥١ - جامع الترمذي ٤: ٣٩.
- (٥١) صحيح البخاري ٢: ٩٨ و ٩٩.
- (٥٢) صحيح مسلم ٨: ١٦١ وما بعدها.

أضواء من أسرار الحجّ جعفر السبحاني

إنّ جميع الأنبياء قد بعثوا لمحاربة الشرك، وعبادة الأصنام، ولفهم هذا الأمر بشكل واضح يكفيننا مطالعة هذه الآية الشريفة:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾^(١).

إنّ هذه الآية المباركة توضح وبشكل جليّ، بأن من أهم واجبات الأنبياء إزالة مظاهر الشرك بأنواعه

كافة في كلّ آنٍ ومكان. من هنا ومن خلال أخذ هذا الأصل بنظر الاعتبار، فإنّ بعض الأعمال في الصلاة ومراسم الحج تبدو في ظاهر الحال وكأنها لا تتلائم مع مبدأ التوحيد؛ من قبيل: التوجه نحو الكعبة أثناء الصلاة، وما هي سوى أحجارٍ وطنين، أو لمس «الحجر الأسود» باليد الذي لا يعدو كونه جماداً ليس إلّا، أو السعي بين جبلي



هذا الأمر وسنامه وأبوك أسَّه وتماه
فقال أبو عبد الله عليه السلام: إِنَّ مَنْ أَضَلَّه اللهُ
وأَعْمَى قلبه استوخم الحق، ولم
يستعذبه، وصار الشيطان وليه وربّه
وقرينه، يورده مناهل الهلكة ثم لا
يصدره. وهذا بيت استعبد الله به خلقه؛
ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على
تعظيمه وزيارته، وجعله محلّ أنبيائه،
وقبله للمصلّين إليه، فهو شعبة من
رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه،
منصوب على استواء الكمال، ومجمع
العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو
الأرض بألفي عام فأحقّ من أطيع فيه
أمر، وانتهى عما نهى عنه وزجر الله
المنشئ للأرواح والصور» (٢).

فن خلال المنطق القويم
والحديث الحكيم، كشف الإمام
الصادق عليه السلام النقاب عن بعض أسرار
الحج. حيث سننقل نفحات ورشحات
من حديثه المبارك وسائر أئمة الهدى،
الوارد في الإجابة عن هذا السؤال:
والهدف المتوخى من وراء هذا النقل،

«الصفاء» و «المروة» وغيرها من
الأعمال. وعليه يفرض هذا التساؤل
نفسه، ما هو السرّ الكامن في هذه
الأعمال والواجبات؟ وما هو وجه
الاختلاف بينها وبين أعمال المشركين؟
وقبل البدء في بيان أسرار هذه
الأعمال، نُشير إلى أن هذا التساؤل
سبق أن طرح قديماً. ففي عصر الإمام
جعفر الصادق عليه السلام حضر ابن أبي
العوجاء - رئيس الماديين آنذاك - مع
جماعة من أصحابه عند الإمام
الصادق عليه السلام، وتوجّه له بالسؤال التالي:
«يا أبا عبد الله! إنّ المجالس أمانات،
ولابد لكلّ من به سعال من أن يسعل
أتأذن لي في الكلام؟

فقال: تكلم، فقال: إلى كم
تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا
الحجر، وتعبدون هذا البيت المعمور
بالطوب والمدرّ، وتهرولون حوله
هرولة البعير إذا نفر، إنّ مَنْ فكّر في
هذا وقدر علم أن هذا فعل أمسه غير
حكيم ولا ذي نظر. فقل فإنك رأس

الإشارة إلى قِدَمِ هذا السؤال، ليَتَّضحَ لنا بأن هذه التساؤلات، كان لها حضورٌ في أذهان الناس.

١ - سرّ التوجّه إزاء الكعبة أثناء الصلاة:

على العكس ممّا كان يحول في ذهن ابن أبي العوجاء، المادي المعروف في عصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فإنّ الهدف من التوجه نحو الكعبة أثناء الصلاة، لا يعني عبادة الكعبة أو حجرها وطينها. فإنّ جميع المصلّين يعبدون الله تعالى، وحال توجههم نحو الكعبة، فإنّ الجميع يخاطب الله الواحد الأحد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والعلة في توجيهنا نحو الكعبة حال الصّلاة، تكمن في أن الكعبة تعدّ أقدم معبدٍ وبيت للتوحيد، بني بأيدي أنبياء الله العظام للموحّدين من أهل الأرض، ولا يسبقه في هذا القِدَم أيّ معبد آخر، كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ

لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣).

إنّ الشريعة الإسلامية المقدّسة، ومن أجل إيجاد الوحدة بين المصلّين، وتوحيد صفوف المتوسّلين، أوجبت على الجميع أداء الصلاة ببلغة واحدة، والتوجّه إلى أقدم المعابد حال الصلاة، لتحفظ من خلال هذا السبيل وحدتهم حال العبادة والتعبّد؛ أي أن يتفوّه ملايين البشر في آنٍ واحدٍ بكلام واحد، ويتّجهون نحو نقطة واحدة. وأن يعلنوا وحدتهم واتّحادهم بشكل واضح وعلني. وبناءً على ذلك، فإنّ التوجّه نحو هذا المعبد ليس بمعنى عبادته، بل بمعنى جعله رمزاً لوحدهم واتّحادهم حال العبادة.

لقد كان المسلمون في صدر الإسلام، يقيمون الصلوات جماعة، وصلاة الجماعة من المستحبّات المؤكدة في الإسلام. فلو أراد جمع أداء فريضة ما معاً، عليهم أن يتوجهوا جميعاً إلى وجهة واحدة، وبغير هذه الصورة لا



يمكن أداء الفريضة.

إنَّ نبي الإسلام والمسلمين جميعاً، ظنّوا يصلّون لفترة من الزمن متّجهين في صلاتهم تلك نحو «المسجد الأقصى» إلاّ أنّه وبعد سبعة عشر شهراً من تاريخ الهجرة، جاء الأمر بأن يتّجه المسلمون نحو المسجد الحرام والكعبة حيثما كانوا، لأسبابٍ وعللٍ ذكرت في محلّها قال الله - عزّ وجلّ - : ﴿... فولّوا وجوهكم شطره...﴾ (٤).

لقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام هذا المعترض المادي في عصره بواحدةٍ من أسرار التوجه نحو الكعبة حال الصّلاة وقال: «وهذا البيت استعبد الله به خلقه؛ ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محلّ أنبيائه، وقبله للمصلّين إليه. فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه».

٢- لماذا نستلم الحجر الأسود باليد؟

يستفاد من الأحاديث

الإسلامية، أن بناء الكعبة كان موجوداً، قبل عصر سيّدنا إبراهيم عليه السلام، وأن جداره تهدم على أثر طوفان نوح عليه السلام. وبعد أن أُمِر النبي إبراهيم بإعادة بناء الكعبة، وُضِعَ «الحجر الأسود» وهو جزء من جبل «أبو قبيس»، وضعه بأمر الله تعالى في جدارها. والآن يطرح هذا السؤال: لماذا نستلم هذا الحجر بأيدينا؟ وما هو الهدف من هذا العمل؟

وجواب ذلك: أنّ استلام الحجر ووضع اليد عليه، يعدّ نوعاً من العهد والبيعة مع سيّدنا إبراهيم؛ لمحاربة مظاهر الشرك وعبادة الأوثان بأنواعها كافة، أسوةً ببطل التوحيد، وأن لا ننحرف عن الحنيفية، ولا نخرج عن جادة التوحيد في مظاهر الحياة كافة.

وتتم البيعة مع الفرد أحياناً، بمصافحة يده وغمزها، أو بمسك طرف الثوب، وأحياناً أخرى تتم بشكل أو بآخر. ونقرأ في التاريخ عندما نزلت الآية المباركة ﴿يا أيّها النبي إذا جاءك

الأمر، فإن زائري بيت الله بعملهم هذا، يجسّدون ذلك الميثاق القلبي على هيئة أمرٍ ملموس ومحسوس.

وفي الكثير من بلدان العالم، يقدّس الجنود أعلام بلدانهم، ويقفون أمامها بإجلال وإكبار مجددين العهد باليمين. ومن المسلم به، أن العَلَم بضعة أمتار من القماش ليس إلّا. إلّا أنّه يمثل رمز استقلال البلد، وعنوان إرادته الوطنية والشعبية. وفي هذه الحالة، فإنّ الجندي بدلاً من مصافحة أيدي الناس أو القادة وغمزها، فإنّه يشير إلى العلم ويؤدي اليمين والعهد. وستقرأ في الجزء الآخر من الجواب، بأن الهدف من بعض مراسم الحج، هو تجسيد نوع من الحقائق، التي جسّدت نفسها عن طريق أعمال الحج.

٣- ما الهدف من السعي بين الصفا والمروة؟

إنّ حجاج بيت الله، ومن خلال السعي بين الصفا والمروة، يجسّدون

المؤمنات يُبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً... ﴿٥﴾، فإنّ النبي ﷺ أمر بإحضار إناء فيه ماء، ووضع يده المباركة فيه، ثمّ أخرجها من الماء وقال: مَنْ أرادت منكن أن تبايعني، فلتضع يدها في الماء، وتبايعني على ما في هذه الآية. ومن هنا فإنّ مبايعة رسول الله تمت عن طريق وضع اليد في شيء وضع هو يده فيه. ومسألة استلام «الحجر الأسود» من هذا القبيل أيضاً. فالهدف إذن، أن نبايع بطل التوحيد ونبيّنا الأكرم ﷺ على صيانة التوحيد. لذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: وقل عند استلامك الحجر:

«أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لِتَشْهَدَ لي بالموافاة» ﴿٦﴾.

يقول ابن عباس: «واستلامه اليوم (أي الحجر) بيعة لمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ» ﴿٧﴾.

وبناءً على ذلك فإنّ الهدف من تقبيل الحجر واستلامه، تجسيد لميثاق قلبي مركزه روح الإنسان. وحقيقة

يرجمون في أيام العاشر والحادي عشر والثاني عشر، أعمدة معيّنة في أرض منى (قرب مكة) بالحجر. وبهذا العمل فإنهم يرمون في الظاهر نقطة معيّنة بالحجر، إلا أنهم يرمون الشيطان في باطنهم.

والأحاديث الإسلامية بيّنت ماهية هذا العمل بقولها: إنّ الشيطان قد تجسّد لسيدنا إبراهيم عليه السلام في الأماكن الثلاثة هذه، ورجمه إبراهيم بالحجر ليظهر تنفّره منه. وبقي عمل إبراهيم هذا سنّة إلهية في أعمال الحج.

إنّ حجاج بيت التوحيد، وإظهاراً لنفرتهم من الشيطان والشياطين، يرمون تلك النقطة بالحجر تعبيراً عن إبراهيميهم. وبهذا الشكل فإنهم يعبرون عن غضبهم من كلّ موجود شرير خبيث ونجس. وإنّ النفرة من النجاسة وهي أمر معنوي وقلبي، يعبرون عنها بهذه الطريقة بشكل ملموس ومحسوس.

واليوم فإنّ الشعوب المستضعفة،

حالة السيدة هاجر أمّ إسماعيل عليه السلام. وبشهادة التاريخ، فإنّها - ومن دون أن تيّأس من رحمة الله تعالى - سعت في تلك الصحراء العارية من الزرع والماء، سبع مرّات بين ذنك الجبلين بحثاً عن الماء، وفي نهاية المطاف شملها لطف الله تعالى، ونالت مقصودها، وبعد أن فار الماء تحت أقدام إسماعيل عليه السلام نجت هي وابنها من العطش.

ويستفاد من بعض الأحاديث، بأنّ الشيطان قد تجسّد لسيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا المكان، وأخذ يعقّبه في سعيه، ليبعده عن حرم بيت الله. وبأدائنا لهذا العمل، إنّما نجسّد ذلك العمل المعنوي^(٨).

وبذبح القرابين في صحراء منى، فإنّنا نحیی ذكری فداء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ضحّى بكلّ شيء في سبيل الله حتى ولده.

٤- ما الهدف من رمي الجمرات؟

إنّ حجاج بيت الله الحرام

وخلاصة القول: فإنّ الذي يتأمل في تاريخ فرائض الحج، يتلمس الحقيقة التالية: وهي أنّ الكثير من هذه الأعمال، الغرض منها تجسيد طائفة من الذكريات البنّاءة من حياة وسيرة سيّدنا إبراهيم عليه السلام، ومجموعة من الأمور المعنوية والأخلاقية، التي تؤدّي بسلسلة من الأعمال بشكل نموذجي ومنظّم، وليس الغرض منها عبادة الحجر والطين والجبل مطلقاً.

التي تعاني من الظلم والجور، تقوم بإحراق أعلام الدول المستكبرة السلطوية، والعلم ليس أكثر من بضعة أمتارٍ من القماش الملوّن. إلّا أنّ الشعوب - ومن أجل إظهار غضبها تجاه الفضائع والجرائم التي ترتكبها القوى العظمى - تقوم بإحراق رموزهم، وكأنهم قاموا بإحراقهم وإبادتهم والقضاء عليهم، وعلى الأقل فإنّ هذا العمل يبيّن إنزعاجهم الشديد من أولئك الظلمة.

الهوامش :

- (١) الأنبياء : ٢٥ .
- (٢) الكافي ٤ : ١٩٧ ح ١ .
- (٣) آل عمران : ٩٦ .
- (٤) البقرة : ١٤٤ .
- (٥) الممتحنة : ١٢ .
- (٦) وسائل الشيعة ٩ : ٤٠٠ باب ١٢ ح ١ .
- (٧) وسائل الشيعة ٩ : ٤٠٦ باب ١٢ ح ١٥ أبواب الطواف .
- (٨) وسائل الشيعة ٩ : ٥١٢ ح ١٢ أبواب السعي .

شرح فقرة من دعاء عرفة

تحقيق: فارس حسون كريم

تأليف السيد ماجد بن إبراهيم الحسيني الكاشاني - من أعلام القرن الثاني عشر -

الحمد لله سامع الدعاء، ودافع البلاء، ومفيض الضياء، وكاشف الظلماء،
وباسط الرجاء، وسابغ النعماء، ومجزل العطاء، ومردف الآلاء، حمداً يكا في نعمه،
ويوا في مننه، ويوجب مزيده.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء، وسيد الأصفياء، الحجّة على من في
الأرض والسماء، وعلى آله الفائزين بخلوص الانتماء، ووجوب الاقتداء، صلاة
باقية إلى يوم البعث والجزاء.

وبعد: حقيقة لا شك فيها: أنّ تراث الدعاء الأثيل والخالد لمدرسة أهل
البيت عليهم السلام منهل عذب، قد ضمّ من عيون الدرر ما لا يمكن جردها وحصرها،
ولا سيما أنّ الذي قد أرسى أسس هذا التراث الضخم سيّدنا خاتم الرسل،
وصاحب الخوض والكوثر صلوات الله عليه. وتبعه باب مدينة علومه وحكمته سيّد

الوصيّين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، كما يتجلى ذلك في دعاءه: «دعاء الصباح» و «دعاء كميل بن زياد عليه السلام» وغيرها. ومن ثمّ ابنه قتيل العبرات، وأسير الكربات، سيّد الشهداء من الأوّلين والآخرين الحسين بن علي عليه السلام كما يتجلى ذلك في دعائه في يوم عرفة - وهو موضوع كتابنا هذا - وسائر أدعيته عليه السلام.

وأما الذي أغناه، وأبدى به اهتماماً خاصاً، فهو إمام العارفين، وقائد الزاهدين، وسيّد الساجدين، وزين العابدين، ذو الثغفات، ورابع أئمة بيت العصمة والطهارة عليه السلام؛ فقد أبدع في إنشاء جملة وافرة من الأدعية، والأحراز الشهيرة، أضحت خير زاد يتقوّى به على مواصلة الطريق المؤدّي إلى مرضاة الله - تعالى -. ولقد تركت أثرها البارز في إرساء دعائم المجتمع الإسلامي، وتنزيهه من الشوائب، في مرحلة هي من أقسى وأحلك المراحل التي مرّت بها الأمة الإسلامية بعد شهادة أبيه الحسين عليه السلام، خلال النصف الثاني من القرن الأوّل، ومن أجل ذلك سميت بإنجيل أهل البيت عليه السلام، وبزبور آل محمد عليه السلام ^(١).

ترجمة المؤلف (٢)

اسمه:

هو السيّد ماجد بن السيّد إبراهيم الحسيني الكاشاني، كان فاضلاً، أديباً، حكيماً، فقيهاً، أريباً.

حفيده:

العالم المتّقّي الحاج السيّد محمد تقي بن المير عبد الحيّ بن إبراهيم بن السيّد ماجد بن إبراهيم البشت مشهدي الحسيني الكاشاني، من أعظم علماء عصره،



ومن تلامذة صاحب «رياض المسائل»^(٣)، توفي سنة «١٢٥٨ هـ»^(٤).

معاصره:

الميرزا إبراهيم بن الميرزا غياث الدين محمد الإصفهاني الخوزاني - قاضي اصفهان، ثم قاضي عسكر السلطان نادر شاه -، المتوفى سنة «١١٦٠ هـ»، كتب رسالة في الغناء في الرد على رسالة السيد ماجد^(٥).

مؤلفاته:

- ١- «إيقاظ النائمين وإيعاظ الجاهلين».
- رسالة في أحكام الغناء وموضوعه وإثبات حرمة، في مقدمة ومقصد، المقدمة في مسائل من علوم مختلفة يحتاج إليها في أبحاث الرسالة^(٦).
- قال الملا حبيب في لباب الألقاب: له رسالة في تحقيق الغناء، وحواش على الإشارات والشفاء - على ما حكاها بعض أسباطه -، وقد نقلنا بعض كلماته في رسالتنا التي أفردناها لهذه المسألة^(٧).
- ٢- «تخلّل السكون بين الحركتين».
- بحث عن آراء المشائين من الفلاسفة ومذهب ابن سينا في الموضوع، ويذهب المؤلف إلى أن تخلّل السكون بين الحركتين جائز^(٨).
- ٣- «التخلّل والتكاثف الحقيقيّان».
- يستدلّ المؤلف في هذه الرسالة المختصرة على إمكان التخلّل بين الشيئين أو التكاثف فيهما، وهو بحث فلسفي كتبه في جواب المنكرين للموضوع^(٩).
- ٤- «التشكيك في الذاتيات».
- رد على من ذهب إلى نفي الذاتيات، وبيان أنّها من أيّ المعقولات هي^(١٠).

٥- «شرح دعاء عرفة».

وهو هذا الكتاب، وسيأتي التعريف به.

٦- «ماهية الزاوية».

تحقيق دقيق حول حقيقة الزاوية، وماهيتها المعروفة في الكتب بمختلف التعاريف^(١١).

٧- «نفي الهيولى».

يثبت المؤلف أن الهيولى ليس له وجود في الخارج، ويردّ على الذاهبيين إلى أن له وجوداً خارجياً^(١٢).

مدة حياته:

لم تذكر المصادر التي ترجمت السيّد المؤلّف رحمه الله تاريخ ولادته، ولا تاريخ وفاته، غير أنّه كان حيّاً سنة «١١٥٢ هـ»، وهو تاريخ تأليفه لكتابه هذا - شرح دعاء عرفة -.

التعريف بالكتاب:

روى بشر وبشير ابنا غالب الأسدي، قالوا: كنّا مع الحسين بن علي عليه السلام عشية عرفة، فخرج علينا من فسطاطه متذللاً خاشعاً، فجعل يمشي هوناً هوناً حتّى وقف هو وجماعة من أهل بيته وولده ومواليه في ميسرة الجبل مستقبل القبلة، ثمّ رفع يديه لتلقاء وجهه كاستطعام المسكين، ثمّ قال: «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ، وَلَا لِعَطَائِهِ مَانِعٌ، وَلَا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صَانِعٍ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْوَاسِعُ - إِلَى أَنْ يَقُولَ: - اَللّٰهُمَّ لَا تَمَكِّرْ بِي وَلَا تَسْتَدْرِجْنِي وَلَا تَخْدَعْ عَنِّي، وَأَدْرَأْ عَنِّي شَرَّ فَسَقَةِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ»، ثمّ رفع رأسه وبصره إلى السماء وعيناه ما طرتان كأنهما مزادتان، وقال



بصوت عالٍ: «يَا أَسْمَعَ السَّامِعِينَ، يَا أَبْصَرَ النَّاطِرِينَ، وَيَا أَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ - إلى أن يقول: - لَكَ الْمُلْكُ، وَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ» وكان يكرّر قوله «يا رب»، وشغل من حضر ممّن كان حوله عن الدعاء لأنفسهم، وأقبلوا على الاستماع له والتأمين على دعائه، ثم علت أصواتهم بالبكاء معه، وغربت الشمس وأفاض الناس معه.

أقول: إلى هنا تمّ دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة على ما أورده الكفعمي في كتاب «البلد الأمين»^(١٣)، وقد تبعه المجلسي في كتاب «زاد المعاد»^(١٤).

ولكن زاد السيّد ابن طاووس رحمته الله في كتاب «إقبال الأعمال»^(١٥) بعد «يا ربّ يا ربّ يا ربّ» هذه الزيادة: «إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي؟! إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي؟! - إلى أن يقول: - هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ لَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ؟ ...». وكتابنا هذا تناول شرح الجملة الأخيرة «هَآ أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ لَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ؟» حيث تصدّى المؤلّف رحمته الله لرفع التناقض الذي يبدو في هذه القطعة.

النسخة المعتمدة في التحقيق:

هي النسخة الخطيّة المحفوظة في خزانة مخطوطات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي في قم المقدّسة، وهي مذكورة في فهرسها ج ١٦ ص ٢٦ ضمن المجموعة رقم ٦٠٢٥ - الكتاب الثالث، ومذكورة أيضاً في التراث العربي في خزانة مخطوطات مكتبة المرعشي ج ٣ ص ٣١٢، والنسخة تقع في ١٠ أوراق كتبت بخطّ فارسي جيّد «نستعليق» - بخطّ تلميذ المؤلّف - وعناوينها بارزة بخطّ

النسخ، صفحاتها ذات سطور مختلفة بقياس ٨.٥×١٢.٥ سم، كتبت النسخة في
المدرسة العمادية بكاشان سنة ١١٥٢ هـ

- صورة الصفحة الأولى من النسخة الخطية -

الحمد لله ذي الطول والإحسان والنعم الجلائل، والصلاة على محمد وآله
أولي الفواضل والفضائل، الذين جعلت مولاتهم خير بضاعة وأقرب الوسائل.



- صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الخطيّة -

أمّا بعد:

يقول المفتقر إلى الله الغنيّ محمد بن إبراهيم المدعوّ بماجد الحسيني: لقد
سألني بعض أجلة الخَلّان، وأخصّ الأخوان أن أُحرّر شرحاً لكلام سيّد
الشهداء - عليه وعلى آبائه السلام - في دعائه ليوم عرفة، وهو:
«هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ لَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ

إِلَيْكَ» بحيث يدفع أثر التناقض وغيره عنه مما لا يليق بأمثاله ﷺ.

فاعتذرت إليه مع ظهور قصور باعث عن كشف جليّات الخفاء عن وجوه أبكار المعاني، ورفع أستار الارتياب عن تلقاء المقاصد المعضلة الأركان والمباني، تارة بضيق البال لتراكم أمواج بحار الأحزان، وأخرى بقلّة المجال لكثرة تواتر نزول أفواج الحداث، فما حلّ موقع القبول وما زاد إلا إعادة المسؤول فأسغت مسؤوله، وأجبت مأموله، وتصدّيت لحله على رأي كلّ فرقة مشتهرة بين الأنام أقوالهم واعتقاداتهم متداولة بين الناس أبلالهم ومدوّناتهم بحيث ينطبق على أصولهم وقواعدهم انطباقاً بيّناً، محترزاً عن الردّ والقبول، لا لخفاة الإطناب والإسهاب، بل لانحطاط درجتي عن درجات هؤلاء الأعلام في كلّ باب، مراعيّاً للإيجاز واختصار الكلام، ورتّبته على مقدّمة ومقالات ثلاث:

أما المقدّمة فمشمّلة على فصلين:

الفصل الأوّل: في بيان دأب الأنبياء والأئمّة ﷺ في التضرّع والابتهال، وما

شاكلهما.

اعلم أنّ دأبهم ﷺ فيما ذكرناه في بعض الأوان التشبّث بالأسباب، والتمسك بالوسائل أولاً، ثمّ الإعراض عنها أخيراً، مشعراً ببيان فساد لوجهين: أمّا أولاً: فلكونه بمنزلة الاستدلال على كون المحتاج إليه هو الله - سبحانه - ، وأنّ لا مؤثّر في الوجود إلّا وينتهي إليه، فهو المؤثّر بالذات، ومسبّب الأسباب، فإنّ المطلوب المستدلّ عليه أوقع قبولاً من غيره، فأمثال هذه منهم بمنزلة القياس الاستثنائي، ولذا قال كثير من المفسّرين: ^(١٦) «إنّ قول إبراهيم - على نبينا وآله وعليه السلام - ربوبيّة الكواكب مستدلّ عليها بالإنارة والضياء والكبر أولاً، ثمّ الرجوع عنه مستدلّ بالأفول أخيراً، إنّما صدر عنه ﷺ عمداً عالماً بعدم ربوبيّتها في كلا الحالين لوجوب عصمة الأنبياء ﷺ عن الشرك قبل البعثة



أيضاً.

وأما ثانياً: فللإشعار بتفاوت مراتب التنزيه المسبب عن تفاوت درجات مراتب المعرفة وترتيبها، والإشارة إلى أن من بلوغ المرتبة العليا يُعلم عدم جواز الرجوع إلى المرتبة الدنيا، وأن ما يصل به العالم إلى نعيم قريبه - تعالى - سبب لبعده الأعم منه أن جعله وسيلة، ألا ترى أنه - سبحانه - قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٧)؟

وقد ورد في الخبر: «إنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين».

الفصل الثاني: في تحقيق معنى الفقر.

قد اختلفت الآراء في تحقيقه، فجعله بعضهم ضد الغنى، وحكم بكونهما أمرين وجوديين.

وقال بعضهم بكون الغنى عدم ملكة الفقر، فحكم بكون التقابل بينهما تقابل العدم والملكة.

والحق عكس الثاني، وما قيل في تعريف الغنى من أنه عدم الحاجة فتعريف له يلزمه لا تحديده، لأن الفقر بحسب النظر الدقيق ليس إلا فقد الكمال مطلقاً، أو ما يوصل إليه.

وبالجملة كل ما يكون وجوده شيء أولى من عدمه له فعدمه له من حيث هو كذلك نفس فقره، وفاقده من هذه الحيثية فقير وإن كان غنياً باعتبار وجود أمر آخر كمال له من جهة أخرى، كما أن الجاهل فقير لفقدان العلم الذي هو كمال لنفسه، وغني بحسب وجود الشيع مثلاً الذي هو كمال لبدنه، أو ما يتوصل به إليه، فالفقر نفس العدم، والغنى عين الوجود، فإن كان الوجود ذاتياً للشيء يكون غنياً بالذات، وإن كان من غيره يكون فقيراً بالذات غنياً بالغير، فالغنى بالذات هو الله - سبحانه -، وما سواه فقير إليه مطلقاً.

المقالة الأولى:

في حله على طريقة الصوفية^(١٨)

وهو موقوف على بيان مقدّمة، وهي أنّ الفرق بين الواجب والممكن عندهم بالإطلاق والتقييد، ويعبرون عنه بالتعيين، ويقولون: هو أمر اعتباري لا حقيقي، ويعنون من الاعتباري ما لا يتّصف بالوجود، فالكثرة وما يلزمها من الغيرية أمور اعتبارية غير موجودة؛ لأنّ الوجود بما هو وجود لا يقبل الكثرة، فالأمر الحقيقي هو الوجود المطلق، وهو عين حقيقة الواجبية، وما يعرضه من التعيينات أمور اعتبارية، فالواجب هو الوجود المطلق، والمراد منه الوجود اللابشرط لا المقيّد بقيد الإطلاق، لأنّ كلّ قيد عندهم اعتباري، والممكن هو



الوجود المتعين لكن لا بما هو موجود، بل بما هو متعين، فالفقر عندهم هو نفس التعينات الاعتبارية؛ لأنها إعدام صرفه كما عرفت.

وإذا تمهدت هذه نقول: حلّ كلامه ﷺ على رأيهم: أنه أراد أن يشير إلى بيان مراتب قرب السالكين إلى الله، والسائرين إليه، وترتب درجاته، وتفاوت مراتبه وغير المرتبة العليا من القرب الذي هو الوصول من المراتب التي وقعت في البين إنما يحصل للمتمسكين بالوسائل، وتختلف مراتب قربهم حسب اختلاف الوسائل قوة وضعفاً، وهي من الكثرة بحيث لا يكاد تنضب، ولا شك أن أقوى الوسائل هو ما يجده المتوسل من نفسه، لأن الوسيلة إذا كانت ذاتية يكون أتم وأقوى منها إذا كانت خارجية.

فأشار ﷺ في الفقرة الأولى إلى هذا المقام وجوب الفقر الذي نفس التعيين وسيلة للقرب، وعلّة محوجة إليه ضرورة احتياج المقيد إلى المطلق، فعناها: ها أنا أتوسل بسبب تعيني وهويتي إليك، وهذا القرب المطلق هو القرب الذي لم يبلغ درجة الوصول لكون الوسيلة فاصلة بين المتوسل والمتوسل إليه، والسالك في هذا المقام ملاحظ لنفسه فارق بينها وبين الذات الأحديّة، وكمال القرب هو الاتصال الذي عبارة عن ملاحظة العبد عينه متّصلاً بالوجود الأحدي بقطع النظر عن تعين وجوده، وإسقاط إضافته إليه حتى يبقى موجوداً به، ولا يرى إلا واحداً كما قال قائلهم:

در چنین حال دیده بگشاید در نظر جز یکیش ننماید
ولا شك أن هذه المرتبة لا تحصل للعبد ما دام ملاحظاً لنفسه إذ لا يمكن أن يصل غبار التعين إلى ذيل جلال الإطلاق، فانقطع عن الوسيلة التي هي سبب للقرب المفصول طالباً للقرب الذي هو الاتصال، وقال: كيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك؟

المقالة الثانية:

في حله على دأب الأشاعرة^(١٩)

وهو موقف على بيان مقدّمتين مترتبتين:

الأولى: أن ما يصدر عنه - تعالى - ليس على سبيل الإيجاب بمعنى امتناع انفكاك الأثر عن الذات كما يقول به الحكماء، ولا على سبيل الوجوب العقلي كما يقول به المعتزلة^(٢٠)، بل كلّ ما يصدر عنه - تعالى - يصدر بالقدرة والاختيار، بمعنى صحّة الفعل والترك مطلقاً، سواء كان بالنظر إلى ذاته كما يوافقهم فيه جمهور المعتزلة، أو بالنظر إلى غيره بخلاف ما ذهب إليه المعتزلة من عدم صحّة الترك بالنظر إلى الداعي والعلم بالأصلح.

وبنوا على هذه المقدّمة أن فعله - تعالى - ليس لغاية ولا عرض، بل نفس إرادته القديمة كافية في صدور الفعل من غير إفـضائه إلى الإيجاب والوجوب المذكورين.

الثانية: أن لا مدخلية لشيء من الأشياء في وجود أمر من الأمور، ولا في عدمها بنحو من الأنحاء حتّى أنّهم نفوا ربط الشرطيّة واللزوم والآلية وغيرها بين الأشياء بعضها بالنسبة إلى بعض.

وبالجملة نفوا افتقارها إلى ما سوى الله مطلقاً حتّى حكموا بعدم افتقار العرض إلى الموضوع، وما يرى في الوجود من الارتباط بين الأشياء ليس ارتباطاً ذاتياً، بل هو ممّا جرت سنّته - تعالى - عليه.

وبنوا على هذه المقدّمة جواز تعذيب المطيع، وإثابة العاصي منه - تعالى - لعدم مدخلية الإطاعة والعصيان في الثواب والعقاب، لكن جرت سنّته بإثابة المطيع، وتعذيب العاصي ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾^(٢١)، فكلّ ما يصل من الله إلى العبد من الخير والثواب تفضّل منه - سبحانه - لأهليّة العبد واستحقاقه.



إذا تمهّدت هذه نقول: على وفق قواعدهم المذكورة: **إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ** لما علم جريان سنته بإفاضة الخير والجود عند تمسّك العبد بالوسائل - وكان من أعظم الوسائل هو الفقر -، قال: «ها أنا أتوسّل إليك بفقرى إليك». ولما كان هذا موهماً كونه مستحقاً المسؤول بهذه الوسيلة، وأنّها أثراً في فعله - تعالى - نفاه بقوله: «وكيف أتوسّل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟» نافياً كونه مؤثراً، مثبتاً قدرته واختياره - سبحانه - في كلا الحالين، فأثبت كونه وسيلة بحسب عادة الله وسنته، ونفى كونه وسيلة مؤثرة بحسب الواقع لعدم إمكان التأثير من غيره - تعالى - فارتفع الاشكال واندفع التناقض.

المقالة الثالثة:

في حله على رأي الحكماء

ويتوقّف بيانه على مقدّمتين:

إحداهما: أن الممكن بما هو ممكن زوج تركيبى؛ لأنّ كونه ليس من ذاته غير كونه من فاعله، وهو مركّب الحقيقة منهما، وهذا هو المراد من قولهم: الممكن في حدّ ذاته ليس وبفاعله يصير، أي فكلّ ممكن مشتمل على هاتين الجهتين، ويعبّرون عن هذا العدم بالعدم الذاتي بمعنى عدم الاقتضاء، ويحكمون باجتماعه مع الوجود الفأض من العلّة، ولا يلزم اجتماع النقيضين لاختلاف الإضافة، فجميع الممكنات معدومة في حدود ذواتها، موجودة بفاعلهما.

الثانية: أنّه لا بدّ من مناسبة بين العلّة والمعلول مطلقاً، سواء كانت العلّة من العلل الذاتية أو العرضيّة، وإلاّ لجاز استناد كلّ شيء إلى كلّ شيء، وكون كلّ شيء مصدراً لكلّ شيء، وما يرى في الوجود من الاختصاص^(٢٢) يكون ترجيحاً من غير مرجّح، وهو محال، فتعيّن ضرورة المناسبة.

إذا تقرّرت هذه فنقول: حلّه على رأيهم أنّه ﷺ أراد أن يشير إلى أنّه - تعالى - كما يعطي الوجود الذي هو أعلم الكمالات، وأجلّ النعم إذ به ينال العبد كلّ خير وكمال، ولذّة ووصال، وبه يصل إلى سعادة الدارين، ومقاصد النشأتين، إذ لا يمكن أن يكون للمعدوم بما هو معدوم خير وسعادة ضرورة توقف الكمالات الثابتة، وما يتفرّع عليها على الكمال الأوّل الذي هو أصل آنيته، إذ به يظهر ماهيته وما يتفرّع عليها من خواصّه واعراضه، كذلك يعطي الوسائل إلى تحصيل السعادات، واستفاضة الخيرات، فجوده منوط بجوده، ورحمته مرتبطة برحمته.

وهذا غاية التنزيه، وكمال التوحيد، ونفي الشرك الخفيّ الذي لا ينفكّ عنه إلّا الخائضون في قمامس^(٢٣) أنوار معرفته، والغائصون في بحار آثار قدرته. ولنعم ما قلت في أثناء تحرير هذا المقام:

يا من تحقّق وجود العالمين من وجودك
من ذرّة جودك وكرمك طهر الخلق
جاهلون بذاتك نحن، وكلّ ما نعلمه عنك هي معرفتنا بآثارك
لقد مزجت فيض الأزل بالعدم
وبعثت إلى الوجود عالم الآثار
الثرى إثر فيضك وإحسانك غدا وجهاً صبوراً^(٢٤)
علقة الدم غدت قلباً عارفاً^(٢٥)
كلّ قطرة هي من بحرك
كما الشمس التي هي ذرّة تجوب المدار
الذهب بصفائه ولونه الزاهي منك
قدرة قبضة الأسد منك



الطمأنينة والعذاب والحزن والأمل
كلّ ما له وجود فهو منك يا كريم
أفصحَ كلمك عن هذا السرّ
وأنطقَ بلسان العجز والسؤال
لقد هَجَرَ الإيمان قلب السامريّ
لأنّ لا أحد غيرك يهب الجسد روحاً (٢٦)(٢٧)

والوسيلة إلى قرب جنابه - سبحانه - إمّا أن تكون من ذات العبد الذي ليس أثراً لجعل الفاعل - أعني العدم الذاتي - المعبر عنه بالفقر في كلامه ﷺ أو من الله - تعالى - أعني الوجود الفاضل منه - سبحانه - مطلقاً، سواء كان جزء ذات العبد المتوسّل كما عرفت في المقدمة الأولى، أو جزء ذات غيره، فإذا بطل صلوح كون الأوّل وسيلة تعيّن الثاني لامتناع الوساطة بين النبي والإثبات. ولما كان الفقر مناسباً بالذات المتوسّل لضرورة مناسبة الذاتي لما هو ذاتي له، فيتوهم صلوح كونه وسيلة أشار إليه ﷺ في الفقرة الأولى بقوله: «ها أنا أتوسّل إليك بفقرى إليك».

ولما كان من شرط الوسيلة أن تكون مناسبة للطرفين - أعني المتوسّل والمتوسّل إليه - والفقر لا يناسب الغناء المطلق والإمكان أبعد من أن يصل إلى حضرة الحقّ أشار إليه ﷺ في الفقرة الثانية بقوله: «وكيف أتوسّل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟».

فهذا الكلام منه ﷺ بمنزلة القياس الاستثنائي كما علمت في مقدّمة الرسالة، فتعيّن أن يكون الوسيلة أثراً منه - سبحانه - سواء كان جزء ذاته كما عرفت أوّلاً، ولا يخفى من مناسبة الأوّل للطرفين.

أمّا مناسبته للمتوسّل فلكونه مظهرًا لهويّته مبيّناً مقتضيات ذاته.

وأما للمتوسّل إليه فلكونه أثراً منه، ولا يخفى ما بين الشيء وأثره من المناسبة، وأما إذا لم يكن جزء ذاته فمناسبتها للمتوسّل إليه بين لكونها أثراً منه، ومناسبته للمتوسّل يعلم بحكم تشابه آثار المؤثر الواحد، بل من حيث اتّحادهما سنخاً.

وبالجملة مراده ﷺ نفي كون وسائل ذاته الإمكانية، وذوات الممكنات من حيث إنّها ممكنات لأنّه لو أمكن هذا لكان الفقر الذاتي الذي ليس أثراً منه - سبحانه - وسيلة وهو محال فتعيّن أن يكون منه - تعالى - سواء كان نفس وجوده الذي هو جزء ذاته أولاً، وهذا لا ينافي ثبوت بعض الآثار لبعض الماهيات دون بعض؛ لأنّ هذه الآثار ليست مستندة إلى إمكانه الذاتي الذي ليس متعلّق الجعل لاشتراكه بين الجميع، فتعيّن استنادها إلى المهية من حيث هي هي، والمهية كما هو الحقّ متعلّق للفعل وأثر للجعل، فصحة كون بعض الأمور وسيلة بحسب الظاهر لحدوث بعض الآثار دون بعض لا ينافي المقصود؛ لأنّه لا يكون من جهة عدمه الذاتي الذي ليس متعلّقاً للجعل وسيلة، بل يكون وسيلة بجهة أخرى، واعتبار آخر، وهو بهذه الجهة والاعتبار أثر منه تعالى.

هذا آخر ما أردنا إيراده، والحمد لله أولاً وآخراً.

تمّت في يوم الاثنين الرابع عشر من شهر شعبان المعظم سنة ١١٥٢.

فهرس مصادر التحقيق:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، نشر دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤٠٣ هـ.
- ٣ - إقبال الأعمال للسيد رضي الدين علي بن طاووس، نشر دار الكتب الإسلامية - طهران ١٣٩٠ هـ (طبعة حجرية).
- ٤ - بحار الأنوار للعلامة محمد باقر المجلسي، نشر مؤسسة الوفاء - بيروت ١٤٠٣ هـ.



- ٥ - بحوث في الملل والنحل للشيخ جعفر السبحاني، نشر لجنة إدارة الحوزة العلمية - قم ١٤٠٨ هـ.
- ٦ - البلد الأيمن للشيخ تقي الدين إبراهيم الكفعمي (طبعة حجرية).
- ٧ - بين التصوف والتشيع لهاشم معروف الحسني، نشر دار القلم - بيروت ١٩٧٩ م.
- ٨ - تميم أمل الأمل للشيخ عبد النبي القزويني، نشر مكتبة آية الله المرعشي - قم ١٤٠٧ هـ.
- ٩ - الذريعة إلى تصانيف الشيعة للشيخ آقا بزرك الطهراني، نشر دار الأضواء - بيروت ١٤٠٣ هـ.
- ١٠ - زاد المعاد للعلامة محمد باقر المجلسي (طبعة حجرية).
- ١١ - فهرس مخطوطات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - المطبوع بالفارسية.
- ١٢ - الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة «طبقات أعلام الشيعة» للشيخ آقا بزرك الطهراني، نشر دار المرتضى - مشهد ١٤٠٤ هـ.
- ١٣ - الكواكب المنتشرة في القرن الثاني بعد العشرة «طبقات أعلام الشيعة» للشيخ آقا بزرك الطهراني، نشر جامعة طهران.
- ١٤ - لباب الألقاب في ألقاب الأطياب للمولى الآقا ملا حبيب الله الشريف الكاشاني، المتوفى سنة (١٣٤٠ هـ)، نشر مكتبة «أبوذر الجمهري المصطفوي» - سماء في الذريعة ١٨: ٢٧٧ رقم ٩٣: لباب الألباب في ألقاب الأطياب.
- ١٥ - لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، نشر أدب الحوزة - قم ١٤٠٥ هـ.
- ١٦ - مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم ١٤٠٣ هـ.
- ١٧ - معالم العلماء لابن شهر آشوب المازندراني، المتوفى سنة ٥٨٨، نشر المطبعة الحيدرية - النجف ١٣٨٠ هـ.
- ١٨ - الملل والنحل للشهرستاني، منشورات الرضي - قم ١٣٦٤ هـ. ش.

الهوامش :

- (١) أول من أطلق هذين الاسمين هو ابن شهر آشوب، المتوفى سنة «٥٨٨ هـ» في معالم العلماء: ١٢٥ و ١٣١ في ترجمة: متوكل بن عمير بن المتوكل، ويحيى بن علي بن محمد بن الحسين الرقي.
- (٢) ترجمه الشيخ آقا بزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة - الكواكب المنتشرة في القرن الثاني بعد العشرة -: ٦٢٨، وترجمه أيضاً الملا حبيب الله الكاشاني في لباب الألقاب في ألقاب الأقطاب: ٦٣ - ٦٤.
- (٣) هو «رياض المسائل في بيان الأحكام بالدلائل» تأليف السيد علي الطباطبائي، المولود سنة «١١٦١ هـ»، والمتوفى سنة «١٢٣١ هـ».
- (٤) طبقات أعلام الشيعة - الكرام البررة -: ٢١٩ رقم ٤٤٨، لباب الألقاب: ٧٤.
- (٥) ذكره في تكملة أمل الآمل: ٥٧، طبقات أعلام الشيعة - الكواكب المنتشرة -: ٨ - ١١، أعيان الشيعة ٢: ٢٠٣.
- (٦) الذريعة ٢: ٥٠٥ رقم ١٩٨٠، فهرس مكتبة آية الله العظمى المرعشي: ٢٨/١٦ رقم ٦٠٢٥ الكتاب الثامن.
- (٧) لباب الألقاب: ٦٣ - ٦٤.
- (٨) فهرس مكتبة آية الله العظمى المرعشي: ٢٢١/١٧ رقم ٦٦٥٨.
- (٩) فهرس مكتبة آية الله العظمى المرعشي: ٢٧/١٦ رقم ٦٠٢٥ الكتاب السادس.
- (١٠) فهرس مكتبة آية الله العظمى المرعشي: ٢٩/١٦ رقم ٦٠٢٥ الكتاب التاسع.
- (١١) فهرس مكتبة آية الله العظمى المرعشي: ٢٩/١٦ رقم ٦٠٢٥ الكتاب العاشر.
- (١٢) فهرس مكتبة آية الله العظمى المرعشي: ٢٨/١٦ رقم ٦٠٢٥ الكتاب السابع.
- (١٣) البلد الأمين: ٢٥١ - ٢٥٨ - عنه البحار ٩٨: ٢١٣ ح ٢.
- (١٤) زاد المعاد: ٢٤٨ - ٢٦٨.
- (١٥) إقبال الأعمال: ٣٣٩ - ٣٥٠ - عنه البحار ٩٨: ٢١٤ وعن حاشية البلد الأمين ومصباح الزائر لابن طاووس.
- وقال المجلسي رحمه الله في البحار ٩٨: ٢٢٧ ح ٤: لا توجد هذه الزيادة في بعض النسخ العتيقة من الإقبال، وعبارات هذه الزيادة لا تلائم سياق أدعية السادة المعصومين أيضاً، وإنما هي على وفق مذاق الصوفيّة، ولذلك قد مال بعض الأفاضل إلى كون هذه الزيادة من مزيادات بعض مشايخ الصوفيّة ومن إلحاقاته وإدخالته.
- وبالجملة: فهذه الزيادة إما وقعت من بعضهم، أو لا في بعض الكتب، وأخذ ابن طاووس عنه في الإقبال غفلة عن حقيقة الحال، أو وقعت ثانياً من بعضهم في نفس كتاب الإقبال، ولعل الثاني أظهر على ما أومأنا إليه من عدم وجدانها في بعض النسخ العتيقة، وفي مصباح الزائر، والله أعلم بحقائق الأحوال. - بتصرف يسير.
- (١٦) أنظر مثلاً تفسير مجمع البيان للطبرسي ٢: ٣٢٣ - ٣٢٤، ففيه تفصيل واف لما أشار إليه المؤلف رحمه الله.
- (١٧) الانفتار: ١٣ - المطففين: ٢٢.



(١٨) فرقة ظهرت في أواسط القرن الثاني أو في النصف الأخير منه؛ قيل: سمّوا بذلك لللبسهم الصوف وقد اختاروه لرفضهم زينة الدنيا، واستغراقهم في أمر الآخرة؛ وقيل: لأنهم آثروا الذبول والتواضع والتخفي عن أعين الناس كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها، فقبل عنهم صوفية نسبة إلى الصوفة المرمية، فتكون نسبة الصوفي إلى الصوفة كنسبة الكوفي إلى الكوفة؛ وقيل: لأنهم في الصف الأول بين يدي الله - عز وجل - بارتفاع همهم وإقبالهم على الله بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه؛ وقيل ...

وأكثر معتقدات الصوفية وطرقهم لا تلتقي مع ما جاء به الإسلام من قريب أو بعيد، كالحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، والحقيقة المحمدية، ونظام الكون، والجنة والنار، وغيرها. ومن أقطابهم: إبراهيم بن أدهم، وحبيب العجمي، وذو النون المصري، وغيرهم. «بين التصوف والتشيع: ٢٨٤ و ٣٣٧ و ٤٨٨».

(١٩) الأشعرية: هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري؛ قيل: ولد سنة سبعين ومائتين؛ وقيل: سنة ستين ومائتين بالبصرة، وقد توفي سنة ثمانين وعشرين وثلاثمائة، جدّه الأعلى أبو موسى الأشعري، المتوفى سنة ٤٢؛ وقيل: ٤٤ وهو ابن ثلاث وستين سنة. وإن أبا الحسن هذا كان معتزلياً في بادئ أمره إلا أنه رجع عن الاعتزال بسبب أسئلته التي كان يوجه بها إلى أستاذه المعتزلي أبي علي الجبائي وما كان يجد لها جواباً.

وقد جاء الإمام الأشعري بمنهج معتدل، وقد أعلن أن المصدر الرئيس للعقائد هو الكتاب والسنة، وفي الوقت نفسه خالف أهل الحديث - الذين يكتفون بظواهر النصوص والأحاديث - بكاء خاص عن طريق استغلال البراهين العقلية والكلامية على ما جاء في الكتاب والسنة. ومن أعلامهم: القاضي أبو بكر الباقلاني، وأبو منصور عبد القاهر البغدادي، وإمام الحرمين الجويني، وغيرهم. «الملل والنحل للشهرستاني ١: ٨٥، والملل والنحل للسبحاني ٢: ٦ - ٢٩».

(٢٠) هم الذين كانوا يتمسكون بالعقل أكثر من النقل، ويؤولون النقل إذا وجدوه مخالفاً لفكرتهم وعقليتهم، وكان التشاجر قائماً على قدم وساق بينهم وبين أهل الحديث الذين تعبدوا بظواهر الآيات والروايات من دون غور في مفاهيمها.

قيل: إن سبب تسميتهم هو اعتزالهم عن علي عليه السلام في محاربه لمخالفه؛ وقيل: اعتزالهم عن الحسن بن علي عليه السلام ومعاوية، وقيل غير ذلك.

من أقطابهم: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبو الهذيل العلاف، وأبو علي الجبائي، وغيرهم. «الملل والنحل للسبحاني ٢: ٥، و ٣: ١٥٥ - ١٨٤».

(٢١) سورة الأحزاب: ٦٢، سورة الفتح: ٢٣.

(٢٢) أي اختصاص بعض الآثار ببعض المؤثرات دون بعض.

(٢٣) القاموس والقومس: قعر البحر؛ وقيل: وسطه ومعظمه؛ وقيل: أبعد موضع غوراً في البحر. «لسان العرب ٦: ١٨٣ - قمس -».

(٢٤ و ٢٥) إشارة إلى قوله - تعالى - في سورة الحج: ٥: «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة...».

(٢٦) إشارة إلى قوله - تعالى - في سورة طه: ٨٧ و ٨٨: «... فكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ • فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً

له خُوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿٢٧﴾ كان المؤلف قد أنشأ شعراً بحدود ١١ بيت باللغة الفارسية، فأثبتته بالهامش، وما في المتن هو مدلول هذه الأبيات، وهي:

ای ز وجود تو وجود همه	ذره از جود تو بود همه
ما که نداریم ز ذات خبر	از تو چه گوئیم بغیر از اثر
فیض ازل با عدم آمیختی	عالم آثار برانگیختی
دانه جود تو کشد دم بدم	طایر دیگر ز شکاف عدم
از تو هوا خلعت تقریر یافت	نقد سخن قیمت اکسیر یافت
خاک ز فیض رخ زیبا شده	قطره خونی دل دانا شده
باز همان قطره ز دریای تست	ذره خورشید فلک سای تست
قد خم و رنگ زربری ز تو	قوت سر پنجه شیری ز تو
راحت و رنج و غم و امید و بیم	هر چه بود از تو بود ای کریم
کرد کلیمت سراین راز باز	با تو بگفت از سر عجز و نیاز
گر چه شد از سامری ایمان بیاد	جز تو بتمثال کسی جان نداد

أقلّ ما يجب معرفته من
أحكام الحجّ والعمرة
تأليف الشهيد الثاني
تحقيق رضا المختاري

ترجمة الشهيد الثاني:

وُلد العالم الجليل والفقيه النبيل، بديعُ زمانه ونادرة أوانه، الشيخ زين الدين بن علي بن أحمد العاملي الشامي المعروف بالشهيد الثاني - أفاض الله على روحه المراحِم الربانية، وأسكنه في جناته العلية - في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر شوال سنة ٩١١، واستشهد في شهر رجب سنة ٩٦٥.

قال في وصفه المحقق التستري صاحب المقابس:

أفضل المتأخرين وأكمل المتبحرين، نادرة الخلف وبقية السلف، مُفتي طوائف الأمم، والمرشد إلى التي هي أقوم، قُدوة الشيعة ونور الشريعة، الذي قصرت الأكارم الأجلاء عن استقصاء مزاياه وفضائله السنية، وحارت الأعظم الألباء في مناقبه وفضائله العلية.. المؤيد المسدّد بلطف الله الخفي والجلي

.. وله كتبٌ ورسائل كثيرة فاخرة مهذبة في فنون مختلفة ومطالب متشعبة .. (١) .
ووصفه العلامة الأمين بقوله:

كان عالماً فاضلاً جليلاً القدر رفيع المنزلة تقياً نقياً ورعاً زاهداً عابداً،
حائزاً لصفات الكمال، متفرداً منها بما لا يشاركه فيه غيره، مفخرة من مفاخر
الكون وحسنة من حسنات الزمان .. كان فقيهاً ماهراً في الدرجة العليا بين
الفقهاء .. والفقه أظهر وأشهر فنونه، وكتبه فيه .. مدار التدريس من عصره حتى
اليوم، ومحط أنظار المؤلفين والمصنفين، ومرجع العلماء والمجتهدين ...
وما ظنك برجل يؤلف مؤلفاته الجلية الخالدة على مرور الدهور
والأعوام في حالة الخوف على دمه، لا يشغله ذلك عنها مع ما تقتضيه هذه الحالة
من توزع الفكر، واشتغال البال عن التفكير بمسألة من مسائل العلم، يؤلفها بين
جدران البيوت المتواضعة وحيطان الكروم، لا في قصور شاهقة ورياض ناضرة،
ولا مساعد له ولا معين حتى على تدبير معاشه ...

وما ظنك برجل من أعظم العلماء وأكابر الفقهاء يحرس الكرم ليلاً ويطلع
الدروس، وفي الصباح يلقي الدروس على الطلبة - وكرمه الذي كان له في جُبع
معروف محله إلى الآن - ويحتطب لعياله ليلاً .. ويباشر بناء داره ومسجده الذي
هو جنبها في قرية جبع - وقد رأيتها - وداره مفتوحة للضيوف والواردين
وغيرهم، يخدمهم بنفسه، ويباشر أمور بيته ومعاشه .. ولا يدع لحظة تمضي من
عمره في غير اكتساب فضيلة وإفادة مستفيد .. (٢) .

وقال في وصفه تلميذه ابن العودي:

... ولقد كان مع علو همته وسمو منزلته على غاية من التواضع ولين
الجانب، ويبذل جهده مع كلّ وارد في تحصيل ما يبتغيه من المطالب. إذا اجتمع
بالأصحاب عدّ نفسه كواحد منهم، ولم تمل نفسه إلى التمييز بشيء عنهم ...

ولقد شاهدت منه سنة ورودي إلى خدمته أنّه كان ينقل المحطّ على حمّارٍ في الليل لعياله، ويصلي الصّبح في المسجد، ويشغل بالتدريس بقيّة نهاره... وكان يصلي العشاء جماعة، ويذهب لحفظ الكرم، ويصلي الصّبح في المسجد، ويجلس للتدريس والبحث كالبحر الزاخر...
... فقد كان غالب الزمان في الخوف الموجب لإتلاف النفس، والتستّر والاختفاء الذي لا يسع الإنسان معه أن يفكر في مسألة من الضروريات البديهية...

... كانت أصابع يديه أقلام فضة، إذا نظر الناظر في وجهه، وسمع عذوبة لفظه لم تسمح نفسه بمفارقته، وتسلى عن كلّ شيء بمخاطبته، تمتلئ العيوم من مهابته، وتبتهج القلوب لجلالته. وأيم الله، أنّه لفوق ما وصفت، وقد اشتمل من حميد الخصال على أكثر مما ذكرت^(٣).

وتحدّث عنه الشيخ علي العاملي صاحب الدر المنثور حفيد الشهيد، فقال: مما سمعته في بلادنا مشهوراً، ورأيت أيضاً مشهوراً في غيرها أنّه - قدّس الله روحه - لما سافر إلى اصطنبول، ووصل إلى المكان الذي قُتل به تغيّر لونه. فسأله أصحابه عن ذلك، فقال ما معناه: «إنّه يقتل في هذا المكان رجل كبير - أو عظيم - له شأن». فلما أخذ قتل في ذلك المكان^(٤).

وقال العلامة الأميني أعلى الله مقامه في ترجمته:

... في رسالة مسائل السيد بدر الدين ... الحسيني المدني التي سأها عن الشيخ حسين بن عبد الصمد والد شيخنا البهائي ما صورته:

سؤال: «ما يقول مولانا فيما يروى عن الشهيد الثاني أنّه مرّ بموضع في اصطنبول، ومولانا الشيخ معه، فقال: يوشك أن يُقتل في هذا الموضع رجلٌ له شأن - أو قال شيئاً قريباً من هذا المعنى - ثمّ إنّه استشهد لله في ذلك الموضع، ولا

ريب أنَّ هذه من كراماته».

الجواب: «نعم، هكذا وقع منه قدس الله روحه، وكان الخطاب للفقير، وبلغنا أنَّه استشهد في ذلك الموضع، وذلك ممَّا كُشِفَ لنفسه الزكيَّة، حشره الله مع الأئمة الطاهرين»^(٥).

وفي بعض المصادر توجد بعد الجواب هذه الزيادة: «كتبه حسين بن عبد الصمد الحارثي ثامن عشر ذي الحجة سنة ٩٨٣ في مكة المشرفة زادها الله شرفاً وتعظيماً»^(٦).

ونقل عن بعض مؤلفات شيخنا البهائي عليه السلام أنه قال:

أخبرني والدي عليه السلام أنه دخل في صبيحة بعض الأيام على شيخنا الشهيد المعظم عليه [كذا] فوجده متفكراً، فسأله عن سبب تفكيره، فقال: «يا أخي، أظنَّ أنَّي أكون ثاني الشهيدين - وفي رواية: ثاني شيخنا الشهيد في الشهادة - لأنَّي رأيت البارحة في المنام أنَّ السيد المرتضى علم الهدى عليه السلام عمل ضيافة جمع فيها علماء الإمامية بأجمعهم في بيت، فلما دخلتُ عليهم قام السيد المرتضى ورحَّب بي، وقال لي: يا فلان اجلس بجانب الشيخ الشهيد. فجلست بجانبه، فلما استوى بنا المجلس انتهت من المنام، ومنامي هذا دليل ظاهر على أنَّي أكون تالياً له في الشهادة»^(٧).

ورثاه ابن العودي بقصيدة مُفجعة مؤلمة لما بلغه خبر شهادته - وكان تلميذه الملازم له، كان وروده إلى خدمته في عاشر ربيع الأول سنة ٩٤٠، وانفصل عنه بالسفر إلى خراسان في عاشر ذي القعدة سنة ٩٦٢^(٨) - وإليك بعضها:

هذي المنازل والآثار والطلل مخبرات بأن القوم قد رحلوا
ساروا وقد بعُدت عنا منازلهم فالآن لا عوض عنهم ولا بدل



وكلّما جئت ربعاً قيل لي: رحلوا
وأنته ليس لي في وصلهم أمل
والحزن بي نازل والصبرُ مرتحل
والعين منهم بميل الحزن تكتحل
قالوا: فُجعنا بزين الدين يا رجل
ناع نعاه فنارُ الحزن تشتعل
سيف الضلال وللمذكور قد قتلوا
وجد وحلّ بقلبي المبتلى وجل
والنوح دأبي ودمع العين ينهمل
فوق الصعيد عليه الترب مشتمل
لا قبر فيه يوارى ذلك البطل
ان حلّ في خاطري يوماً له بدل
الّا مصيبة من في كربلا قُتلوا
في النوم في جنة الفردوس قد نزلوا
في جنة الخلد لا بؤس ولا وجل
حتى أراهم عياناً حيثما نزلوا^(٩)

فسرت شرقاً وغرباً في تطلّهم
فحين أيقنت أن الذكر منقطع
رجعت والعين عبرى والفؤاد شج
وعاينت عيني الأصحاب في وجل
هل نالكم غيرُ بعد الإلف عن وطن؟
أتى من الروم لا أهلاً بمقدمه
يقول: إن أولي العدوان قد شهروا
لما سمعت كلام القوم خامرني
وصار حزني أنيسي والبكا سكاني
لهفي له نازح الأوطان منجدلاً
مضرجاً بالدم لا غسل لا كفن
لا بلغ الله عيني طيب رؤيته
أشكو إلى الله رُزءاً ليس يُشبهه
لكن تسلّت همومي مذ رأيته
منعمين مع الأصحاب قاطبة
هذا، وحزني عليهم لا انقضاء له

تتلمذ الشهيد الثاني على عدد كبير من علماء عصره من الخاصة والعامة
في مختلف العلوم، منهم: والده علي بن أحمد، والشيخ علي بن عبد العالي الميسي،
والسيد بدر الدين حسن بن السيد جعفر الأعرجي الحسيني الكركي، والمحقق
الفيلسوف شمس الدين محمد بن مكّي، وشهاب الدين أحمد الرملي الشافعي،
والشيخ أبو الحسن البكري، وشمس الدين ابن طولون الدمشقي الحنفي.

وتتلمذَ عليه جمع غفير من العلماء منهم: الشيخ عزّ الدين حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي، والشيخ علي بن زهرة الجبعي، والسيد عليّ العاملي والد صاحب المدارك، والسيد عطاء الله بن السيد بدر الدين الحسيني الموسوي، والمولو محمود بن محمد اللاهجاني، والسيد جمال الدين حسن بن السيد نور الدين، وابن شعير العاملي، والسيد علي بن الصائغ العاملي، والسيد نور الدين بن السيد فخر الدين عبد الحميد الكركي، وبهاء الدين محمد بن عليّ بن الحسن العودي الجزيني وهو من خواصّ تلاميذه، وهو الذي ألّف كتاباً في ترجمة الشهيد وسماه «بغية المريد في الكشف عن أحوال الشيخ زين الدين الشهيد».

ألّف الشهيد الثاني في عمره القصير (٥٤ سنة) زهاء ستين كتاباً ورسالةً في مختلف الموضوعات، كان الكثير منها ولا يزال المورد الصافي لإفادة العلماء. منها: الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، وهو أشهر مصنّفاته، مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام، وهو أكبر مصنّفاته، رَوْضُ الجنان في شرح إرشاد الأذهان، المقاصد العلية في شرح الرسالة الألفية، الفوائد المليّة لشرح الرسالة النفلية، وتمهيد القواعد الأصولية والعربية، وهذه الكتب طبعت طبعة حجرية. ولقد فقد عدد من آثار الشهيد مثل: غُنية القاصدين في معرفة اصطلاحات المحدثين، منار القاصدين في أسرار معالم الدين، بغية المريد مختصر منية المريد، مبرّد الأكابر مختصر مسكّن الفؤاد، ورسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم.

وهناك عددٌ من آثار الشهيد الموجوة لم يطبع بعد مثل: تقليد الميت، رسالة في النية، مناسك الحج، نبات الحجّ والعمرة، تحقيق الإجماع في زمن الغيبة، حاشية الألفية، تفسير آية البسملة، أجوبة المسائل السماكية وحاشية خلاصة الأقوال.



لقد بدأتُ قبل عدّة أعوام تحقيق رسائل الشهيد الثاني، والله أسأل أن يوفّقني لإتمام هذا العمل، وقد تجلّت أولى عنايات الربّ لي أنْ ثَقُفْتُ مصوِّرة عددٍ من رسائل الشهيد كتبها بخطه الشريف عليه السلام. وهذه الرسالة هي إحدى رسائله في الحجّ، ولم تطبع بعدُ - سوى طبعتنا هذه -.

وقد حقّقناها اعتماداً على مخطوطتين منها، إحداها ضمن مجموعة محفوظة في مكتبة الأستاذ حجّة الإسلام والمسلمين الحاج السيّد محمد علي الروضاتي

دامت افاضاته، وثانيتهما ضمن مجموعة محفوظة في مكتبة الفاضل المعاصر فخر الدين النصيري الأميني دام بقاءه.
ولم أعر لهذه الرسالة على مخطوطة غير هاتين سوى مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية بطهران برقم ٢٥٧٣/٣، مذكورة في فهرسها ج ١٢، ص ٥٠٢ - ٥٠٣، ولكن لم يعلم مفهرس المكتبة أنها من تأليف الشهيد الثاني رحمته الله.

الحمد لله مُسَهِّلِ الصعاب وميسِّر الحساب، والصلاة على أشرف الأحاب وعلى آله وأصحابه خير آل وأصحاب.
وبعد، فهذه جملة كافلة ببيان أقل ما يجب معرفته من أحكام الحج والعمرة؛ تسهيلاً على المكلفين وتيسيراً على المتعلمين، فإن التيسير مُراد الله تعالى، وهو حسبنا ونعم المعين.
إعلم أن الواجب على الآفاقي - وهو من نأى منزله عن مكة بمرحلتين مع استطاعته إلى الحج - حجُّ التمتع، وهو الذي يقدر عمرته على حجه.
والواجب إذا وصل إلى ميقات الإحرام - وهو مسجد الشجرة لمن حج على طريق المدينة، والجحفة لمن حج على طريق مصر، ويلتمس لأهل اليمن ولمن قربه، والعقيق لأهل العراق ومن في معناهم، ومحاذي أحد المواقيت ولو ظناً لمن لم يصادف طريقه أحدها - أن يحرم منه بأن ينزع الخيط ويكشف رأسه وقدميه إلا ما يتوقف عليه لبس النعلين إن كان رجلاً، ويزل ما على بدنه من رائحة الطيب.
ثم ينوي العمرة، وصفتها: «أُحْرِمُ بعمرة التمتع لوجوبه قربة إلى الله»، ولو اقتصر على قوله - ناوياً -: «أُحْرِمُ بالعمرة لله» كفى - ثم يلبي ناوياً: «أَلْبِي لوجوبه قربة إلى الله»، ويكفي «أَلْبِي لله» ويقول: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبّيك، لبّيك، إن الحمد والنعمة



والملك لك، لا شريك لك لبّيك».

ويُسَنُّ قبل الإحرام توفير شعر الرأس من أول ذي القعدة، والتنظيف عنده بإزالة شعر العانة والإبط، وقصّ الأظفار، والغسل، ثمَّ يصليّ سنّة الإحرام، وهي ستّ ركعات، وأقلّه ركعتان، ونيتّها: «أُصَلِّيّ ركعتين من سنّة الإحرام لله تعالى».

فاذا نزع المخيط لبس ثوبي الإحرام، يأتزر بأحدهما ويرتدي بالآخر أو يتوشّح به. ويعتبر كونهما من جنس ما تصحّ الصلاة فيه اختياراً، وتجوز الزيادة عليهما، ويسنّ كونهما من القطن الأبيض الخالص.

فاذا عقد الإحرام بالتلبية حرم عليه صيد البرّ الممتنع بالأصالة المحلّل، وسنّة من المحرّم: الأسد والثعلب والأرنب والضبّ واليربوع والقنفذ، وأكله والإعانة عليه، والاستمتاع بالجماع ومقدّماته، وعقد النكاح، واستعمال الطيب مطلقاً، والاكتحال بالسواد، والادّهان بالدهن المطيب وغيره، وإخراج الدم وإزالة الشعر اختياراً فيهما، وقلم الأظفار، وقطع الشجر والحشيش النابتين في الحرم إلّا الإذخر وما في معناه، والفسوق وهو الكذب مطلقاً، والمجدال وهو الحلف مطلقاً، ولبس الخاتم والحناء للزينة لا للسنّة - فيهما - والفارقُ القصد، وقتل القمل وغيره من هوائِ الجسد، والنظر في المرأة، ولبس المخيط للرجل وإن قلّت الحياطة - عدا المنطقة والهميان - وفي معناها الزرّ، والخلال ولبس ما أحاط بالبدن من اللبّد والدِرْع، والتظليل سائراً اختياراً، وتغطية الرأس ولو بالارتقاس، وستر ظهر القدم بالحفّ ونحوه، وتغطية المرأة وجهها إلّا القدر الذي يتوقّف عليه تغطية رأسها، ويجوز لها سدُّ ثوبٍ على وجهها على وجه لا يصيبه، ويحرم عليها لبس ما لم تعتده من الحليّ، وما اعتادته بقصد الزينة أو مع إظهاره للزوج.

فإذا فعل المحرم شيئاً من هذه المحرمات: فإن كان جاهلاً أو ناسياً فلا شيء عليه إلا في الصيد، فلا يفرق فيه بين العامد وغيره، وإن كان عامداً أثم ووجب عليه الكفارة إلا في الاكتهال والادّهان بغير المطيب وإخراج الدم ولبس الخاتم والحناء والنظر في المرأة والفسوق ولبس الحلي، فلا شيء فيها سوى الإثم. والكفارة في الباقي مفصلة في بابها.

فإذا وصل إلى مكة وجب أن يبتدئ بطواف العمرة فيتطهر من الحدث والخبث على حد ما يعتبر في الصلاة، ويستتر عورته، «ويختن إن كان رجلاً مع المكنة» كالصلاة.

وكيفية الطواف: أن يقف بإزاء الحجر الأسود مستقبلاً له، جاعلاً أول جزء منه ممّا يلي الركن اليماني، محاذياً لأول كتفه الأيمن ولو ظناً، ثم ينوي: «أطوف طواف العمرة لوجوبه قرباً إلى الله» ثم ينتقل ويجعل البيت على يساره، ويطوف به سبعة أشواط من غير زيادة ولا نقصان في القدر الذي بين البيت والمقام، مدخلاً للحجر في الطواف، مخرجاً لجميع بدنه عن البيت، فلا يمس الحائط ما شيئاً بل يقف إن أراد، ولا ينتقل حتى يخرج يده عنه.

فإذا فرغ من الطواف وجب عليه صلاة ركعتيه خلف المقام أو مع أحد جانبيه ونيتهما: «أصلي ركعتي طواف العمرة لوجوبه قرباً إلى الله».

فإذا فرغ من الصلاة خرج إلى السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط بادئاً بالصفا خاتماً بالمروة، مستقبلاً للمطلوب بوجهه، ذاهباً بالطريق المعهود، ونيتة - وهو على الصفا -: «أسعي سعي العمرة لوجوبه قرباً إلى الله».

فإذا فرغ من السعي قصر من ظفره أو من شعره مسماً ناوياً: «أقصر لوجوبه قرباً إلى الله».

وبالتقصير يتحلل من عمرة التمتع - لا الحلق - وهو آخر أفعالها، ويبقى



على إحلاله إلى أن يحرم بالحج.

ويُستحبُّ كونه يوم الثامن من ذي الحجة من المسجد الحرام، وأفضله المقام أو الحِجْرُ تحت الميزاب، ونَبَيْتُهُ: «أُحْرِمُ بِحَجِّ التَّمَتُّعِ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ» ثُمَّ يَنْوِي التَّلْبِيَةَ: «أَلْبِي لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ» [ويقول: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ وَالْمَلِكَ لَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ»].

فإذا وصل إلى عرفاتٍ وجب عليه الكونُ بها من زوال الشمس يوم التاسع إلى غروبها ناوياً - قبل الزوال أو بعده بغير فصل تقريباً -: «أَقِفْ بِعَرَفَةَ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ».

فإذا غربت الشمس أفاض إلى المشعر الحرام، ووجب عليه المبيتُ به بقيّة تلك الليلة ناوياً: «أَبَيْتُ بِالْمَشْعَرِ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ»، فإذا أصبح وجب عليه الكونُ به إلى طلوع الشمس ناوياً بعد الفجر أو قبله - كما مرّ -: «أَقِفْ بِالْمَشْعَرِ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ». ولو اقتصر على نيّة واحدة حين الوصول إليه ليلاً تشتملُ على قصد الكونِ به إلى طلوع الشمس كفى.

فإذا طلعت الشمس أفاض إلى منى، ووجب عليه بها ثلاثة أفعالٍ رمي جمرَةِ الْعَقَبَةِ بسبع حصياتٍ حرميةٍ أبكارٍ، مبتدئاً به عند وصوله إلى منى، ثمّ ذبح الهدْي، وهو ثَنِيٌّ مِنَ النِّعَمِ تَامُّ الْخَلْقَةِ سَمِينٌ بِحَيْثُ يَكُونُ عَلَى كَلْبَتَيْهِ شَخْمٌ وَلَوْ ظَنًّا، وتفريقه ثلاثة أجزاء: فيأكل شيئاً منه، ويُهْدِي ثُلُثَهُ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ويتصدّق بثُلُثِهِ على فقيرٍ من فقرائهم. ونَبَيْتَةُ الرَّمْيِ: «أَرْمِي هَذِهِ الْجَمْرَةَ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ». ونَبَيْتَةُ الذَّبْحِ: «أَذْبَحْ هَذَا الْهَدْْيَ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ». ونَبَيْتَةُ الْأَكْلِ وَالْإِهْدَاءِ وَالصَّدَقَةِ: «أَكُلْ مِنْ هَذَا الْهَدْْيِ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ، أَهْدِي ثُلُثَ هَذَا الْهَدْْيِ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ، أَتَصَدَّقْ بِثُلُثِ هَذَا الْهَدْْيِ لَوْجُوبَهُ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ».

فإذا فرغ من ذلك حلق رأسه أو قصّر من شعره أو ظفره - كما مرّ - ناوياً: «أَحْلِقُ رَأْسِي - أَوْ أَقْصِرُّ - لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ».

فإذا فعل ذلك أحلّ من كلّ شيءٍ عدا النساء والطيب والصيد، فإذا طاف للحجّ وسعى حلّ له الطيب، فإذا طاف للنساء حللن له. ثمّ يخرج إلى مكّة من يومه إن أمكنه الرجوع قبل الغروب، وإلاّ فن غده أو بعد انتصاف الليل.

فإذا وصل إلى مكّة وجب عليه طواف الحجّ وصلاة ركعتيه، ثمّ السعي بين الصفا والمروة سبعاً - كما مرّ - ثمّ طواف النساء ثمّ صلاة ركعتيه، وكيفيّاتها وواجباتها كما مرّ، إلاّ أنّه ينوي طواف الحجّ وسعيه وطواف النساء، وصفته: «أَطُوف طَوَافَ الْحَجِّ لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، أَصَلِّيْ رُكْعَتِي طَوَافَ الْحَجِّ لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، أَسْعَى سَعِيَ الْحَجِّ لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، أَطُوف طَوَافَ النِّسَاءِ لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، أَصَلِّيْ رُكْعَتِي طَوَافَ النِّسَاءِ لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ».

فإذا فرغ من ذلك وجب عليه الرجوع إلى منى للمبيت بها ليلي التشرّيق الثلاث، وهي الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة.

ويجوز لمن اتقى الصيد والنساء الاقتصار على مبيت الليلتين الأولىين ما لم تغرب عليه الشمس في الليلة الثالثة، فيجب عليه مبيتها مطلقاً ناوياً عند الغروب: «أَبِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَمَنَى لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ».

ويجب رمي الجمرات الثلاث كلّ واحدةٍ بسبع حصياتٍ في كلّ يومٍ يجب مبيت ليلته. وثبّة الرمي: «أَرَمِي هَذِهِ الْجُمُرَةَ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ لَوْجُوبِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ».

ولو اقتصر في جميع هذه النّيّات على قوله: «أَفْعَلُ كَذَا لِلَّهِ» من غير تعرّض للوجوب ولفظ القرّة كفى.



والنائب عن غيره يُضَيَّفُ إلى ذلك: «نيابةً عن فلان» أو «عَمَّن استَوْجرت عنه».

وحسبنا الله وكفى، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله أجمعين.

الهوامش :

- (١) مقابيس الأنوار : ١٥ .
- (٢) أعيان الشيعة ٧ : ١٤٤ - ١٤٦ .
- (٣) الدرّ المنثور ٢ : ١٥٥ - ١٥٧ .
- (٤) الدرّ المنثور ٢ : ١٨٩ .
- (٥) شهداء الفضيلة : ١٣٧ ، وانظر الدرّ المنثور ٢ : ١٩٠ الهامش .
- (٦) الدرّ المنثور ٢ : ١٩٠ الهامش ، أعيان الشيعة ٧ : ١٥٧ .
- (٧) روضات الجنّات ٣ : ٣٨٣ ، وانظر كلام الشهيد نفسه في عناية الله تعالى به في منية المريد : ١٦٠ .
- (٨) انظر منية المريد : ١٠ و ٤٣ مقدمة التحقيق .
- (٩) الدرّ المنثور ٢ : ١٩٧ - ١٩٨ ، والأبيات طبعت في هذا الكتاب مغلوطة ، وصححناها بقدر الإمكان بعد المراجعة إلى سائر المصادر ونسخه المخطوطة .

فارس تبريزيان الحسون

إمارة الحج وبيت الموسوي

بعد النظر والتأمل في أمّهات مصادر التاريخ التي لها صلة بتاريخ الحج، وما جرى على حجاج بيت الله الحرام من أنواع العذاب والزجر، يتبيّن أنّ مسلمي القرن الرابع الهجري كانوا أكثر من تحمّل القتل والنهب بسبب إقامتهم مراسم الحجّ، وعدم تعطيلهم لهذه الفريضة الإلهية، فقد عاشوا في زمن وظروف صعبة للغاية، حيث اضطربت أحوال الدولة، وتنازعت

السلطة على الحرمين الشريفين فئات مختلفة، حتى إنّ بعض الأعراب كانت مهنتهم وعملهم اعتراض قوافل الحجاج ونهبها، ومنع الناس من مواصلة المسير نحو مكة لأداء فريضة الحج، حتّى بلغ بهم الأمر إلى أسر الحجاج واسترقاقهم، وفرض الضرائب عليهم. وكانت هذه المسائل في تزايد حتّى بلغت ذروتها في أواسط القرن الرابع الهجري، وتعدّت إلى القرن

الخامس الهجري.

أما الولاية على تسيير الحجيج:

فهي ولاية سياسية وزعامة وتدبير، ويشترط في المولى والأمير على هذه المهمة أن يكون مطاعاً، ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية.

وتجب على أمير الحج في هذه الولاية عشرة أشياء:

١ - جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف التوى والتغريز.

٢ - ترتيبهم في المسير والنزول بإعطاء كل طائفة منهم مقادراً، حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل، فلا يتنازعون فيه ولا يضلّون عنه.

٣ - يرفق بهم في السير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم، ولا يضلّ عنه منقطعهم، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الضعيف أمير الرفقة»، يريد ﷺ: أن من ضعفت دوابه كان على القوم أن يسيروا بسيره.

٤ - أن يسلك بهم أوضح

هكذا كانت ظروف الحج في هذه البرهة من الزمن بل أكثر بكثير من ذلك، وفي مثل تلك الأزمنة وأوضاعها لم يكن الإعداد للحج، ورعاية قوافله، وأداء الشعائر، ثم العودة إلى الوطن أمراً سهلاً، وقد كانت هذه المهام تقع على عاتق أمير الحج أو من ينوب عنه.

وفي مثل تلك الفترة الشديدة - التي تعدّ أشد وأصعب فترة مرّ بها الحجاج على مرّ العصور - كانت مباشرة بيت أبي أحمد الموسوي لإمارة الحج، ومن هنا تتضح جسامته المهمة التي تقلدها هذا البيت الشريف.

وظائف أمير الحج:

الولاية على الحج ضربان: أحدهما: أن تكون على تسيير الحجيج.

الثاني: أن تكون على إقامة الحج.

- الطرق وأخصبها، ويتجنب أجديها
وأوعرها.
- ٥ - أن يرتاد لهم المياه إذا
انقطعت، والمراعي إذا قلت.
- ٦ - أن يحرسهم إذا نزلوا،
ويحوطهم إذا رحلوا، حتى لا يتخطفهم
داعر، ولا يطمع فيهم متلصص.
- ٧ - أن يمنع عنهم من يصدّهم
عن المسير، ويدفع عنهم من يحصرهم
عن الحج، بقتال إن قدر عليه، أو ببذل
مال إن أجاب الحجيج إليه. ولا يسعه
أن يجبر أحداً على بذل الخفارة إن
امتنع منها، حتى يكون باذلاً لها عفواً،
ومحبباً إليها طوعاً، فإنّ بذل المال على
التمكين من الحج لا يجب.
- ٨ - أن يصلح بين المتشاجرين،
ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض
للحكم بينهم إجباراً إلا أن يفوّض
الحكم إليه، على أن يكون من أهله،
فيجوز له حينئذٍ الحكم بينهم، فإنّ
دخلوا بلداً فيه حاكم جاز له ولحاكم
البلد أن يحكم بينهم، فأيهما حكم نفذ
- حكمه.
- ٩ - أن يقوم زائغهم ويؤدّب
خائنهم، ولا يتجاوز التعزير إلى الحدّ،
إلا أن يؤذن له فيستوفيه إن كان من
أهل الاجتهاد فيه.
- ١٠ - أن يراعي اتساع الوقت
حتى يؤمن الفوات، ولا يلجئهم ضيقه
إلى الحثّ في السير، فإذا وصل إلى
الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سننه.
وأما الولاية على إقامة الحج،
فالوالي فيه بمنزلة الإمام في إقامة
الصلوات، فمن شروط الولاية عليه مع
الشروط المعتبرة في أئمة الصلوات: أن
يكون عالماً بمناسك الحج وأحكامه،
عارفاً بمواقيته وأيامه، وتكون مدّة
ولايته مقدرة بسبعة أيام: أولها من
صلاة الظهر في اليوم السابع من ذي
الحجة، وآخرها يوم الثالث عشر من
ذي الحجة.
- وعلى الذي يختص بولايته
خمسة أحكام متفق عليها، وحكم
سادس مختلف فيه:



كان مشهوداً له بالإقدام على صعب الأمور، وتحمل المسؤوليات - تقلد مهمة أمير الحاج والولاية على الحج، سواء في ذلك الولاية على تسير الحجيج، أم الولاية على إقامة الحج، وأدى هذا البيت المبارك هذه المهمة أحسن أداء، وسيأتي تفصيل ذلك.

بيت أبي أحمد الموسوي:

عرف هذا البيت المبارك من بدو أمره بالبركة واليمن والصلاح والكرم والتدين والإباء و... ، لأنه غصن من أغصان شجرة النبوة، وفرع من فروع ذلك البيت الطاهر الذي أذهب الله عنه الرجز. وقد عرف من هذا البيت الشريف ثلاثة أعلام:

١ - أبو أحمد الموسوي.

٢ - الشريف الرضي.

٣ - الشريف المرتضى.

أبو أحمد الموسوي:

الحسين بن موسى بن محمد بن

١ - إشعار الناس بوقت إحرامهم، والخروج إلى مشاعرهم، ليكونوا له متبعين، وبأفعاله مقتدين.

٢ - ترتيبهم للمناسك على ما استقرّ الشرع عليه؛ لأنه متبوع فيها، فلا يقدم مؤخراً ولا يؤخر مقدماً، سواء كان الترتيب مستحقاً أو مستحباً.

٣ - تقدير المواقف بمقامه فيها ومسيره عنها، كما تقدّر صلاة المأمومين بصلاة الإمام.

٤ - اتباعه في الأركان المشروعة فيها، والتأمين على أدعيته بها؛ ليتبعوه في القول كما اتبعوه في العمل.

٥ - إمامتهم في الصلوات.

وأما السادس المختلف فيه:

حكمه بين الحجيج فيما لا يتعلق بالحج وإقامة التعزير والحد في مثله^(١).

هذه هي شروط أمير الحاج آنذاك، وهي ذات فروع كثيرة ومتشعبة وصعبة.

وبيت أبي أحمد الموسوي - الذي

موسى بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بن الإمام محمد الباقر عليه السلام بن الإمام علي زين العابدين عليه السلام بن الإمام الحسين السبط الشهيد عليه السلام بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولد سنة ٣٠٤ هـ، وتوفي سنة ٤٠٠ هـ، ودفن أولاً في داره، ثم نقل إلى مشهد الإمام الحسين عليه السلام.

كان جليل القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بني بويه، ولقب بالطاهر ذي المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه: الطاهر الأوحد.

ولي نقابة الطالبين خمس دفعات، ومات وهو متقلداً، وكان السفير بين الخلفاء وبين الملوك من بني بويه، والأمراء من بني حمدان وغيرهم. كان مبارك الغرة، ميمون النقيبة، مهيباً نبيلاً، ما شرع في إصلاح أمر فاسد إلا وصلح على يديه، وانتظم بحسن سفارته وبركة همته، وحسن

تدبيره ووساطته.

واجه الشريف أبو أحمد الموسوي ظروفًا صعبة وعسيرة، وذلك من قبل أعداء مذهب أهل البيت عليهم السلام، لأنهم كانوا يموتون غيضاً عندما ينظرون إلى أحد علماء الشيعة يتقلد منصباً ما، حتى أنهم لفقوا عليه الاتهامات، وزوروا عليه كتاباً نسبوه إليه في إفشاء الأسرار، مما أدى إلى عزله عن النقابة وإمارة الحج. ثم قبض عليه، وقد نصّ أكثر المؤرخين بأنه كان مظلوماً. ولما ولّاه بهاء الدولة قضاء القضاة، هذا المنصب المهم اشتد غيظ الأعداء، وسعوا بكل قدراتهم حتى تمكّنوا من تغيير هذا المنصب عنه ^(٢).

الشريف الرضي:

محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، أبو الحسن الرضي الموسوي.

نقيب العلويين ببغداد، أخو

المرتضى، كان فاضلاً عالماً ورعاً، عظيم الشأن رفيع المنزلة.

ولد سنة ٣٥٩ هـ، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ في السادس من المحرم، وشهد جنازته الوزير فخر الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة، ورثاه أخوه الشريف المرتضى وغيره بأبيات. وكان شاعراً مبرزاً، حتى قيل: إنه أشعر قريش، نظم الشعر وهو ابن عشر سنين.

تعلّم في نشأته العلوم العربية وعلوم البلاغة والأدب، والفقه والكلام والتفسير والحديث على مشاهير العلماء ببغداد، كالشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان، وأبي الفتح عثمان بن جني.

كان أواحد علماء عصره، أديباً بارعاً متميّزاً، وفقهياً متبحّراً، ومتكلماً حاذقاً، ومفسّراً لكتاب الله وحديث رسوله.

قال بعض العلماء: لولا الرضي لكان المرتضى أشعر الناس، ولولا المرتضى لكان الرضي أعلم الناس^(٣).

ولم يمنع الشريف الرضي انتظامه في سلك العلماء والفقهاء وأعاضم الأدباء من تولّي أعلى المناصب، بل كان يرى أنه أحقّ بالخلافة من غيره، وذلك من باب النيابة العامة التي جعلت في زمن الغيبة الكبرى للعلماء العدول الصائنين لدينهم، المخالفين لهوهم، المطيعين لأمر مولاهم.

فتقلّد الشريف الرضي نقابة الطالبين مراراً، وكانت إليه إمارة الحج والمظالم، كان يتولى ذلك نيابة عن أبيه، وبعد وفاة أبيه مستقلاً. وحجّ بالناس مرّات، وله فيها مواقف عظيمة سجّلها التاريخ وأبقى له ذكرى خالدة، وقصائده المجازيات من أشهر شعره^(٤).

قال حسن محمود: وقد تولّى الرضي هذه الإمارة منذ صباه، وفي أكثر أيام حياته وزيراً لأبيه ونائباً عنه ومستقلاً بها، وقد عانى الكثير، وكانت دافعاً له لتغذية طموحه نحو المجد والعلوّ؛ لأن تلك الإمارة مهما كانت محدودة هي مثال مصغّر لتلك المرتبة

التي يتوق إليها منذ صغره، ويرى أنه
الأجدر بها.

وكانت إمارة الحج متشعبة، فهي
إما إمارة على تسيير الحجيج أو على
إقامة الحج، والإمارة التي تولّاها أبو
أحمد وولده الرضي كانت تجمع بين
الأميرين؛ لأنهما كانا إذا تخلّفا عن
الركب أنابا عنهما من يحج بالناس.

وتسيير الحجيج ولاية سياسة،
تقتضي تدبيراً لأمر القافلة قبل الرحلة
وتأمين السبل لها، ويشترط في أميرها
أن يكون مطاعاً شجاعاً صاحب رأي
وهيبة وهداية، يقيم حدود الله، ويقضي
بين الناس، ويدبر لهم ما يحتاجون إليه
وكذلك فإنّ الولاية على إقامة الحج
تقتضي من صاحبها فقهاً في الدين،
وبصراً بشعائر الحج، وأن يكون قدوة
صالحة^(٥).

ومرّ الشريف الرضي - رضوان
الله عليه - بطروف صعبة جدّاً، وهي
على قسمين:

الأول: زمن اعتقال والده حيث

لَفَّقُوا عليه التهم وهو بريء منها، وقد
سبق ذكره.

الثاني: اتهامه بالميل إلى ولاية
الدولة الفاطمية بمصر، بعد أن اشتهرت
قصيدة مطلعها:

ما مُقامي على الهوانِ وعندي
مِقُولٌ صارمٌ وأنفٌ حميٌّ
إلى آخر الأبيات التي فيها
إظهار أمنيته بالالتحاق بمصر، وأنّ
بقاءه في بغداد فيه ذلٌّ وضمٌّ وهوان،
ونسبت هذه القصيدة إلى الشريف
الرضي، فعقد القادر بالله مجلساً،
أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسوي،
وابنه أبا القاسم المرتضى، وجماعة من
القضاة والشهود والفقهاء، وأبرز إليهم
أبيات الرضي، وقال للنقيب أبي أحمد:
قل لولدك محمد: أيُّ هوان قد أقام
عليه عندنا؟ أيّ ضمّ لقي من جهتنا؟
وأيّ ذل أصابه في مملكتنا؟ وما الذي
يعمل معه صاحب مصر لو مضى إليه،
أكان يصنع إليه أكثر من صنيعنا؟ ألم
نولّه النقابة؟ ألم نولّه الحجيج؟ فهل كان



يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا؟ ما نظنه يكون لو حصل عنده إلا واحداً من أبناء الطالبين بمصر.

فاعتذر والد الشريف الرضي بأنه لم يسمع هذه الأبيات منه، بل نسبها له الأعداء، فعندها أمر القادر بالله بترتيب محضر يتضمن القدح في أنساب ولاية مصر، وأمضى فيه الكثير، وامتنع الرضي من إمضائه، واعتذر بخوفه من غيلة دعاة المصريين^(٦).

هذه هي أصل الواقعة، وهي كانت الأشعار للشريف الرضي، أم نسبت إليه لتكون مقدمة لترتيب المحضر الذي يتضمن القدح في أنساب ولاية مصر؟ وهل وقع في المحضر الشريف الرضي بعد الامتناع، أم استمر امتناعه من التوقيع حتى النهاية؟ أسئلة تحتاج إلى مزيد من البحث ليس هذا محلها.

الشريف المرتضى:

علي بن الحسين بن موسى بن

محمد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، أبو القاسم المرتضى ذو المجددين علم الهدى.

حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، متوحد في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقدّم في علوم، مثل علم الكلام والفقه وأصول الفقه، والأدب من النحو والشعر واللغة وغير ذلك، وسمع من الحديث فأكثر، عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، صنّف كتباً كثيرة في شتى العلوم، وبكثبه استفادات الإمامية منذ زمنه إلى زماننا هذا.

قال الشيخ أبو العباس النجاشي: مات عليه السلام لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٣٦ هـ، وصلى عليه ابنه في داره ودفن فيها، وتولّى غسله ومعي الشريف أبو يعلى محمد بن الحسن الجعفري وسلار بن عبد العزيز، وكان مولده في شهر رجب سنة ٣٥٥ هـ.

قرأ على الشيخ المفيد محمد بن

محمد بن النعمان وغيره من علماء الفريقين، وكان يدرّس في علوم كثيرة ويجري على تلامذته رزقاً، فكان للشيخ الطوسي أيام قراءته عليه كلّ شهر ١٢ ديناراً، وللقاضي ابن البراج كلّ شهر ٨ دنانير.

تولّى نقابة النقباء وإمارة الحج والمظالم بعد أخيه الرضي أبي الحسن، وهو منصب والديهما، وكان هو وأخوه الرضي ينوبان والديهما في حياته في سنين كثيرة لإمارة الحج.

إمارة بيت أبي أحمد الموسوي للحج حسب تسلسل السنين:

في هذا الفصل من البحث نذكر ما سطره المؤرّخون في كتبهم من إمارة بيت أبي أحمد الموسوي حسب تسلسل السنين، وهذا لا يعني أن ما ذكره المؤرّخون هو جميع ما كان من إمارتهم للحج، فإنّ الشواهد التاريخية تدلّ على أنّ إمارتهم كانت أكثر من هذا الذي ذكر بكثير، لكنه سقط من

أقلام المؤرخين.

سنة ٣٥٤هـ:

وفيهما رابع جمادى الآخرة تقلّد الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى والد الرضي والمرضى نقابة العلويين، وإمارة الحاج، وكُتب له منشور من ديوان الخليفة^(٧).

سنة ٣٥٨هـ:

فيها حجّ بالناس من العراق أبو أحمد الموسوي^(٨).

سنة ٣٥٩هـ:

فيها حجّ بالناس من بغداد أبو أحمد النقيب^(٩).

سنة ٣٦٠هـ:

فيها حجّ بالناس من بغداد النقيب الشريف أبو أحمد الموسوي^(١٠).

وفي المنتظم ٧ : ٢٤٧: ولي النقابة في سنة ٣٥٤، ثمّ صرفه أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وزير عزّ الدولة سنة ستين.



سنة ٣٧٦ هـ:

فيها أعيد أبو أحمد إلى النقابة لما مات عضد الدولة في صفر سنة ٣٧٦ هـ^(١١).
ومن مستلزمات إعادته إلى النقابة إعادته إلى إمارة الحج.

سنة ٣٨٠ هـ:

في ربيع الأول قُلد الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي نقابة الأشراف الطالبين، والنظر في المظالم، وإمرة الحاج، وكتب عهده بذلك، واستخلف ولداه المرتضى أبو القاسم والرضي أبو الحسين على النقابة وخُلع عليهما من دار الخلافة.

وحجّ بالناس أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله العلوي نيابة عن النقيب أبي أحمد الموسوي^(١٢).

سنة ٣٨٩ هـ:

فيها حجّ بالناس محمد بن محمد بن عمر من العراق، وكان في الحج الشريفان رضي المرتضى، فاعترض ركب الحاج أبو الجراح الطائي، فأعطياه تسعة آلاف دينار من أموالها

حتى أطلق الحاج^(١٣).

وهذا هو أحد المواقف المهمة للشريفيين، حيث بذلا من أموالهما الخاصة لنجاة الحاج، ولهما - رضوان الله عليهما - مواقف كثيرة مهمة في غير الحج لأجل الدفاع عن الحق والعقيدة وإقامة الشعائر.

سنة ٣٩٤ هـ:

فيها قُلد بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الحسين بن موسى الموسوي قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة الطالبين، وكتب له من شيراز العهد، ولقبه الطاهر الأوحـد «ذو المناقب»^(١٤).

أقول: تقليده قضاء القضاة لم يتم، لمخالفة البعض له.

سنة ٣٩٦ هـ:

فيها قُلد الشريف رضي نقابة الطالبين بالعراق، ولقب بالرضي ذي الحسين، ولقب أخوه المرتضى ذا المجددين، فعل ذلك بهاء الدولة^(١٥).

والظاهر اتحاد هذا التقليد مع

التقليد في السنة الآتية (٣٩٧ هـ) ،
والاختلاف في سنة وقوعه، فلاحظ.
سنة ٣٩٧ هـ:

في يوم الاثنين لأربع خلون من
جمادى الأولى ورد كتاب من بهاء
الدولة بتقليد الشريف أبي الحسن محمد
بن أبي أحمد الحسين بن موسى العلوي
النقابة والحج وتلقيه بالرضي ذي
الحسين، ولقب أخوه أبو القاسم
بالشريف المرتضى ذي المجدين^(١٦).

سنة ٤٠٣ هـ:

هذا ما عاهد عبدالله أبو العباس
أحمد الإمام القادر بالله أمير المؤمنين
إلى علي بن موسى العلوي، حيث قربته
الأنساب الزكية، وقدمته لديه الأسباب
القوية، واستظلّ معه بأغصان الدوحة
الكريمة، واختصّ عنده بوسائل الحرمة
الوكيدة، فقلّد الحج والنقابة، وأمره
بتقوى الله، وذكر كلاماً فيه طول من
إيصاله بالخير واللفظ فيما

فيها قلّد الشريف الرضي الموسوي
نقابة الطالبين في سائر الممالك^(١٧).
ويحتمل تقليده إمارة الحج أيضاً
مع النقابة.

سنة ٤٠٦ هـ:

في يوم السبت، الثالث من شهر

استرعي^(١٨).

المراجع:

- ١ - إتحاف الوري بأخبار القرى، أبو القاسم بن فهد الهاشمي.
- ٢ - أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٦ هـ.
- ٣ - البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، مطبعة السعادة، مصر.
- ٤ - تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت.



- ٥ - خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، العلامة الحلي الحسن بن يوسف؛ المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨١ هـ.
- ٦ - رجال النجاشي، الشيخ أحمد بن علي النجاشي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- ٧ - روضات الجنات، الميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري، الدار الإسلامية، بيروت.
- ٨ - سفينة البحار، المحدث الشيخ عباس القمي، دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤١٤ هـ.
- ٩ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء الكتب العربية.
- ١٠ - الشريف الرضي دراسة في عصره وأدبه، حسن محمود أبو عليوي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٦ هـ.
- ١١ - العبر في خبر من غبر، الحافظ الذهبي، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت.
- ١٢ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب، العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٤ هـ.
- ١٣ - الكامل في التاريخ، علي بن أبي أكرم محمد المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت.
- ١٤ - مرآة الجنان، عبد الله بن أسعد اليافعي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- ١٥ - المنتظم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
- ١٦ - النجوم الزاهرة، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

الهوامش :

- (١) الغدير ٤ : ٢٤٠ - ٢٤٢.
- (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٣١ - ٣٢، المنتظم ٧ : ٢٤٧، البداية والنهاية ١١ : ٢٩٥، الكامل في التاريخ ٩ : ١٠٥، أعيان الشيعة ٦ : ١٨٣.
- (٣) رجال النجاشي : ٣٩٨، خلاصة الأقوال : ١٦٤، الكامل في التاريخ ٩ : ٢٦١ - ٢٦٢، مرآة الجنان ٣ : ١٨، العبر ٣ : ٩٥، شرح نهج البلاغة، الجزء الأول، مقدّمة المؤلف، روضات الجنات ٦ : ١٧٩ - ١٨٠، أعيان الشيعة ٩ : ٢١٦، سفينة البحار ٣ : ٣٧٢.
- (٤) أعيان الشيعة ٩ : ٢٢٠، روضات الجنات ٦ : ١٧٩ و ١٨١، الغدير ٤ : ٢٤٢.
- (٥) الشريف الرضي دراسة في عصره وأدبه : ١٤٤ - ١٤٥.
- (٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٣٧ - ٣٨.
- (٧) الكامل في التاريخ ٨ : ٥٦٥ - ٥٦٦، المنتظم ٧ : ٢٤.
- (٨) النجوم الزاهرة ٤ : ٢٦، تاريخ الإسلام : ٤٣ (حوادث سنة ٣٥١ - ٣٨٠).

- (٩) تاريخ الإسلام: ٤٦ (حوادث سنة ٣٥١ - ٣٨٠).
- (١٠) النجوم الزاهرة ٤: ٥٨.
- (١١) المنتظم ٧: ٢٤٧.
- (١٢) الكامل في التاريخ ٩: ٧٧-٧٨، النجوم الزاهرة ٤: ١٥٧، البداية والنهاية ١١: ٣٠٨.
- (١٣) إتحاف الوری بأخبار القرى (حوادث سنة ٣٨٩)، النجوم الزاهرة ٤: ٢٠٠.
- (١٤) تاريخ الإسلام: ٢٢٩ (حوادث سنة ٣٨١ - ٤٠٠)، المنتظم ٧: ٢٢٦-٢٢٧.
- (١٥) الكامل في التاريخ ٩: ١٨٩، البداية والنهاية ١١: ٣٣٥.
- (١٦) تاريخ الإسلام: ٢٣٦ (حوادث سنة ٣٨١ - ٤٠٠)، المنتظم ٧: ٢٣٤.
- (١٧) تاريخ الإسلام: ١٥ (حوادث سنة ٤٠١ - ٤٢٠)، البداية والنهاية ١١: ٣٤٧، الكامل في التاريخ ٩: ٢٤٢.
- (١٨) المنتظم ٧: ٢٧٦، الكامل في التاريخ ٩: ٢٦٣، البداية والنهاية ١٢: ٢، النجوم الزاهرة ٤: ٢٣٩، تاريخ الإسلام: ٢٣ (حوادث سنة ٤٠١ - ٤٢٠).

عبد الكريم آل نجف

الحج والسلام العالمي

يمثل الحج محوراً مهماً من محاور النهج الإسلامي للإسلام، بل يمكن عدّه المحور الأساس منها. وتأتي هذه الأهمية المتميزة له من جهتين: الأولى: أن الحجّ بشعائره، ومناسكه، وأذكاره، يمثل جزءاً مهماً من النظام التربوي والروحي في الإسلام. وهذا النظام يمثل المرحلة الثانية في النهج الإسلامي للإسلام. ومن المعلوم أن هذا النظام يحظى بأهمية خاصة في مختلف جوانب الحياة الإسلامية؛ لأنه هو الذي يمنح الإسلام الفاعلية، والتأثير، والايجابية العملية لمناهجه في هذه الحياة. فأهمية الحج للنهج الإسلامي في الإسلام جزء من أهمية النظام التربوي والروحي للحياة الإسلامية ككل، وقد وردت في تأكيده أخبار كثيرة، حتّى عدّ أحد أركان الإسلام الخمسة، وحكم على تاركه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً^(١).

الثانية: أن المغزى السلمي أساس العديد من شعائر الحج ومناسكه، بحيث قد لا نرى قضية إنسانية يخدمها الحج أكثر من قضية السلم، ولا نرى فريضة إسلامية أخرى تخدم قضية السلم أكثر من الحج. وعندما يتضح ذلك، سيكون بإمكاننا أن نقرر باطمئنان أن الحج في بعده السياسي فريضة ذات مفهوم سلمي شديد التركيز. وهو مفهوم يتكون من عدة أبعاد مهمة في الحج، هي:

أولاً: البعد الزماني:

فالحج فريضة مؤقتة بزمان خاص، وفي شهر خاص، هو شهر ذي الحجة، وهو أحد الأشهر الحرم، ويتوسط شهرين آخرين منها هما ذو القعدة ومحرم، والرابع منها هو شهر رجب، وهي الأشهر التي حرّمت الديانة الإبراهيمية القتال فيها، وأمضى الإسلام حرمتها.

إن تحريم القتال في هذه الأشهر على المسلمين، وإلزامهم قبل غيرهم به، يمثل محاولة رائعة لتجفيف دواعي الحرب، وتنشيط أسباب السلام في المجتمع الإنساني، لفترة زمنية تساوي ثلث السنة، يقضيها المجتمع الإسلامي في عملية تربوية إيجابية، هدفها السلام من خلال جانبيين: الأول سلبي: وهو التخلي عن دواعي الحرب. وذلك بتحريمها في هذه الأشهر، والثاني إيجابي: وهو التحلي بروح السلم، واحترام الأمن، وحق الحياة للآخرين، وذلك عبر الأبعاد السلمية الأخرى في الحج. الذي تهيمن أجوائه النفسية الإيجابية على المجتمع الإسلامي كله مدة انشغاله بالحج، منذ الأيام الأولى لسفر الحجاج إلى الديار المقدسة، وحتى أيام عودتهم إلى أوطانهم.

إن مبدأ الأشهر الحرم يجسد نزعة سلمية عميقة لا تجعل الإسلام يكتفي من مجتمعه بأن يكون مسالماً ومحافظاً على الأمن فحسب، بل لا بد له من أن



يكون قدوة وداعية في هذا المجال، انسجماً مع القاعدة التوحيدية الكبرى التي يقوم عليها هذا المجتمع، والتي تجعله ركيزة السلم في المجتمع الإنساني كله، فحيث ينحصر التوحيد الحقيقي بالمجتمع الإسلامي يكون هذا المجتمع قاعدة السلم في المجتمع الإنساني.

من هنا فإن مبدأ الأشهر الحرم يمثل دعوة إلى إقامة نظام أمني عالمي. فإنّ التمسك بهذا المبدأ من طرف واحد، مهما كان شديداً، لا يحقق الهدف المطلوب، فلا بد من إقامة التزام دولي متبادل بهذا المبدأ. وهكذا فإن الإسلام أوقف مجتمعه على أرقى درجة يمكن أن يلتزمها لصالح السلم، فيما علق درجة التحريم المطلق للحرب في الأشهر الحرم على ظهور نظام أمني عالمي تتبادل فيه الأطراف الدولية المختلفة الاحترام لمبدأ الأشهر الحرم. ولذلك أجاز للمسلمين القتال في هذه الأشهر إذا كانوا في حالة دفاعية، أو كان خصمهم ممن لا يرى لهذه الأشهر حرمة. وهما شرطان ينسجمان تماماً مع ذلك المبدأ، لأنهما يتفقان معه على محاربة العدوان، وتضييق فرصه. فليس من مفهوم السلم - بل مما يخالف السلم - أن يُمنع المظلوم من استرداد حقه، أو يقال لأحد طرفي النزاع: كُفَّ عن القتال في هذه الأشهر، واسمح لعدوك أن يقضي عليك فيها. فإنها بهذه الصورة ستكون أشهر العدوان، لا أشهر الحرم.

وهكذا فإن مبدأ الأشهر الحرم هو مبدأ المسلمين الدائم حتى يثبت عدم إيمان العدو به، لذلك ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ فكما لا حرمة لدم القاتل ظلماً وعدواناً لهدره حرمة دم المقتول، كذلك لا يمكن التزام حرمة شهر لا يرى العدو حرمة له. ولذلك ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ دون أن تتجاوزوا حدّ القصاص العادل، أو تشتط بكم نزعة الانتقام إلى حدود الظلم ﴿واتقوا الله﴾ فإن الشر لا يعالج بالشر ﴿واعلموا

أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾. وتأكّدوا من سلامة مواقفكم، وخلوها من الشرِّ والعدوان. ويبقى الإسلام يوالي تأكيداتَه على المسلمين لكي يبقوا قاعدة للأمن والسلم في الأرض. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ (٣).
لأنَّ مبدأ الأشهر الحرم نابع من قيمة هذا الدين على الناس، وهميته على شؤونهم، وصلاحيته لقيادة حياتهم (٤). قال تعالى:
﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (٥).
وبما أن هذا المبدأ لا تكمن أهميته في نفسه فقط، كقانون دولي. وإنما مرتبط بفريضة الحج التي تمنحه الفاعلية والقدرة على التأثير من خلال المحتوى الروحي والعرفاني لهذه الفريضة. لذلك فقد شنَّ القرآن الكريم حملة شعواء على المشركين لتصرفهم في الحكم الشرعي من خلال النسيء، الذي كانوا يقومون به، إذ كانوا يستبيحون حرمة أحد الأشهر الحرم، ويعوضون عن ذلك بإسباغ الحرمة على شهر آخر يختارونه، فلا يقاتلون فيه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْرِمُونَهُ عَامًا...﴾ (٦).

وما أحرى العالم في هذا اليوم أن يتمثل خطي الإسلام، ويجعل مبدأ الأشهر الحرم قاعدة من قواعد الحياة الدولية فيه، لكي ينعم بالسلم في ثلث حياته، ويوفر على نفسه الإمكانيات الجيدة لمعالجة قضايا السلم في الثلثين الآخرين منها.

ثانياً: البعد المكاني:

وترتبط فريضة الحج كذلك بمكان خاص يتّصف بالحرمة والقداسة، وهو



الحرم المكي الذي جعلته السماء منطقة آمنة منزوعة السلاح، ومعزولة عن الحروب. قال تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾^(٧) فهو قطعة أمن وأمان، لا أنه مكان يتصف بالأمن والأمان فحسب. وهذا من أبلغ التعبير وأدقه. قال تعالى:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بِّينَاتٍ مِّمَّا مَكَانَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٨).

وقد انعكست عليه صفة الأمن نتيجة لعلاقته بالتوحيد، وكونه عاصمته ومركزه في الأرض. وإذا كان البعد الزماني محدداً من جهة الزمان، ومطلقاً من جهة المكان، فإن البعد المكاني بعكسه محدد من جهة المكان، ومطلق من جهة الزمان. فحرمة الحرم المكي خاصة بأرض معينة، ولكنها ليست خاصة بزمان معين. ويلتقي البعدان عند حلول الأشهر الحرم في الحرم المكي لتؤكد حرمة القتال، وتتعزيز الحاجة إلى السلم، وتأتي فريضة الحج لتزيدهما حرمة وتأكيد السلم، ولبيلغ الشعور السلمي في المجتمع المسلم ذروته وأوجه. ويفترق البعدان بعد ذلك في الباقي من أشهر السنة، حيث يجوز القتال في كل أرض. وفي الباقي من الكرة الأرضية حيث يجوز القتال في كل وقت.

وللعلة نفسها التي ذكرت سابقاً في البعد الزماني، نجد أن الإسلام لم يجعل حرمة القتال في الحرم المكي بصورة مطلقة، فاستثنى القتال الدفاعي. وهذا الاستثناء يجسد الكمال في نظرية السلم والأمن في الإسلام، لأن التحريم المطلق للقتال في الحرم المكي، يعني فسخ المجال لظهور فرص واسعة من العدوان والظلم. وهذا ما يتنافى مع مبدأ الحرم المكي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾^(٩).

وهذا يعني أن مبدأ الحرم المكي يمثل دعوة إسلامية لقيام نظام عالمي، تتبادل فيه الأطراف الدولية الاحترام لمبدأ الحرم المكي من جهة، ولقيام مجتمع

إسلامي يقوم بدور القدوة الحسنة في هذا المجال من جهة ثانية.

وقد كان لهذه الدعوة أثر بالغ في الحياة الاجتماعية للمسلمين. فقد كان المرء يرى قاتل أبيه، أو أخيه في الحرم المكي فلا يتخذ ضده إجراءً، مع شدة التزام العرب تقاليد الثأر. وهذا ما يمكن عدّه دليلاً على إمكان أن يلعب مبدأ الحرم المكي دوراً مماثلاً على صعيد الأمن والسلم في العالم.

ولتأكيد الأهمية الأمنية لمكة المكرمة، عدّ القرآن الكريم كلّ لون من ألوان الظلم في مكة إلحاداً، وعدّ أيضاً أهمّ بذلك الظلم بمثابة القيام به من حيث استحقاق العقوبة عليه، بينما لم يأخذ بهذه الدرجة من الشدّة في البقاع الأخرى من العالم. وذلك ما يحمل دلائل واضحة على ضرورة عدم الاكتفاء بمرحلة سلم الجوارح، بل لابدّ من أن يكون المسلم في مركز التوحيد، وقد وصلت عنده المشاعر السلمية والأمنيّة درجة من النضج بحيث تستولي على قلبه أيضاً، وتمنعه من أن يخطر عليه أهمّ بالظلم والرغبة فيه.

فإذا كان المسلم في باقي الأرض هو من سلم الناس من يده ولسانه، فإنّ المسلم حينما يكون في مكة المكرمة يطلب منه أن يسلم الناس من يده ولسانه وقلبه، وأن يبلغ مرحلة سلم الجوارح والجوانح؛ لأنّ النزوع نحو السلم يجب أن يتناسب مع درجة التوحيد التي يصل إليها المؤمن. ولما كان المطلوب من المسلم أن يكون في مكة قد وصل إلى ذروة ما يمكنه الوصول إليه من التوحيد، فلا بدّ من أن يكون نزوعه السلمي قد بلغ أوجه أيضاً. وهذه هي المعادلة التي جعلت الحرم المكي يمتاز على باقي بقاع الأرض بهذه الأبعاد السلمية المركزة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْدِ فِيهِ بِظُلْمٍ بِالْحَادِ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١٠).

قال ابن مسعود: ما من بلد يؤخذ العبد فيه بالهمة قبل العمل إلا مكة.

وتلا هذه الآية ... ونسب إلى الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله:



«كلّ ظلم إلحاد، وضرب الخادم في غير ذنب من ذلك الإلحاد»^(١١).
وقال عليه السلام: «كلّ ظلم يظلمه الرجل نفسه بمكة من سرقة أو ظلم أحد أو شيء من الظلم، فإنّي أراه إلحاداً، ولذلك كان يتّقي الفقهاء أن يسكنوا مكة»^(١٢)
وقد سار العرب قبل الإسلام على تقديس مكة واحترامها، ومنع وقوع القتال فيها، وكان شاعرهم يقول:

إنّ الفضول تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يقرّ بطن مكة ظالم
ولم يكن لبيوت المكيين مصاريع بفضل الأمن الذي كان تنعم به مكة،
والتزام المكيين واجب الضيافة تجاه الوافدين عليهم من الأقطار الأخرى.
إنّ عناية الإسلام بمنطقة معيّنة من العالم، وتحريمها عسكرياً، وعزلها عن السلاح، ثمّ ربط الحج كفريضة ذات مضمون سلمي بها، حيث تفد عليها سنوياً جموع هائلة من الحجيج، ومن ورائهم قلوب المسلمين كافة، تتطلع إلى هذه المنطقة روحياً وترتبط بها معنوياً في أيام الحج. تعكس مستوى الرقي في هذا الدين، ومدى اهتمامه بالسلم والطبيعة العملية لما يتّخذ من إجراءات في هذه المضمار.

فإذا كانت الأرض كلّها مفتوحة أمام الحروب والنزاعات التي تمزق المجتمع الإنساني، فلماذا لا تعزل من الكرة الأرضية منطقة تعدّ منزوعة السلاح، يحرم فيها القتال والعدوان؟ وإذا كانت أيام السنة كلّها يمكن القتال فيها، فلماذا لا نعزل منها أربعة أشهر حرم تكون فرصة أمام الطرفين للتثبت من براءتهم فيما يتّخذونه من مواقف قتالية؟ ثم يلتقي الزمان الحرام بالمكان الحرام في فريضة الحج التي تزيدها حرمة، وتجعل الشعور السلمي يصل ذروته، وتحول مكة إلى مركز لبث الروح السلمية في العالم، وخلع النزعة العدوانية عنه. وما أحوج البشرية في هذا الزمان - وفي كلّ زمان - إلى بقعة من الأرض تتخذها مركزاً لحلّ

الصراعات الدولية المختلفة.

وإذا كان الغرب قد اتخذ من جنيف مركزاً لعقد المؤتمرات الخاصة بالسلم والأمن، وفُضِّ النزاعات الدولية واتَّخذ القرارات والمواقف اللازمة لدعم الأمن العالمي، فإنَّ الإسلام قد سبق الغرب في هذا المجال. بل إنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام - الذي رفع القواعد من البيت، وطلب من الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل مكة بلداً آمناً قبل أربعة آلاف سنة - يعدُّ المؤسس الأوَّل لهذه الفكرة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (١٣).

على أنَّ اختيار الإسلام لمكة أرجح بكثير من اختيار الغرب لجنيف، فإنَّ القانون وحده لم يكن - يوماً - كافياً لحلَّ مشكلة من المشاكل الإنسانية، فكيف إذا كانت هذه المشكلة هي مشكلة الأمن العالمي، التي ليست هناك مشكلة أعقد منها في دنيا السياسة؟ فلا مناص، إذن، من وجود قاعدة روحية أخلاقية تملأ الحياة الإنسانية بإشعاعاتها الإيجابية لأي حلٍّ قانوني يفترض، لتعمل بشكل إيجابي يخدم قضية السلم العالمي، إمَّا في عمق وجدان أهل الحلِّ والعقد من أطراف الصراع، وإمَّا في وجدان الجماهير التابعة لهم؛ لتكون قوَّة سياسية ضاغطة عليهم بهذا الاتجاه. وليس هناك من يضمن وجود هذه القاعدة الروحية الأخلاقية غير الإسلام، كما أنه ليس في دنيا الإسلام مدينة يمكنها أن تستثير المشاعر الروحية والأخلاقية، وتجعلها فؤارة متدفقة ومؤثرة، كمكة، مركز التوحيد، وموطن الكعبة، التي خلقها الله - سبحانه وتعالى - أولاً ثمَّ مدَّ الأرض من حولها، والتي كان آدم قد أتى إليها ألف مرَّة على قدميه، والتي اختارها الله من الأرض، فهي خيرته من أرضه، ويقوم الدين ما قامت، والتي حجت الملائكة إليها قبل آدم بألفي عام، كما في الأخبار عن أهل البيت عليه السلام (١٤).



هذا من جهة. ومن جهة ثانية فإن فريضة الحج ترتبط بمكة دون سواها، وهذا ما يمنحها درجة إضافية من التقديس والاحترام الذي يكتسبها لها مليار مسلم - أي خمس البشرية المعاصرة - ولا توجد مدينة أخرى في الأرض يمكنها أن تستنفر هذا القدر الكبير من المشاعر الإنسانية الصادقة، وتجذب حولها قلوب هذا العدد من الناس. أضف الى ذلك أن مكة تقع في منطقة كانت منطلقاً للتأريخ الإنساني برمته، ومحطة لأعقد صراعات العالم، وهي منطقة الشرق الأوسط. وكل ذلك من شأنه أن يجعل مكة مركزاً مهماً في الحياة الدولية.

قال تعالى:

﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام...﴾ (١٥).

فبالكعبة والشهر الحرام - أي بالبعد الزماني والبعد المكاني من الحج - قوام الحياة الإنسانية وسندها؛ لأنهما يعطيان الإنسان التوحيد حتى يستقيم عقله، والأمن حتى يهنأ عيشه.

ثالثاً: البعد التوحيدي العرفاني:

إن البعد التوحيدي والعرفاني هو البعد الأرسخ في الحج. إذ ليس الحج في الجانب الأوضح منه إلا كتلة متماسكة من الممارسات والشعائر، التي تكرر عقيدة التوحيد في شخصية المسلم؛ فالطواف، والسعي، ورمي الجمار، وغير ذلك من واجبات الحج وشعائره. كل ذات مفهوم توحيد خالص، الغرض منها تركيز الحس التوحيدي عند الإنسان المسلم.

وقد عرفنا فيما سبق أن التوحيد عقيدة ذات مضمون سلمي؛ لأنها تزرع السلم حقيقة في داخل الإنسان، وتشيعه نهجاً في حياته الاجتماعية، لذلك كان السلام اسماً من أسماء الله، واسماً من أسماء الجنة، وشعاراً للمؤمنين في دار الدنيا

ودار الآخرة. كما أنَّه الشعار الذي يهتف به المسلم من أعماقه في كلِّ يوم خمس مرَّات في خاتمة صلواته الخمس، حيث يسلم أولاً على النبيِّ قائلًا: السلام عليك أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، ليؤكد بقاءه مؤمناً بهذا النبيِّ، ولن يكون محارباً له، ويسلم ثانياً على نفسه، وعلى المؤمنين، فيقول: السَّلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فالسلام الاجتماعي يبدأ من السلام الداخلي للإنسان. ثمَّ يؤكد السلام العام مرَّةً ثالثة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولقد كان الحج فريضة بدأ تشريعها منذ النبوة الإبراهيمية التي وظفت بشكل خاص لإرساء قواعد التوحيد وترسيخها في الأرض، ولم تشغل بقضية أخرى كانتغالها بهذه القضية. والأديان التوحيدية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام إنما تنهل من انجازات تلك النبوة المباركة التي كان لها الفضل المشهود على كلِّ موحد.

وإذا كانت تلك النبوة قد ربطت بين التوحيد والحج من جهة، فإنَّها ربطت من جهة أخرى بين التوحيد والأمن. فقد نقل القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام دعاءه إلى الله - سبحانه - قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (١٦).

وهكذا فإنَّ الحرم المكي يمثل الرمز المشترك لكلِّ من التوحيد والأمن. وفي إحدى الروايات نجد تفسيراً رائعاً للعلاقة بين إحدى الشعائر التوحيدية في الحج والأمن. قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من بقعة أحبَّ إلى الله - عزَّ وجلَّ - من السعي؛ لأنَّه يذلُّ فيه كلَّ جبار عنيد» وقال عليه السلام: «جعل السعي بين الصفا والمروة مذلةً للجبارين» (١٧).

فإنَّ هذه الشعيرة التي تكرر العبودية المطلقة لله - سبحانه وتعالى - والخضوع له. تلغي ذلك المحور (الطغيان والتجبر) أيضاً؛ لأنَّ السعي مذلة للطغاة



والجبايرة، ووسيلة لمعالجة الطغيان عند الحكام، ذلك المرض الذي يهدد الأمن والسلام في المجتمع، ويسلمه إلى العنف والدمار.

رابعاً: البعد العبادي الأول:

ويتمثل بمجموعة من محرمات الإحرام وهي:

- ١- الجدال.
 - ٢- الفسوق. بما يشمل أسباب المفاخرة والكذب، وهو أخطر من الجدال.
 - ٣- إزالة الشعر.
 - ٤- قلم الأظفار كلاً أو بعضاً.
 - ٥- قلع الضرس ولو لم يدم.
 - ٦- قلع الشجر والحشيش النابتين في الحرم، وقطعهما.
 - ٧- قتل هوام الجسد (القمل والبرغوث ونحوهما) وكذا هوام جسد الحيوانات.
 - ٨- صيد البر اصطياداً وأكلاً... والطيور حتى الجراد بحكم الصيد البري.
 - ٩- لبس السلاح إلا لضرورة^(١٨).
- ويمثل المحرم الأول والثاني وسيلة وقائية وظيفتها الحيلولة دون حصول البغضاء والشحناء في مجتمع الحجيج، الذي يراد منه أن يكون قدوة في المحبة والوئام، ولمنع ظهور أي سبب أو مقدمة يمكن أن تؤدي إلى الإخلال بالأمن الاجتماعي.

والمحرم الثالث والرابع والخامس: كلّ منها يمثل وسيلة تربية تمنع الإنسان من الإضرار بما تشبه الكائن الحي. فإنّ الشعر والأظفار والأضراس أجزاء مميّنة من الإنسان، لكنها تشبه الكائن الحيّ من جهة النمو، ولأجل هذا الشبه بالحياة،

والاقتراب من إحدى صورها المقدسة كان لابد للحاج من أن يحترز من التعرض لها.

المحرّم السادس: يمثل البدء بتحريم التعرّض للحياة، فالنبات بصورة عامة يمثل الصورة الأولى للحياة. فالتعرّض لهذه الصورة لا يتناسب مع المفهوم السلمي للحج ولمبدأ حرمة الحرم المكي.

المحرّم السابع: يعني تحريم التعرّض لحياة أكثر ظهوراً من حياة النبات وهو حياة هوام الجسد. فالحاج ينبغي له احترام هذه الحياة وإن كانت تعدّ صوراً بدائية من الحياة. بل وإن كان الحاج يعدّها صوراً من الحياة مضرّة بالإنسان. فالحاج عليه أن يحافظ على تقديسه لها تمسكاً بمبدأ تقديس أصل الحياة. وليس من شك أنه سيتلقى من وراء هذا التمسك دروساً أخلاقية رائعة تعلّمه كيف ينبغي له أن يتعايش مع الكائن الحي الذي يلتقي معه بمصلحة معيّنة، بل مع الكائن الحي الذي لا أهمية لحياته وهو مضرّ به. وكيف ينبغي عليه أن لا يفكر في التخلص منه. بل يفكر في وسائل التعايش معه ليعكس ذلك على حياته الاجتماعية، التي تمتلئ بصور كثيرة من العلاقات، التي تتسم بالتنافر وعدم الانسجام، والتي يسرع الإنسان فيها عادة إلى التفكير في وسائل للتخلص من الطرف المقابل له. فالمحرّم السادس يعلمه أن هذا سلوك خاطئ، وأن السلوك الصحيح هو عدم الردّ بالمثل والتمسك بالصفح والصبر والتجمل بدلاً عن ذلك، فإذا كان الحاج لا يملك الحقّ في أن يلحق الضرر بحياة هوام الجسد فالأولى أن لا يلحق الضرر بحياة أخيه الإنسان. وإذا كان إيذاء هوام الجسد بالإنسان لا يبرّر الإضرار بها، فالأولى أن لا يبرّر الاختلاف بين بني الإنسان الميل نحو الإضرار المتقابل فيما بينهم.

ويمثل المحرّم الثامن تحريماً لصور أخرى من الحياة أكثر ظهوراً واحتراماً



من الصور السابقة. ويبقى المحرّم التاسع الواضح في مغزاه المباشر. فإنّ في لبس السلاح تهديداً لأمن الحرم، وذلك مخالف لمبدأ الأشهر الحرم، ومبدأ الحرم المكي، والمضمون السلمي لفريضة الحج.

ومن الملاحظ أنّ محرّمات الإحرام تشتمل على تحريم الوسائل المباشرة، وغير المباشرة المؤدية إلى زعزعة الأمن. ولا تشتمل على تحريم الاعتداء نفسه على حياة الإنسان. فكيف دخلت مقدّمات الاعتداء حتّى البعيدة منها في دائرة المحرّمات؟ بل كيف حولت هذه المحرّمات قسماً من مقدّمات السلام البعيدة إلى واجبات هامّة، بينما لم تُدخل في عدادها المقدّمة الكبرى لزعزعة الأمن وهي الاعتداء نفسه؟

والواقع أنّ تحريم مقدّمات الشيء ناشئ من التشدّد في تحريم الشيء نفسه وهو نوع تأكيد. وربما كان عدم اشتغال المحرّمات على تحريم الاعتداء نفسه إشارة إلى كفاية تحريم المقدمات في الدلالة على تحريم أصل الاعتداء، بل إشارة إلى عدم الحاجة إلى ذكر تحريم أصل الاعتداء، فإنّ تحريم المقدمات من شأنه أن يمنع ظهور حالات الاعتداء. وإلا فإنّ الشريعة الإسلامية لا يوجد من هو أكثر منها يؤكّد حرمة الاعتداء على حياة الإنسان، خصوصاً حينما يكون هذا الاعتداء في أشهر الحرم، أو في الحرم المكي. فقد ذكر الفقهاء أن القتل في الزمان والمكان المذكورين موجب لتغليظ الدية فتكون دية وثلاث الدية. بل لو رمى وهو في الحلّ بسهم ونحوه إلى من هو في الحرم فقتله فيه، لزمه التغليظ أيضاً^(١٩).

خامساً: البعد العبادي الثاني:

ويتمثل بلباس الإحرام، الذي يرتديه الحاج، بعد أن يخلع ثيابه العادية ضمن عملية واضحة الأهداف والدلالات. فالحجّ وظيفة ذات أبعاد عالمية

تتكامل مع مشروع عالمية الإسلام الذي يستوعب العقيدة والشريعة الإسلامية. ويتخذ من الحج مرتكزاً فعالاً، ووسيلة مهمة من وسائله التطبيقية؛ لأنه ممارسة روحية يقدم عليها المسلم بكل قلبه ومشاعره، وبطوع اختياره، تبدأ بتقطيع كل أشكال العلاقات العنصرية، التي تربطه مع الأهل والعشيرة والوطن، وتنتهي بالتلبس بعلاقات توحيدية عالمية خالصة. فأول عمل يقوم به الحاج: هو توديع الأهل والأقارب والعشيرة والوطن، متّجهاً إلى حياة تخيم عليها الروح العالمية الخالصة، فلا أبناء ولا وطن ولا لغة قومية ولا زبي قومياً في الحج. وإنما علاقات إنسانية هي علاقة التوحيد، ووطن عالمي سواء فيه العاكف والباد، وهو مكة. ولغة عالمية هي اللغة العربية. وزبي عالمي هو الإحرام، الذي تتساوى فيه الطبقات الاجتماعية المختلفة، وتُحمى عنده الفوارق العنصرية، ومحور موحد تطوف حوله وفود الحجيج وهو الكعبة، التي يرمز الطواف حولها إلى بلوغ المؤمن نهاية القرب من الله - سبحانه وتعالى - الذي تتقطع عنده أسباب الدنيا، وعلاقات الأرض العنصرية، وتتكامل على انقاضها العلاقات الروحية. يقول هاملتون جب [إنّ شعيرة الحجّ تُعدّ عاملاً قوياً في تطبيق مبدأ توحيد العالم، فهي رمز للأخاء الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض، دون تفرقة لونية أو عنصرية] (٢٠).

ويتحدّث الدكتور حسين مؤنس عن العناصر التي ربطت العالم الإسلامي مع بعضه البعض، وجمعت بينها في العصور الإسلامية الأولى. ويذكر الطلاب والعلماء والتجار والملاحين، ويذكر الحاجّ من ضمنهم، وهم الذين يسمون بأهل الرحلة، الذين عمقوا مفهوم الوحدة لدى الناس فيقول:

[فأمّا الحاج فقد كانت قوافلهم تشقّ أرجاء ذلك العالم الإسلامي في مسيرة دائمة لا تتوقف، ولا تبالي بالعقبات الطبيعية من جبال وصحاري وبحار،



ولا تتراخى بسبب أخطار الحروب والقتل والفتن، فقد كان حجاج بيت الله الحرام من الأندلس والمغرب والسودان والصين والملايو يخرجون في رحلة الحج قبل مواعده بعام أو أكثر أو أقل، ومعنى هذا: أنه في كل وقت تقريباً كانت هناك قوافل حجاج تقصد بيت الله الحرام، أو تعود منه، أوفاً بعد ألوف من الناس، يخرجون من أطراف الأرض الأربعة، ووجهتهم بيت الله الأكرم، وهم في مرورهم بالمدن والواحات يذكرون الناس بوحدة الدين، التي تجمع بعضهم إلى بعض. والكثيرون منهم كانوا يستقرون بعد الحج أينما شاءوا من بلاد الإسلام، فكان قوافل الحج كانت أسلحة محارث قوية تشق الأرض الإسلامية، وتقلب تربتها، وتأذن لشمس العقيدة في أن تتخللها في عمق، وتبعث فيها الحياة. وهذا، ولا شك، كان في تقدير الخالق - سبحانه - حينما فرض على أمة الإسلام الحج إلى بيته الحرام... [٢١].

وليس من شك أن الدور العالمي الذي يلعبه الحج في المجتمع الإسلامي دورٌ سلمي وقائي، يحمي المجتمع من أخطار التمزق العنصري، التي لم يكن في التأريخ ما هو أشدّ منها خطراً على قضية السلم والأمن في العالم. فالحج من هذه الجهة نوع من التربية الروحية، والفكرية المركزة والعميقة في الاتجاه العالمي للإسلام...

الهوامش :

- (١) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني ٢: ١٤٥.
- (٢) البقرة: ١٩٤.
- (٣) المائدة: ١٢.
- (٤) الميزان في تفسير القرآن ٩: ٢٦٨.
- (٥) التوبة: ٣٦.
- (٦) التوبة: ٣٧.
- (٧) البقرة: ١٢٥.
- (٨) آل عمران: ٩٧.
- (٩) البقرة: ١٩١.
- (١٠) الحج: ٢٥.
- (١١) المحجة البيضاء ٢: ١٥٥.
- (١٢) المصدر نفسه ٢: ١٥٦.
- (١٣) إبراهيم: ٣٥.
- (١٤) المحجة البيضاء ٢: ١٥٢-١٥٣.
- (١٥) المائدة: ٩٧.
- (١٦) إبراهيم: ٣٥.
- (١٧) وسائل الشيعة ٩: ٥٥.
- (١٨) تحرير الوسيلة، الإمام الخميني ٢: ٤٠٣.
- (١٩) المصدر نفسه: ٥٥٨.
- (٢٠) الإسلام والعالم المعاصر، أنور الجندي: ص ٢٦١.
- (٢١) عالم الإسلام، د. حسين مؤنس: ص ٢٩١.

الاعتداء على حرمة البيت وأمنه محمد رضا باقر صادق

مقدمة:

وإذا كانت الكعبة قيد تعرّضت لأذى من بعض الديانات المخالفة، فإنها قد تعرّضت لفظائع ممن يدّعون الإسلام مثل يزيد وأمثال يزيد. ومرجع تهديم الكعبة وتقويضها، والاعتداء على حرمتها، يعود إلى التعصّب الجاهلي، والانحلال من قيود الدين والشريعة، وإلى الانحلال الخلقي كالتجاهر بالفسق والفجور والميوعة والفساد المتمثل في مجموعة لا تعرف من الحياة إلا الاستهتار والخلاعة والمجون. ومنذ عهد الإسلام حتّى يومنا هذا اجتاحت الكعبة كوارث إلحادية عارمة منبعثة عن الأهواء والمطامع الشخصية، قوّضت الكعبة على أثرها، وانهارت وتهدّمت وانتهكت حرمتها، وفيما يلي نورد بعض هذه الأحداث.

محنة البيت أيام يزيد:

١ - جاء في كتاب الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتّى اليوم لمؤلفه «أحمد عبد الغفور عطار» ما نصّه:

«وفي سنة ٦٣ و ٦٤ من الهجرة تعرّضت المدينتان المقدّستان، والحرم الشريفيان، وبيت الله، وحرم رسوله لكارثة غاية في البشاعة والنكر، فقد أرسل يزيد بن معاوية جيشاً من أهل الشام إلى المدينة مهاجر رسول الله ﷺ وأمر يزيد قائد جنده مسلم بن عقبة المرّي أن يذيق أهل المدينة، وأهل مكة كلّ ضروب الشرّ الذي لا شرّ مثله. ولم يكتفِ يزيد بقتل سيدنا الحسين وآل بيت محمد ﷺ حتّى ثنى ببلد رسول الله فأباحها لجند الشام ثلاثة أيام يفعلون من المنكر ما لا يجوز فعله ببلاد الكفر، وقتل جند الشام من الصحابة والتابعين وأولادهم وأطفالهم ونساءهم آلافاً مؤلّفة، وبلغ من كفر المرّي قائد جند يزيد أن سمّى المدينة «تننة» نكايةً بمن سماها «طيبة» وما سماها طيبة غير نبي الهدى، وأجبر أهل المدينة بالسيف على أن يبايعوا على أنهم عبيد ليزيد، فإن لم يبايعوا قتلهم، ورسول الله ﷺ يقول: من أخاف المدينة أخافه الله. ويقول - عليه الصلاة والسلام -: من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء.

ولما انتهى المري من الشر الذي صبه على المدينة وأهلها اتّجه مع جيش الشام إلى مكة، وفي الطريق هلك المري اللعين فتولّى القيادة الحصين بن نمير وكلّهم مثل بعض في الكفر والفسوق»^(١).

٢- ومما جاء في كتاب «تاريخ الخلفاء» للحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية في الحديث عن يزيد، وما فعل بالكعبة ما نصّه: «وفي سنة ثلاث وستين، بلغه أنّ أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه، فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً، وأمرهم بقتالهم، ثمّ المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير فجاءوا، وكانت وقعة الحرّة على باب طيبة، وما أدراك ما وقعة الحرّة؟ ذكرها الحسن مرّة فقال: والله ما كاد ينجو منهم أحد، قُتل فيها خلق كثير من الصحابة



- رضي الله عنهم - ومن غيرهم، ونهبت المدينة، وأفتضّ فيها ألف عذراء، فإنّا لله وإنا إليه راجعون! قال ﷺ: من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. رواه مسلم.

وكان سبب خلع أهل المدينة له أنّ يزيد أسرف في المعاصي. وأخرج الواقدي من طرق: أنّ عبد الله بن حنظلة بن الغسيل قال: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن يُرمى بالحجارة من السماء! إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات، ويشرب الخمر ويدع الصلاة»^(٢).

هذا هو يزيد الذي يسميه البعض أمير المؤمنين...! وهذه هي أعماله قتل وانتهاك لأعراض الناس، وفسق وفجور واستهتار بالقيم، وخمرٌ وفساد. وأما قتله للحسين فتلك مصيبة أبكت حتى الحجر والسماء... فمما جاء في المصدر نفسه ما نصّه:

«ولما قتل الحسين مكثت الدنيا سبعة أيام والشمس على الحيطان كالملاحف المعصفرة، والكواكب يضرب بعضها بعضاً، وكان قتله يوم عاشوراء، وكسفت الشمس ذلك اليوم، وأحمرّت آفاق السماء ستة أشهر بعد قتله، ثم لا زالت الحمرة تُرى فيها بعد ذلك ولم تكن تُرى فيها قبله»^(٣).

فهل بعد هذا يبقى شك لذي عينين من فسوق يزيد وفجوره وكفره؟ وقد أضاف السيوطي إلى حديثه ما هو أعجب وأغرب وأنكى للقلب فقال: «وقيل إنه لم يُقلب حجر بيت المقدس يومئذٍ إلا وجد تحته دمٌ عبيط، وصار الوزُّ الذي في عسكرهم رماداً، ونحروا ناقهً في عسكرهم فكانوا يرون في لحمها مثل النيران، وطبخوها فصارت مثل العلقم، وتكلم رجل في الحسين بكلمة فرماه الله بكوكبين من السماء فطمس بصره»^(٤).

«وأخرج الترمذي عن سلمى قال: دخلت على أمّ سلمة - وهي تبكي -

فقلتُ: ما يبكيك؟ قالت: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: شهدت قتل الحسين آنفاً. وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ بنصف النهار أشعث أغبر، وبيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم، فأحصى ذلك اليوم فوجده قُتل يومئذٍ^(٥).

أفسد أمر الناس إثنان:

قال الحسن البصري: «أفسد أمر الناس اثنان: عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحُمِلت، ونال من القراء، فحكم الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة.

والمغيرة بن شعبة، فإنه كان عامل معاوية على الكوفة فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي، فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه، فلما ورد عليه قال: ما أبطأ بك؟ قال: أمرٌ كنت أوطؤه وأهيوه. قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك! قال: أو قد فعلت؟ قال: نعم. قال: ارجع إلى عملك. فلما خرج قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غي لا يزال فيه إلى يوم القيامة. قال الحسن: فن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شوري إلى يوم القيامة»^(٦).

والحق أقول: إنَّ مَنْ يَأْتِي إلى دَفَّةِ الحكم بهذا الشكل مثل يزيد الفاسق الفاجر... صاحب الطرب واللهو والفجور، وصاحب الكلاب والقروود والفهود والمنادمة على الشراب لا يهتبه أن يرمي الكعبة بالمجانيق وقد فعل....

٣- أما ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، فقال:



وكان مما أوصى به يزيد بن معاوية مسلماً بن عَقبة المريّ أن قال له: «إن وصلت المدينة، وظهرت عليها، فأنها ثلاثاً فكل ما فيها من مالٍ أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند»^(٧).

وبالفعل فقد «أباح مسلم المدينة ثلاثاً، يقتلون الناس، ويأخذون المتاع والأموال، فأفرغ ذلك مَنْ بها من الصحابة»^(٨).

«ودعا مسلمُ الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خَوُلُ له «أي خدم وعبيد» يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء»^(٩).

«وكانت وقعة الحرّة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين»^(١٠).
وحين أدرك الموت مسلماً هذا، كانت آخر وصاياه: «اللهم إني لم أعمل قطّ بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله عملاً أحبّ إليّ من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة»^(١١).

أما ما كان لشأن مكة فقد «رموا البيت بالمجانيق وحرّقوه بالنار»^(١٢).

٤- ومما جاء عند المؤرخ الكبير المسعودي في مروج الذهب ما يلي:

«وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود، ومنادمة على الشراب... وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعل من الفسوق. وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاحية، وأظهر الناس شرب الشراب. وكان له قرد يكتنّى بأبي قيس يُحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكاً وكان قرداً خبيثاً»^(١٣).

ولما بلغ يزيد خبر خلع أهل المدينة طاعتهم له «سير إليهم بالجيش من أهل الشام، عليهم مسلم بن عَقبة المريّ الذي أخاف المدينة ونهبها، وقتل أهلها، وبايعه أهلها على أنهم عبيدٌ ليزيد. وسماها ننتة، وقد سماها رسول الله ﷺ طيبة، وقال من أخاف المدينة أخافه الله»^(١٤).

أما تجاوزه على الكعبة وحرمتها، فانه أمر مسلم بن عقبة المري - إن أدركته المنية - أن ينصب بعده الحصين؛ ليضرب الكعبة. وكان ابن الزبير قد التجأ إليها. وقد نصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعرادات على المسجد من الجبال ... فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحروقات، وانهدمت الكعبة ...» (١٥).

«وليزيد وغيره أخبار عجيبة، ومثالب كثيرة، من شرب الخمر، وقتل ابن بنت الرسول، ولعن الوصي، وهدم البيت وأحرقه، وسفك الدماء، والفسق والفجور وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه ...» (١٦).

هدم الكعبة على يد الحجاج وعبد الملك بن مروان:

الحجاج بن يوسف الثقفي وسبب ولوعه بسفك الدماء:

ذكر المسعودي في مروج الذهب حكاية عن الحجاج قال:

«كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة، فدخل عليها في السحر، فوجدها تتخلل، فبعث إليها بطلاقها، فقالت: لم بعثت إليّ بطلاقي؟ أليس رابك مني؟ قال: نعم ... دخلتُ عليك عند السحر وأنت تتخللين، فإن كنتِ بادرتِ الغداء فأنت شرهة، وإن كنتِ بُتُّ والطعام بين أسنانك فأنت قذرة، فقالت: كل ذلك لم يكن، لكنني تخللتُ من شظايا السواك. فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي أبو الحجاج، فولدت له الحجاج بن يوسف مشوّهاً لا دبر له، فثقب عن دبره، وأبى أن يقبل ثدي أمّه أو غيرها، فأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصوّر لهم في صورة الحارث بن كلدة فقال: ما خبركم؟ فقالوا: ابنٌ ولد ليوسف من الفارعة - وكان اسمها - وقد أبى أن يقبل ثدي أمّه أو غيرها. فقال: اذبحوا جدياً



أسود وأولغوه دمه، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه، ثم اذبحوا له أسود، فأولغوا دمه، واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع. قال: ففعلوا به ذلك، فكان بعدُ لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره، هذا وكان الحجاج يُخبر عن نفسه أنَّ أكثر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره، ولا سبق إليها سواه»^(١٧).

أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في سطور:

- ١ - «بويع بعهد من أبيه في خلافة ابن الزبير فلم تصحّ خلافته»^(١٨).
- ٢ - «قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين ... وفي هذا العام هدم الحجاج الكعبة»^(١٩).
- ٣ - «دسّ على ابن عمر من طعنه بحربة مسمومة فمضى منها ومات»^(٢٠).
- ٤ - «وفي سنة أربع وسبعين سار الحجاج إلى المدينة، وأخذ يتعنّت على أهلها، ويستخفّ ببقايا من فيها من صحابة رسول الله ﷺ، وختم في أعناقهم وأيديهم يذللهم بذلك ... فإنّا لله وإنّا إليه راجعون»^(٢١).
- ٥ - «كان عبد الملك أبحر الفم»^(٢٢) وكان يُلقب بأبي الذّبان، فلما قيل: إنّ الذّباب إذا مرّ على رأس عبد الملك سقط ميتاً، بسبب شدة رائحة فمه الكريهة.
- ٦ - «كان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يجلس إلى أمّ الدرداء، فقالت له مرّة: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة، قال: إي والله، والدماء قد شربتها»^(٢٣).
- ٧ - «قال ابن أبي عائشة: أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف في حجره، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك»^(٢٤) وفي رواية أخرى قال: هذا فراق بيني وبينك.

٨- «قال العسكري: وأول خليفة بخل عبد الملك وكان يسمى «رَشَحَ الحِجَارَةَ» لبخله ويكنى «أبا الذبان» لبخره» (٢٥).

٩- «أول من نهى عن الأمر بالمعروف» (٢٦).

١٠- خطب على الناس يوماً فتهدّد وأزبد وأرعد، وفي نهاية خطبته قال: «والله، لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه، ثم نزل» (٢٧).

١١- لما حضر عبد الملك الموت دخل عليه ابنه الوليد وهو يبكي فقال عبد الملك: ما هذا أتحنُّ حنين الأمة؟ إذا أنا متّ فشمّر، وائتزر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه (٢٨).

هذا هو عبد الملك بن مروان ... قليل من كثير ... وهذا هو الحجاج سيئة من سيئاته و «لو لم يكن من مساوئ عبد الملك إلا الحجاج - وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة - رضي الله عنهم - يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يُحصى، فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختماً يزيد بذلك ذلهم - فلا رحمة الله ولا عفا عنه» (٢٩) فلو لم يكن من مساوئه إلا هذا لكفاه.

هدم عبد الملك والحجاج للكعبة:

بعد هذا التمهيد الوجيز عن حياة عبد الملك والحجاج، التي يمكن أن تكون مبرراً لهما في ضرب الكعبة، وهدمها كما يقول علماء النفس.

وقد تحدّث ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في حوادث سنة ثلاث وسبعين، وابن كثير في البداية والنهاية، والطبري في تاريخ الأمم والملوك، والفاكهي في كتابه المنتقى في أخبار أمّ القرى، والعلامة الحبر الشيخ عبد الحسين

الأميني في كتابه شهداء الفضيلة. كلُّ هؤلاء تحدّثوا عن تهديم الكعبة، والاعتداء على حرمتها بيد الطاغية الحجاج وسيده عبد الملك بن مروان ومفاد ذلك: أن عبد الملك بن مروان بعث الحجاج بن يوسف الثقفي للقبض على عبد الله بن الزبير، سنة ٧٣ هجرية، فالتقى الفريقان في الطائف، فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً، بعدها هرب ابن الزبير إلى مكة، وتحصّن فيها، فقصده الحجاج، وحاصره فيها فضيّق على أهلها، ونصب المنجنيق في أعالي جبل أبي قبيس حتى يُجبر ابن الزبير، ومن في طاعته، على التسليم والدخول في طاعة أميره عبد الملك، وبعد أن أبى ابن الزبير التسليم وقد تحصن بالبيت الحرام، جعل الحجاج ومرتزقته يرمون الكعبة، والبيت الحرام بالمنجنيق، فقتلوا خلقاً كثيراً، وحبس عنهم الطعام والماء، فكانوا يشربون من ماء زمزم، وصارت الحجارة تقع في الكعبة فتهدّم البيت بقذائف الحجاج....

حتى سقط ابن الزبير إلى الأرض، فأسرعوا إليه فقتلوه وجاءوا برأسه إلى الحجاج. بعدها صُلب ابن الزبير بعد قتله منكساً، وأرسل رأسه لعبد الملك بن مروان فطيف به في البلدان^(٣٠).

الوليد بن يزيد بن عبد الملك والبيت الحرام:

إنه ... «الخليفة الفاسق .. كان فاسقاً، شريباً للخمر، منتهكاً حرّمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه، فقتل في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجرية»^(٣١).

القرامطة والبيت المفجوع:

في سنة ٣١٧ هـ سيّر المقتدر بالله العباسي ركب الحجاج مع منصور الديلمي

فوصلوا مكة سالمين. وما إن طاب لهم المقام حتَّى وافاهم عدوُّ الله أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوهم قتلاً ذريعاً في المسجد الحرام، وفي البيت نفسه، وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الباقين في المسجد الحرام بلا غسلٍ وكفن. ثم ضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره واقتلعه، وأقام بمكة أحد عشر يوماً، ثم رحل مع أصحابه إلى هجر، وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين عاماً، وقيل: إنه لما أخذ الحجر الأسود هلك تحته أربعون رجلاً من مكة إلى هجر، فلما أُعيد حُمِلَ على قعودٍ هزيلٍ فسمِنَ. قال محمد بن الربيع بن سليمان: كنتُ بمكة سنة القرامطة، فصعد رجلٌ لقلع الميزاب، وأنا أراه، فعيل صبري، وقلت: يا ربِّ ما أحلمك! فسقط الرجل على دماغه فمات. وقال أبو الفدا: وانتهب القرمطي أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها، والمسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً. وجلس أميرهم أبو طاهر - لعنه الله - على باب الكعبة والرجال تُصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام في يوم التروية الذي هو أشرف الأيام وهو يقول:

أنا الله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرّون منه فيتعلّقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً بل يُقتلون.

ودخل رجلٌ من القرامطة إلى حاشية الطواف، وهو راكب سكران قبال فرسه عند البيت، ثم ضرب الحجر بدبوس فكسره، ثم اقتلعه، وألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحاداً لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه. والذي حملهم على ذلك شدة كفرهم وغلوّ زندقته. وكانت إقامة القرمطي بمكة أحد عشر يوماً، فلما عاد القرمطي إلى بلاده رماه الله - تعالى - في جسده، حتَّى طال عذابه، وتقطّعت



أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها، وتناثر الدود من لحمه (٣٢).
نكتفي بهذا القدر من الجرائم والمذابح الدامية التي راح ضحيتها الآلاف،
والاعتداءات على الأماكن المقدسة، وعلى الكعبة المعظمة بالخصوص، وانتهاك
حرمتها.

الهوامش :

- (١) الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم، أحمد عبد الغفور عطار، مطابع مكة المكرمة ١٣٩٧ هـ. الطبعة الأولى: ص ١١٠.
- (٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ: ص ١٦٦-١٦٧.
- (٣) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ: ص ١٦٥.
- (٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٦٥.
- (٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٦٦.
- (٦) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٦٤.
- (٧) الكامل في التاريخ، ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ: ٤٥٦ حوادث سنة ٦٣ هـ.
- (٨) الكامل في التاريخ: ٤٥٩ حوادث سنة ٦٣ هـ.
- (٩) الكامل في التاريخ: ٤٦٠ حوادث سنة ٦٣ هـ.
- (١٠) الكامل في التاريخ: ٤٦١ حوادث سنة ٦٣ هـ.
- (١١) الكامل في التاريخ: ٤٦٣ حوادث سنة ٦٣ هـ.
- (١٢) الكامل في التاريخ: ٤٦٤ حوادث سنة ٦٣ هـ.
- (١٣) مروج الذهب، علي بن الحسين بن علي المسعودي، المتوفى سنة ٣٤٦: ٣: ٦٧.
- (١٤) مروج الذهب، المسعودي ٣: ٦٩.
- (١٥) مروج الذهب، المسعودي ٣: ٧١.
- (١٦) مروج الذهب، المسعودي ٣: ٧٢.
- (١٧) مروج الذهب، المسعودي ٣: ١٢٥.
- (١٨) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي: ١٧١.
- (١٩) المصدر نفسه.
- (٢٠) المصدر نفسه.
- (٢١) المصدر نفسه.
- (٢٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي: ١٧٢.
- (٢٣) المصدر نفسه.

- (٢٤) تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي : ١٧٤ .
- (٢٥) المصدر نفسه .
- (٢٦) المصدر نفسه .
- (٢٧) تاريخ الخلفاء ، السيوطي : ١٧٥ .
- (٢٨) تاريخ الخلفاء ، السيوطي : ١٧٦ .
- (٢٩) المصدر نفسه .
- (٣٠) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ٤ : ١٢١ - ١٢٦ حوادث سنة ٧٣ هـ - البداية والنهاية ، ابن كثير ٨ : ٣٢٩ - المنتقى في أخبار أم القرى ، محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المتوفى ٢٧٢ ، ص ١٧٠ - شهداء الفضيلة ، العلامة الحبر الشيخ عبد الحسيني الأميني : ص ١٩٣ .
- (٣١) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٢٠١ .
- (٣٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ٧ : ٥٣ - ٥٤ حوادث سنة ٣١٧ هـ - تاريخ الخلفاء ، السيوطي : ٣٠٧ - البداية والنهاية ، ابن كثير ١١ : ١٦٠ - شهداء الفضيلة ، العلامة الأميني : ١٩٤ - معجم البلدان ، ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، ٢ : ٢٢٤ - دائرة المعارف ، فريد وجدي ٧ : ٧١٣ - الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، محمد بن أحمد بن محمد النهرواني المتوفى سنة ٩٩٠ هـ ، ص ١٦٣ - ١٦٦ .

القبلة والطواف

محمد مهدي الآصفي

قيمة الكعبة:

شَرَّفَ الله «الكعبة» وجعلها مشابةً للناس يشوبون إليها، ويجمعون حولها، ويجدون عندها الأمن الذي يفتقدونه في حياتهم، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَشَابَهُ لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...﴾^(١).

وهي بيت الله شَرَّفَهَا الله - تعالى - وخصَّها لنفسه، وجعلها مباركةً، وهديً للعالمين.

وخصَّ الله - تعالى - الناس من بين سائر خلقه ببيته الذي أكرم به وخصَّه بنفسه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ

● فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومَن دخله كان آمناً...﴾^(٢).

وجعل الله الكعبة قياماً للناس، تقوِّم علاقتهم بالله وحركتهم وكدهم

إليه، وتقوّم معاشهم ومعادهم، ودنياهم وآخرتهم، وتنظّم علاقتهم بالله - تعالى - وبأنفسهم. ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ (٣).

فضل الكعبة:

وقد خصّ الله - تعالى - الكعبة بفضلٍ عظيم، وخصّ أمير المؤمنين عليه السلام في

فضل الكعبة:

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْنَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقْلَّ تَنَائِقِ الدُّنْيَا مَدْرًا، وَأَضْيَقَ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْرًا. بَيْنَ جِبَالٍ خَشَنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِيَّةٍ، وَعُيُونٍ وَشَلَّةٍ، وَقُرَى مُتَقَطِّعَةٍ؛ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظَلْفٌ، فَصَارَ مَثَابَةً لِّلْمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِّلْمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنَدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فَجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بَحَارٍ مُتَقَطِّعَةٍ، حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِبُهُمْ ذُلًّا يَهْلُلُونَ (يهلّون) اللَّهَ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْنًا غُبْرًا لَهُ قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، آتِبَاءَ عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمَحِيصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوَصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْنَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ دَانِي الثَّمَارِ، مُلْتَفٍّ ؟؟؟؟ مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحَدَّقَةٍ، وَعَرَاضٍ مُغْدَقَةٍ، وَرِبَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا،



وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمْرَةِ خَضَرَاءَ. وَيَأْقُوتَةُ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ
لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ
الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ
الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَتَلَيَّهُمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً
لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نَفْسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً
إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلّاً لِعَفْوِهِ.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا خرجتم حجاجاً إلى بيت الله - عز وجل -
فأكثرُوا النظرَ إلى بيت الله، فإنَّ الله - عز وجل - مائة وعشرين رحمة عند بيته
الحرام، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»^(٤).
وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله، قال: «الله - تبارك وتعالى - حول
الكعبة عشرون ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون
للناظرين»^(٥).

وعن إسحاق بن عمار، قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا إسحاق من طاف بهذا
البيت طوافاً واحداً كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، أفلا أخبرك بما
هو أفضل من هذا؟ قلت: بلى. قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له
طوافاً وطوافاً حتى بلغ عشرة»^(٦).

دروس من الكعبة:

لـ (الكعبة) المشرفة توجيهاً في حياة المسلمين وهما: (القبلة) و
(الطواف).

وكلٌّ منهما يرمز إلى معنى يختلف عن المعنى الآخر، وسوف نتحدث إن شاء
الله عن كلٍّ منهما، ونبدأ بالقبلة.

١- القبلة

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (٧)

للقبلة دور مزدوج. فهي أولاً توجه المسلمين إلى الله في كلّ يوم خمس مرّات على الأقل.

وتوحّد جهة المسلمين بهذا الاتجاه ثانياً.

ولابدّ من بعض التفصيل في هذا وذاك:



الدور الأول للقبلة: تسليم الوجوه إلى الله:

استقبال الكعبة في الصلاة يرمز إلى تسليم الوجوه لله تعالى. وتسليم الوجه لله بمعنى أن يسلم الإنسان جهة حركته ومساره لله تعالى، ويعطي وجهه لله.

أنحاء التسليم:

والتسليم لله في حياة الإنسان على ثلاثة أنحاء:

١- التسليم لقضاء الله وقدره؛ بمعنى أن لا يعترض الإنسان ولا يتذمر لما يقدر الله - تعالى - له من القضاء والقدر في السراء والضراء. وفوق درجة التسليم هذه درجة (الرضا بقضاء الله وقدره) وهو من أسمى مراتب العبودية واليقين.

٢- التسليم لدين الله وحكمه وشريعته، بمعنى الطاعة والانقياد والاستسلام لأمر الله وحكمه، والالتزام بحدود الله - تعالى - بصورة دقيقة، وهو (التقوى). وهذا التسليم يختلف عن التسليم الأول، فإن التسليم هنا يتم بالانقياد الطوعي والإرادي لحكم الله تعالى وحدوده... بينما التسليم في الفقرة الأولى بمعنى عدم الاعتراض والتذمر من قضاء الله - تعالى - وقدره والرضا به. أما القضاء والقدر فينزلان على الإنسان بغير إرادته واختياره، ويقهرانه على ذلك، أراد ذلك أو لم يرد.

٣- أن يسلم الإنسان وجهه لله، بمعنى أن يجعل وجهه لله - تعالى - ومرضاه غايته في حركته، ويسعى إليه، ويكون همه تحقيق مرضاة الله، والتقرب إليه وابتغاء وجهه الكريم.

وهذا التسليم يختلف عن التسليم في الفقرة الثانية، ففي الفقرة الثانية يأتي التسليم بمعنى الطاعة، وتجنب المعصية، والعمل بالحركة ضمن حدود الله تعالى، وعدم تعدى الحدود الإلهية والاجتناب عن انتهاك حرمت الله.

بينما التسليم في الفقرة الثالثة مسألة نفسية وذهنية وهي ابتغاء وجه الله ومرضاته.

والتسليم لله بالمعنى الثالث هو رسالة القبلية، وهو أحد الدورين الذين تنهض بهما (الكعبة) في حياة الإنسان. قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ، وَمَنْ اتَّبَعَنِ...﴾^(٨). و﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾^(٩)، و﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾^(١٠)، و﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾^(١١).

وكما ليس للإنسان إلّا قلب واحد ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ﴾^(١٢) كذلك ليس للإنسان إلّا وجه واحد. وهذا الوجه إمّا أن يكون إلى الله، أو إلى جهة أخرى غير جهة الله.

وقد يتمكن الإنسان في وقت واحد أن يقوم بعملين (يمشي ويتكلّم مثلاً)، ولكن لا يمكن أن يعطي وجهه في وقت واحد إلى جهتين.

إذن معنى تسليم الوجه هو أن يكون همّ الإنسان، وغايته في حركته ومسعاها هو مرضاة الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣).

وتسليم الوجوه لله - تعالى - بهذا المعنى هو أن يضع الإنسان وجهه قبال وجه الله الكريم، ويعطي وجهه لله. وهو بمعنى الإقبال على الله في الحركة والاعراض عن غير الله.

إذن فإنّ (وجه الله الكريم) ينظم مسير الإنسان وحركته، إذا أعطاه الإنسان وجهه وسلّمه ناصيته.

وقد يعبر القرآن عن هذا المعنى بـ(إقامة الوجه للدين).



﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤).

وإقامة الوحدة للدين، بمعنى تسليم الوجوه وتوجيهها لله تعالى، فإن مهمة الدين في حياة الإنسان هو توجيه وجه الإنسان إلى الله.

الحالات الثلاث للإنسان:

وتوجيه الوجوه إلى الله هي الحالة الوحيدة للاستقامة على الصراط المستقيم في حياة الإنسان. وهذه الحالة تقع مقابل حالة الإعراض والانحراف عن الله... وهما حالتان مختلفتان في حياة الإنسان.

فحالات الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى ثلاث:

- ١ - حالة الاستقامة على الصراط المستقيم في حياة الإنسان.
- ٢ - حالة الإعراض والصدود عن الله وهي حالة (المغضوب عليهم).
- ٣ - حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهي حالة (الضالين).

فهذه ثلاث حالات للإنسان بالنسبة إلى الله - تعالى - تشير إليها سورة الفاتحة.

والحالة الأولى هي الحالة الوحيدة للاستقامة في حياة الإنسان. وأبعد حالات الإنسان عن الله - تعالى - هي حالة الإعراض والصدود عن الله، وهي حالة المغضوب عليهم... وفي هذه الحالة يخرج الإنسان عن دائرة رحمة الله الواسعة التي لا تضيق بشيء إلا أن يشاء الله، وهي حالة السقوط والهلاك للإنسان... وهذه الحالة تحجب الإنسان عن الله حجباً كاملاً، وبين هاتين الحالتين حالة الانحراف عن الله، من دون إعراض وصدود، وهي حالة الضالين. وهذه الحالة حالة منحرفة عن الله، وليست على الصراط المستقيم،

ولكنها لا تحمل إعراضاً وصدوداً عنه تعالى، فهي لذلك تقع في دائرة رجاء رحمته عز وجل.

واستقبال القبلة يرمز إلى هذه الحالة الوحيدة للاستقامة على الصراط المستقيم، وهي الحالة التي يوجه الإنسان وجهه ويسلمه الله - تعالى - وهذا هو الدور الأول للقبلة.

الدور الثاني للقبلة:

والدور الثاني للقبلة أنها توجه وجهه الناس جميعاً إلى الله. وهذه الصفة (الاجتماعية) في تسليم الوجوه لله تعطي الإنسان قرباً وسرعة وإقبالاً أكثر في حركته إلى الله.

ومن عجب، أن حركة الإنسان إلى الله وسط حركة جماهير المؤمنين إلى الله أسرع وأقوى وأرضى إليه تعالى، من أن يتحرك الإنسان وحده إلى الله إلا أن يكون أمة لوحده، كما كان إبراهيم عليه السلام أمة.

والله تعالى يحب أن يستقبل عباده مجتمعين، فإذا أقاموا الصلاة، أقاموها جميعاً، وإذا توجهوا إلى وجهه الكريم بوجوههم توجهوا جميعاً، وإذا صاموا صاموا جميعاً، وإذا أفطروا أفطروا جميعاً. وهذه الصفة (الاجتماعية) أمر أصيل وجوهري في هذا الدين. والقبلة تحقق هذه الصفة الاجتماعية في تسليم الوجوه إلى الله، إضافة إلى أصل التسليم.

٢- الطواف

﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (١٥)

والدور الثاني للكعبة أن هذه الغاية (وهي مرضاة الله، ووجهه الكريم)

تستوعب كلّ جهد الإنسان وهمّه وحركته، وهو ما يرمز إليه (الطواف).
 فإنّ (القبلة) توجّه الإنسان إلى الله في صلاته. وهذه مهمة صعبة وشاقّة.
 إلّا أنّ هذه المهمة - في حدود القبلة - لا تستوعب كلّ جهد الإنسان وحركته، فإنّ
 الإنسان يصلي، ويسعى ويتحرّك في مناكب الأرض ابتغاءً للرزق، ويتزوّج،
 ويتعلّم، ويعلم، ويحب، ويبغض، ويذهب إلى السوق، ويعود إلى البيت، وهو لا
 يطلب في هذه الحركة الواسعة وجه الله، ولا يطلب إلّا رزقه ولذّته وحاجاته، في
 غير معصية الله، وليس عليه من بأس في ذلك، إذا كانت هذه الحركة في غير
 معصية الله. غير أنّ شطراً كبيراً من جهد الإنسان وحركته واهتماماته يقع خارج
 هذه الجهة (مرضاة الله ووجه الله) دون أن تعارضه. ولا يستوعب وجه الله
 ومرضاته كلّ همومه وحركته وسعيه. ولا بأس على الإنسان في ذلك، غير أنّ
 حركته في هذه الحالة إلى الله تكون حركة بطيئة. يتحرّك إلى الله إذا أقبل بوجهه
 على الله في صلاته، ويتوقّف عن الحركة إلى الله إذا قضى صلاته، وذهب لغيرها
 من شؤونه في الحياة، كالمجتمعات المسيحية المعاصرة، فإنّ التوجه إلى الله في هذه
 المجتمعات لا يستوعب إلّا جزءاً يسيراً من شخصية الناس وحركتهم في ساعة
 أو بضع ساعة من أيام الآحاد في الكنيسة، فإذا قضوا هذه الساعة في الكنيسة،
 وانصرفوا إلى سائر شؤونهم في الحياة، انصرفوا عن الله إلى غيره من شؤونهم من
 حلال أو حرام.

وأقل ما في ذلك أنّ حركة الإنسان إلى الله - تعالى - تكون بطيئة، ومنقطعة،
 ومثل هذه الحركة البطيئة المتقطعة، لا تكاد أن توصل الإنسان إلى (لقاء الله).
 و (الطواف) يعلمنا أنّ من الممكن أن يستوعب (وجه الله) و (مرضاة الله)
 كلّ جهد الإنسان وحركته وسعيه في السوق والبيت والمسجد والمدرسة
 وساحات الحرب وميادين السلم دون أن يعطّل شيئاً من حركته ونشاطه.

الحالات الثلاث للإنسان:

ولابدّ من توضيح وتفسير لهذا الأمر فنقول:

إنّ للإنسان تجاه الله ثلاث حالات:

١ - حالة الشرك.

٢ - حالة التوحيد.

٣ - حالة الإخلاص.

وفيما يلي توضيح لهذه الحالات:

١ - الشرك: وهي أنّ يحكّم الإنسان أكثر من عامل على سلوكه، بمعنى أن يحكّم الله - تعالى - على نفسه، ويحكم الهوى والطاغوت في الوقت نفسه على نفسه، فيخضع في سلوكه لهذه العوامل جميعاً وليس لحكم الله - تعالى - وأمره فقط، فيطيع الله تعالى، ويطيع الهوى والطاغوت في معصية الله، ويحلّ ما أحلّوه له ويحرّم ما حرّموه عليه في مقابل ما أحلّ الله وما حرّم الله.

وهذه الطاعة والانقياد للهوى والطاغوت ... تأتي في حياة الإنسان في عرض طاعة الله، وبمعصية الله ومخالفته.

والقرآن يسمّي هذه الطاعة التي تأتي في عرض طاعة الله، وتتمّ بمعصية الله - تعالى - ومخالفته بـ (الشرك).

فيقول - تعالى - في طاعة الهوى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (١٦)، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾ (١٧).

وطاعة الهوى هو تأليه الهوى، ولا نعرف نحن معنى آخر لتأليه الهوى غير الطاعة والتسليم لعامل الهوى: هذا في طاعة الهوى.

وأما في طاعة الطاغوت فيقول تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنِ مَرْيَمَ، وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (١٨).



والعبودية هنا الطاعة، فإنّ النصارى لم يزدوا على طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلّوا لهم وحرّموا عليهم، فعبادتهم لهم هي تحكيم أوامرهم ونواهيهم عليهم.

وقد روي في ذلك أنّ عدي بن حاتم قال لرسول الله ﷺ: إنّنا لم نعبد أحبارنا ورهباننا؟ فقال له رسول الله ﷺ: ألم تحلّوا ما أحلّوه، وتحرّموا ما حرّموه؟

٢- التوحيد: وهو أن يحكم الإنسان على نفسه حكم الله - تعالى - فقط، ويأخذ بما أحلّ الله - تعالى - وينتهي عما حرّم الله - تعالى -، ولا يحلّل غير ما أحلّ الله، ولا يحرم غير ما حرّم الله. ويجعل الإنسان كلمة الله هي العليا في حياته، وأمر الله ونهيه هو النافذ على سلوكه، يمتثل ما أمر الله تعالى به وينتهي عما نهى الله عنه. وهذا هو (التوحيد) و (التقوى).

ولكن ليس بالضرورة أن يكون كلّ عمله وتحركه وسعيه لوجه الله، وابتغاء لمرضاة الله، فليس ممّا يضر به (التوحيد) أن يذهب الإنسان إلى السوق ابتغاءً للرزق، لا ابتغاءً لوجه الله ومرضاته، وإنّما يضرّ بالتوحيد أن يجعل عامل الرزق حاكماً على سلوكه في عرض حاكمية الله، يأخذ بما يتطلّبه الرزق محلاًّ له، وإن كان في ذلك معصية الله ومخالفته.

والخلاصة: أنّ (التوحيد) هو قبول الإنسان سيادة الله - تعالى - وولايته المطلقة على حياته. و (التقوى) هو تحكيم سيادة شريعة الله وحدها على سلوكه. فلا يرتكب الإنسان ما ينهى الله عنه، ولا يترك عما يأمر الله تعالى به، وليس من الضروري في (التوحيد) و (التقوى) أن يكون سلوك الإنسان كلّ - حتّى في دائرة المباح - لوجه الله وابتغاء مرضاته.

٣- الإخلاص: وهو فوق مرتبة التوحيد، وتتحقّق هذه الحالة عندما

يَحْضُ الإنسان نفسه وحياته، وسلوكه كلّ الله، وابتغاءً لمرضاته ووجهه، وتستوعب مرضاة الله كلّ حركته ونشاطه وسلوكه، وتصبغ هذه الغاية (مرضاة الله) كلّ سلوكه ونشاطه وحركته، أولئك المخلصون. والإخلاص بهذا المعنى هو الدعوة الثانية للأنبياء بعد دعوة (التوحيد). والإخلاص ليس بمعنى أن يعطل الإنسان نشاطه وسعيه في مناكب الحياة، في السوق والبيت والمزرعة وساحات الحرب والإدارة والسياسة، ولكن بمعنى أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته في هذه الساحات كلّها لله تعالى.

ومن السهل أن يعطل الإنسان شطراً كبيراً من نشاطاته وسعيه، لئلا يكون سعيه وحركته لغير الله، ولكن من الصعب أن يطوّع الإنسان نشاطه وحركته كلّها لله تعالى. ودعوة الإسلام هو أن يطوّع الإنسان حركته وسعيه لله، وليس أن يعطل الإنسان نشاطه وحركته.

وهذان منهجان في التربية الروحية: التعطيل والتطوّع. والأوّل منهج سلبي يرفضه الإسلام، والثاني منهج إيجابي يدعو إليه الإسلام.

والطواف يرمز إلى هذا الشأن الصعب في علاقة الإنسان بالله تعالى. ففي الطواف يطوف الإنسان دورة كاملة حول الكعبة، في هذه الدورة يتحرك كتفه الأيمن حول محيط دائرة كاملة من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال وفيما بين هذه الجهات جميعاً، ولا تبقى نقطة على هذا المحيط الدائري الشامل إلا ويقطعه الإنسان بكتفه الأيمن. وهذا المحيط يساوي 360° ولا نعرف جهة هندسية أوسع وأشمل من 360° (أي محيط الدائرة).

وبينما يتحرك كتف الإنسان الأيمن حول هذه الدائرة الشاملة يثبت كتفه الأيسر على مركز الدائرة وهو الكعبة، ولا يحيد عنه، في كلّ هذه الحركة الدائرية.



ولهذا التركيز والتثبيت إلى جانب تلك الحركة الشاملة معنى عميق في حياة الإنسان المسلم. فإنّ من الممكن أن يقوم الإنسان بكامل النشاط المباح، الذي يقوم به سائر الناس في مناكب الحياة المختلفة، دون أن ينحرف حتّى لحظة واحدة عن ابتغاء وجه الله ومرضاته في شيء من ذلك. فيذهب إلى السوق لله، ويسعى في مناكب الحياة لله، ويتزوَّج لله، ويؤمّن معيشة أهله لله، ويعمل في ميادين السياسة لله، ويقا تل لله، ويدافع لله. وإذا أحبّ أحبّ لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا سرّ سرّ لله، وإذا غضب غضب لله.

فلا تفوت الإنسان في هذه الحركة الواسعة حركة ولا نشاط ممّا ينشط له الناس في مساحة المباح، ولا ينحرف الإنسان في جزء من هذا النشاط الواسع عن ابتغاء وجه الله ومرضاته، وعندئذٍ يكون مخلصاً لله، أي خالصاً، لا يشوب نفسه ونيتّه شيء لغير الله.

يقول تعالى عن رسوله وكليمه موسى بن عمران: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (١٩).

ويقول تعالى: ﴿وَمَا تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٠).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢١).

و (المخلص والمخلصين) في هذه الآيات بفتح اللام بمعنى الخالص، الذي خلصت نفسه ونيتّه من كلّ شائبة لغير الله تعالى.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٢٢).

عن الامام الصادق عليه السلام، والراوي سفيان بن عيينة، قال: سألته عن قول الله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: «القلب السليم الذي يلتقي ربّه وليس فيه أحدٌ سواه. قال: وكلّ قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط. وإنما أرادوا الزهد

في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة» (٢٣).

وإذا أخلص الإنسان نفسه لله، وكان كل سعيه وحركته ونشاطه لله، فإن كل شيء في حياته يقربه إلى الله - تعالى - ... ذلك أنه مقبل بوجهه إلى الله، كادح للقاء الله كدحاً في كل عمل وحركة ونشاط، ولا يتوقف عن الكدح والحركة والإقبال على الله في سعي أو عمل، مهما كان نوع هذا السعي والعمل، في ساحات السياسة أو القتال، وفي السراء أو الضراء، وفي السوق أو البيت أو المسجد ... كل ذلك يقربه إلى الله. ويكون مع الصادقين في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقبل أن ننهي هذا الدرس عن (الطواف) نضيف إلى خصائص الطواف خصلة أخرى وهي الصفة الاجتماعية في الطواف، إن الله تعالى يحب أن يقبل عباده إليه مجتمعين، ويكدحون ويتحرّكون إلى وجهه الكريم في صفوف مترابطة، وحشود بشرية كبيرة من المؤمنين.

وهذه الخصلة الاجتماعية في الحركة إلى الله تعطي لهذه الحركة سرعة وقوة ومثانة واستحكاماً أكثر. وشتان بين أن يعبد الإنسان لوحده الله - تعالى -، أو يعبد في وسط حشد من المؤمنين، فإن العبادة الثانية أَرْضَى وأقرب إلى الله تعالى، وأسرع إلى القبول ونيل مرضاة الله من الأولى.

وفي الطواف نجد هذه الخصلة الاجتماعية بوضوح. حيث يدعو الله - تعالى - المؤمنين لطواف هذا البيت في أيام معدودات معلومات من السنة، فيتزاحم المؤمنون حول البيت العتيق، ويتدافعون بطبيعة الحال ويخلصون إلى الله في وسط هذا التدافع والتزاحم. وهو درس عجيب من دروس الطواف.

فإن العبادة وابتغاء مرضاة الله في وسط حشود المؤمنين يستتبع، بطبيعة الحال، مثل هذا التدافع والتزاحم، والتنافس، وأحياناً التنافس السلبي، ومع



ذلك كله فإن الله - تعالى - يدعونا إلى أن نسلك الطريق إليه وسط حشود المؤمنين مع هذا التزاحم والتنافس، ويدعونا إلى التسامح والتساهل والترفع عن المشاكل التي تحدث فيما بين المؤمنين أنفسهم. ولا بد من أن يحدث مثل ذلك، ولا بد من الترفع عنها، والتساهل فيها.

روى داود بن سرحان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أربع لا يخلو منها المؤمن أو واحدة منها مؤمن يحسده، وهو أشدُّه عليه، ومنافق يقفو أثره، أو عدو يجاهده، أو شيطان يغويه. وللطواف في نفوسنا مشهتان:

مشهد الطواف من الداخل، ومشهد الطواف من الخارج، ومشهد الطواف في كلٍّ منها يختلف عن الآخر.

فاذا أشرفنا على الطواف من الأعلى من سطح البيت الحرام، وجدنا هذا الجمهور الحاشد يدور حول البيت في حركة هادئة مريحة متصلة مستمرة، وكأن أرض المسجد الحرام تدور بهم في حركة ودیعة هادئة. وهذا هو مشهد (الطواف) من الخارج، وقراءة الحركة (التوحيد) و (الإخلاص) في التاريخ من بعيد، من أعمال التاريخ.

وللطواف مشهد آخر، وقراءة أخرى من الداخل، عندما ندخل في زحمة الطواف، ويعصرنا الطائفون، ونشق الطريق حول بيت الله الحرام في زحمة الطائفين ومنافستهم، وأحياناً مضايقاتهم ومشاكساتهم. وهذا مشهد الطواف من الداخل، وكذلك قراءة من الداخل لحركة التوحيد و (الإخلاص).

فلا تكاد تخلص حركة (التوحيد) و (الإخلاص) لله - تعالى - في حياتنا، في صفوف المؤمنين الموحدين والمخلصين من هذا التزاحم والتنافس الإيجابي، والسلبي أحياناً. ومع ذلك فإن الله - تعالى - يريد منا أن نحمل عبء رسالة

(التوحيد) و (الإخلاص) في الحياة في وسط جمهور المؤمنين، وحشود الدعاة إلى الله - تعالى -، ويطلب منا أن نتقبل نتائج هذا التزاحم والتنافس في العمل كأمر واقع لا بد من أن يقع، ويدعونا إلى التساهل والتسامح في هذا الأمر، وإلى الترفع عنه ما أمكن. وهذا هو الدرس الثاني من دروس الطواف.

الهوامش :

- (١) البقرة: ١٢٥.
- (٢) آل عمران: ٩٦.
- (٣) المائدة: ٩٧.
- (٤) بحار الأنوار ٩٩: ٢٠٢.
- (٥) بحار الأنوار ٩٩: ٢٠٢.
- (٦) بحار الأنوار ٩٩: ٢٠٣.
- (٧) البقرة: ١٤٤.
- (٨) آل عمران: ٢٠.
- (٩) البقرة: ١١٢.
- (١٠) النساء: ١٢٥.
- (١١) لقمان: ٢٢.
- (١٢) الأحزاب: ٤.
- (١٣) الأنعام: ١٦٢.
- (١٤) يونس: ١٠٥.
- (١٥) الحج: ٢٩.
- (١٦) الفرقان: ٤٣.
- (١٧) الجاثية: ٢٣.
- (١٨) التوبة: ٣١.
- (١٩) مريم: ٥١.
- (٢٠) الصافات: ٤٠.
- (٢١) الصافات: ٧٤.
- (٢٢) الشعراء: ٨٩.
- (٢٣) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح ٥.

مختصر معجم
مَعَالِم مَكَّة النَّارِيخِيَّة عاتق بن غيث البَلادي

أَجْيَاد:

كَأَنَّهُ: جمع جواد، والناس تقول (جِيَاد)، كان الإسم يطلق على شعبيين كبيرين من شعاب مكة، يأتي أحدهما من الجنوب، يقاسم حُمًا الماء فيتيجه شمالاً، والآخر يأتي من الشرق من جبل الأعراف، ثم يجتمعان أمام المسجد الحرام من الجنوب فيدفعان في وادي إبراهيم. وقد أصبحا اليوم مأهولين بأحياء عديدة من أحياء مكة، أشهرها: حي جِيَاد، والمصافي، وبئر بليلة. ومن جِيَاد الكبير طريق يفرع ربيع بخش - رأس جِيَاد - ثم ينحدر في (خُم) فيألى بطحاء قُرَيْش فَشَوْر جنوباً. قال ميمون بن قيس (الأعشى)^(١):

فما أنت من أهل الحُجُون ولا الصِّفا ولا لك حقُّ الشربِ من ماءٍ زَمَزَمَ
و ما جعلَ الرَّحْمَنُ بيتَكَ في العُلا بأجْيَادِ غربيِّ الصِّفا والمَحَرَمِ

وقال عمر بن أبي ربيعة^(٢):

هيهات من أمة الوهاب منزلنا^(٣) لما نزلنا بسيف البحر من عدن
وحل أهلك أجياداً فليس لنا إلا التذكُّر، أو حظ من الحزن
وله ذكر كثير في كتب المتقدمين وأشعارهم.

وقال بشر بن أبي خازم^(٤):

حلفتُ بربِّ الداميات نُحورها وما ضَمَّ أجيادُ المُصلَّى ومذهبُ
لئن شبت الحربُ العوانُ التي أرى وقد طال إبعادُ بها وتُرهَّبُ
لتَحتمَلَنَ بالليل منكم ظعينةً إلى غير موثوق من العزِّ تهرَّبُ
وقال أبو بكر العبدى العدى الوزير^(٥):

يا مُحَيَّا نُور الصَّباحِ البادي ونسيم الرِّيحِ غَبَّ الغوادي
حَيَّ أَحبابنا بِمَكَّةَ ما بيـ من نواحي الصَّفا وبين جِياذِ
أما أجياد الصغير فيأتي من الشرق، وكان حيًّا كالمسدود في سنة ١٤٠٤ هـ
فتح منه نفق إلى حي العزيزية تحت جبل الأعراف، وجعلت فيه طريق مختصرة
لمشاة الحجاج، فصار مرفقاً مفيداً، وقصر الطريق على سكان حي العزيزية،
ومنتسبي جامعة أم القرى إلى أقل من ثلث الطريق القديم المار في الأبطح.

الأخشبان:

مثنى الأخشب وهو الجبل الخشن وعر المرقى.

قال الشريف الرضي^(٦):

أَحْبَبُكَ ما أَقام مِنِّي وَجَمْعُ وما أرسى بِمَكَّةَ أَخْشابها
وما دَفَعَ الحَجَّيجَ إلى المُصلَّى يَجْزُونَ المَطْيَّ على وجاها
وما نَحروا بِخِيفِ مِنِّي وَكَبُوا على الأذقان مُشْعَرةً ذُراها



وقال ساعدة بن جُوَيَّة الهذلي^(٧):

ومقامهنَّ إذا حُسِنَ بمأزِمٍ ضَيِّقِ أَلْفٍ وَصَدَّهِنَّ الْأَخْشَبُ
وأكثر الأقدمون من القول عن الأخشبين، وكادوا يتفقون على أنها: أبو
قُبَيْس وقُعَيْقَعان، أما أبو قُبَيْس - بضم القاف - فهو من أشهر جبال مكة بل
أشهرها على الإطلاق، وهو الجبل المشرف إشرافاً مباشراً على المسجد الحرام
من مطلع الشمس، ولذا يقول أهل مكة: الواقف على أبي قُبَيْس يرى الطائف!
وسياًتي ذكر «قعيقعان» في بابه. أما أهل البادية فيطلقون على الجبلين المشرفين
على المزدلفة من الشرق «الأخشبين» ويسمّون الطريق بينهما «المأزمين». وقد
يطلق اسم الأخشبين على جبلي منى فيميزان بأخشي منى، وكان الشامي منهما
يسمى القابل، وهو وجه ثبير غيناء من الجنوب، وثير غيناء سياتي معناه، وكان
يسمى ثبير الأثرية أي كبيرها، أما جبل منى اليماني فكان يسمى الصابح،
وسفحه الشمالي الشرقي يسمى «خيف منى» وله شهرة في أشعار العرب، يقول
الشريف الرضي:

نظرتُكِ نظرةً بالخَيْفِ كانت جلاء العين أو كانت قَدْأها^(٨)

ولم يك غير موقِفنا فطارت بكلّ قبيلةٍ منا نواها

وعلى كلّ حال فكل هذه الأَجْبُل أخشب، ولذا يكون أبو قُبَيْس
وقعيقعان: أخشي مكة، والقابل والصابح: أخشي منى، والمأزمان: أخشي
مزدلفة.

أَذَاخِرُ:

كجمع أذخر. جمع قلة. وهو نبات معروف.

قال بلال بن رباح رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هل أبیتنَّ ليلةً بفتحٍ وحولي أذخر وجليلُ؟
وهل أردن يوماً مياه مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُون لي شامةً وطَفيْلُ؟
في هذا الشعر:

أ- فُحَّ: بفتح الفاء وتشديد الحاء المعجمة. هو وادي مكّة الثاني، وقد ألحنا إليه فيما تقدّم. وهذا الوادي يدخل بين حراء ومكة، فيمر في الزاهر ويذهب إلى الحديبية ثم يصب في مر الظهران فوق حداء.

ب- أَذْخُر: هو جبل أذخر. وقال: أذخر ليستقيم له وزن الشعر. وليس كما فسره بعض المتأدبين بأن بلالاً كان يحب شميم الأذخر بل كان يحب مكة: شعابها وجبالها وضواحيها، كما هو ظاهر من شعره.

وأذخر هذا: هو الجبل الذي يشرف على الأبطح من الشمال يتصل بالحجون من الشرق، ولا زالت هناك ثنية تعرف منذ القدم بثنية أذخر، قال الأزرق في أخبار مكة (٢: ٢٨٩) ثنية أذخر: الثنية التي تشرف على حائط خُرمان، ومن ثنية أذخر دخل النبي (ﷺ) يوم فتح مكة، وقبر عبد الله بن عمر بأصلها مما يلي مكة. أي في مقبرة آل عبد الله بن أسيد. وحائط خرمان: يعرف اليوم بالخرمانية. بصدر مكة. صار رحبة تقف بها سيارات الكراء. ويشرف عليه من مطلع الشمس (قرن غراب) وسيأتي مستقبلاً، وقد عمر اليوم جله كمقر لأمانة العاصمة.

وحكى لي الأخ الاستاذ داخل المسعودي: أنهم اكتشفوا مقبرة بطرف الخرمانية كان الدم ينزف من أحد قبورها، فترجح لديهم أنها المقبرة المشار إليها، فاحيطت بجدار، وهي الآن بطرف بناية أمانة العاصمة مما يلي أذخر.

ج- جَلِيل: بفتح أوله وثانيه: شعب يصب من حراء في صدر فح. وقد أصبح حياً من أحياء مكة جل سكانه من الروقة من عتيبة.



الأقحوانة:

على لفظ واحدة النبات المعروف:

كان يطلق هذا الاسم على ما بين المنحنى والمفجر الأوسط، أو بتحديد أوضح ما كان يعرف بالمحصب، وهو صدر وادي إبراهيم الذي يصب فيه سيل عقبة منى.

قيل: إن أهل مكة كانوا يخرجون إليه متنزهين في ثياب زاهية مختلفة الألوان شبهت بزهر الأقحوان. وتشمل الأقحوانة اليوم أحياء: الروضة والششة وما جاورهما.

قال الحارث بن خالد المخزومي:

من كان يسأل عنا: أين منزلنا؟ فالأقحوانة منا منزل قمن
إذ نلبس العيش غصاً لا يكدره قرف الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

بئر ميمون:

قال شاعر لم أعر على اسمه^(٩):

تأمل خليلي هل ترى قصر صالح وهل تعرف الأطلال من شعب واضح
إلى بئر ميمون إلى العيرة التي بها ازدحم الحجاج بين الأباطح
في هذا الشعر: بئر ميمون: بئر حفرها ميمون أخو العلاء الحضرمي والي البحرين. عندها قبر أبي جعفر المنصور فيما يسمى اليوم بحي الجعفرية بين أذاخر والحجون. والعيرة كمؤنث العير: هو الجبل الذي عليه المنحنى بالمعابدة - بالباء الموحدة - أي بين حي الملاوي وحي الروضة.

والأباطح: أبطح مكة، والجمع من عادة شعراء العرب.

هذا ما جاء في معجم معالم مكة بطبعته الأولى والثانية.

وعندما حددت بئر ميمون هذا التحديد اعتمدت على:

١ - ورود ذكرها في يوم الفتح؛ حيث دخل رسول الله (ﷺ) من أذاخر، وأنه استقى من بئر ميمون.

٢ - وجود هذا الحي بجوار أذاخر يسمى الجعفرية، ولم أر من نسبه فترجح عندي أنه نسبة إلى أبي جعفر المنصور.

٣ - ما جاء في تاريخ الفاكهي: أن أبا جعفر حين مات هنا صلى عليه في المسجد الصغير المجاور للخرمانية، وهذا يعني أنه مات قريب منه، أي أن بئر ميمون مقترنة بهذه المواضع كلها.

ولكن الشريف شاكر بن هزاع العبدلي قائم مقام مكة أوقفني بعد حج عام ١٤١٢ هـ على بئر قديمة شرقي قصر أمانة مكة، على يمين الطريق الذهاب إلى الشرائع فالطائف عن طريق نخلة اليمانية، فقال: هذه بئر ميمون، وأراني حجرة قبرها، قال: هذا قبر أبي جعفر المنصور.

ومع اعترافي بخبرة الشريف شاكر في جغرافية مكة، إلا أن هناك تساؤلاً، إذا كانت هذه بئر ميمون على بُعدها من أذاخر، وهو بعد معاكس لا تجاه المسجد الحرام للآتي من أذاخر، فما علاقتها برسول الله (ﷺ) يوم الفتح؟ ثم إذا كان أبو جعفر مات في هذا المكان، لم حمل إلى هذا المسجد الصغير على بعد، ثم أعيد بعد الصلاة عليه إلى بئر ميمون؟ فإذا كان المقصود دفنه حيث مات صلى عليه هناك، وإذا كان المقصود التيمن بالمسجد، فالذين حملوه لم يبق بينهم وبين المسجد الحرام ما يعجزهم عن المواصلة، ثم لم لم يدفن عند المسجد الذي صلى عليه فيه، وليست لبئر ميمون قدسية أو ميزة؟ ثم إن مقبرة أهل مكة كانت قريبة جداً من ذلك المسجد، فلم لم يدفن هذا الخليفة في المقبرة؟ ولأنها كما قيل كانت قد اتسعت إلى حي الجعفرية اليوم، فلعله دفن في طرف المقبرة مما يلي أذاخر، ثم إن هذا الحيز

من المقبرة توقف الدفن فيه بعد إنشاء المقبرة السلمانية، فدفع الطمع بعض الناس إلى الاستيلاء على الأماكن المندثرة، فسارع الولاة إلى تسوير المقبرة القديمة، ثم أخذ ذلك الجانب اسم الجعفرية؛ لعلم الناس أن أبا جعفر مدفون فيه. وعلى كل حال فع عدم جزمي بأحد المكانين، فإن رأيي لم يتغير، واستنتاجي أجده قوة، والبحث مفتوح لمن يدقق ويحقق.

وأقول: إني ختمت البحث بهذا القول دون أن تكون لدي النية أن أزيد فيه، ولكن تصفحت كتاب الفاكهي المطبوع قبل سنوات، فإذا فيه ما يأتي:

٢٤٨٢ - حدثنا أبو يحيى عبد الله بن أحمد بن أبي مسرة، قال: حدثني محمد بن عبيدة الشؤيفعي، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي صالح، مولى عبد الله بن عامر، قال: توفي أبو جعفر يوم التروية سنة ثمان وخمسين ومائة، وصلي عليه عند الخطيم^(١٠) في مسجد هناك، وضرب على المقبرة - يعني مقبرة مكة - سرادق، ثم أتي بنعشه، فأدخل في السرادق، فلما فرغ من دفنه، ورجع الناس، ورفع السرادق، وإذا بقبرين، واحد في أعلى المقبرة، وواحد في أسفلها، مما يلي المسجد، ثم بنى عليهما جُنُودان.

قال لي أبو يحيى: أدركت أحد الجُنُودين أنا. قال: ثم حج المهدي بعد ذلك؛ فرأيته جاء إلى الجُنُود الأعلى في المقبرة، فوقف على ذلك القبر، والناس خلفه فصلي عليه.

وفي وجه شعب الخوز دار لبابة بنت علي، ومحمد بن سليمان بن علي. وفي هذه الدار كان يسكن عبيد الله بن قثم، وهو يومئذ والي مكة مع زوجته لبابة بنت علي، وفيها رأى الرؤيا التي أفرعته.

٢٤٨٣ - حدثنا أبو يحيى عبد الله بن أحمد، قال: ثنا خالد بن سالم مولى ابن صيفي المكي، قال: أخبرني إبراهيم بن سعيد بن صيفي المخزومي، وكان صديقاً

لعبيد الله بن قثم، قال: أرسل إليّ عبيد الله بن قثم وهو أمير مكة نصف النهار، وكان نازلاً ببئر ميمون، في دار لبابة بنت علي، زوجته.
وترى في رواية الفاكهي: توفي أبو جعفر وصلي عليه عند الخطم، ودفن في مقبرة أهل مكة، وقد اقترن موته فيما تقدم ببئر ميمون، ثم ترى أن بئر ميمون عند شعب الخوزأي حيث يدفع في الوادي، وهكذا تحفر الآبار، وأنه دفن في الجهة الشرقية حيث الجعفرية اليوم، وهذا شاهد بل هناك عدد من الشواهد على أن بئر ميمون كانت في حيز ما بين البياضية ومقبرة مكة.

البطحاء:

بفتح الباء وسكون الطاء: اسم مألوف - لدى العرب - لكل أرض في مسيل السيل: قال حذافة العدوي يمدح بني هاشم^(١١):
هُمْ مَلَأُوا الْبَطْحَاءَ مَجْدًا وَسُودَدًا وَهُمْ تَرَكُوا رَأْيَ السَّفَاهَةِ وَالْهَجَرِ
وقيل: جاء هشام بن عبد الملك يطوف بالبيت فيقترب من الحجر الأسود فلا يفسح له أحد، فبينما هو كذلك فإذا بعلي زين العابدين بن الحسين (عليه السلام) يطوف بالبيت، فإذا اقترب من الحجر انجفل الناس عنه وتركوه له، فاغتاظ هشام لذلك فسأله أحد مرافقيه: من هذا؟ فقال: لا أعرفه. وكان الفرزدق حاضراً فاغتاظ لذلك فأنشأ قصيدة منها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطائهُ والبيتُ يعرفه والحِجْلُ والحَرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كُلَّهُمْ هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطاهرُ العَلَمُ
وليس قولك: لا أعرف بضائرهِ العُرْبُ تعرف من أنكرت والعَجَمُ
وكان الفرزدق في حاشية هشام، ولكن الأمويين ما كانوا يقرّبونه؛ لكثرة افتخاره بكرم أبيه وإطرائه بني هاشم، فغضب هشام فسجن الفرزدق بعُسفان.

ثمّ اطّلت على أقوال في قصيدة الفرزدق هذه، فبحثتها في كتابي أمثال الشعر العربي، قافية الميم المضمومة، فاذا شئت فراجعه.

وكانت في صغرنا بطحاء. أما اليوم فهي شارع معبد وأرصفة، وكان أهل مكة يعرفون أن البطحاء بين مهبط ريع الحجون والمسجد الحرام، فإذا تجاوزت ريع الحجون مشرقاً فهو الأبطح إلى المنحنى عند بئر الشَّيْبِي.

ويطلق عليها المعلاة، أما ما بعد المسجد جنوباً بغرب فهو المسفلة إلى قوز المكّاسة. وقوز المكّاسة: دعص رمل أسفل من كُدَيّ، كان يسمى «الرَّمْضَة».

وكان لقريش اعتزاز بالبطحاء، فالسيد العنديد يسمى (سداد البطحاء)، وقريش مكة يسمون قريش البطاح، تمييزاً لهم عن قريش الطواهر أي ظاهر البادية.

بَلَدَح:

بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الدال المهملة وآخره حاء مهملة أيضاً.

قال ابن قيس الرُّقَيَّات (١٢):

فَمِنِّي فَالْجِمَارُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ مُقَقَّرَات، فَبَلَدَحُ فَحِرَاءُ
وَقَالُوا: لِمَا قَتَلَ الْحُسَيْنَ صَاحِبَ فَحٍّ سَمِعَ عَلَى مِيَاهِ غَطَفَانَ كُلَّهَا هَاتِفٌ يَقُولُ:
أَلَا يَا لِقَوْمٍ لِلسَّوَادِ الْمَصْبَحِ وَمَقَتَلِ أَوْلَادِ النَّبِيِّ بَبَلَدَحِ
لَيْبِكَ حُسَيْنًا كُلُّ كَهْلٍ وَأَمْرَدٍ مِنْ الْجَنِّ، إِنْ لَمْ تَبْكِ لِلْإِنْسِ نُوحِ
وبلدح: هو وادي مكة الثاني، الذي تقع فيه مقبرة الشهداء وأُمُّ الدود (أُمُّ الجود). وسماه الأزرقى وادي مكة.

وقال: إن وادي بكّة هو الذي يمرّ بالبيت (وادي إبراهيم)، وكان بَلَدَحُ في

عهد الأزرق لكل جزع منه اسم: فبقرب حراء يسمى مكة السُّدر، وعند الشهداء يسمى فحاً. ويظهر أن اسم بلدح - من قديم - لا يطلق إلا على ما تجاوز الزاهر إلى الحديبية (الشميسي)، وهناك أقوال وتعريفات تركت للاختصار، راجعها في المعجم (١٣).

والحسين المقتول بفخ، الذي صار يسمى صاحب فخ: هو الحسين بن علي بن الحسن بن عمّ موسى الكاظم (عليه السلام)، خرج على الدولة العباسية سنة ١٦٩ هـ فقتله والي مكة، بعد معركة دامية في المكان المعروف - اليوم - بالشهداء، فسمي هذا الحي الشهداء من يومها، أي مقبرة الشهداء. ولتلك الموقعة أخبار مطوّلة سنأتي عليها عند ذكر فخ إن شاء الله.

وقد نقل بعض المؤرخين: أن عبد الله بن عمر دفن في هذا الموضع، وهذا وهم، فعبد الله بن عمر دفن بمقبرة بني عبد الله بن أسيد في أذاخر. وقد تقدّم الحديث عنها في «أذاخر».

التنّضباوي:

جزء كبير من وادي ذي طوى: وادٍ كبير يسيل من الطرف الغربي لجبل أذاخر وشمال جبل (قُعَيْقَعَان)، فيسمى أعلاه اللصوص نسبة إلى ريع في رأسه يسمى ريع اللصوص، سمي الآن ريع السد، نسبة إلى سدّ فخ القريب منه. ثم يسمى العتيبية إذا صار بين الحجون والكحل (الثنية الخضراء) وعند بئر طوى يسمى جرول.

فاذا تجاوز الطرف الغربي لجبل الكعبة سمي التنّضباوي؛ والاسم الذي يكتب في الدوائر اسم غريب لم أر له اشتقاقاً أو نسبة هو الطندباوي، وهذا خطأ واضح، والاسم الصحيح هو (التنّضباوي) نسبة إلى أشجار التنّضب التي لحقنا



نحن بعضها عندما كانت تبني تحتها أكواخ التكاثر، وسألت بعض شيوخ قبيلة المجانين عن اسم هذا الوادي، فقال: كله وادي طوى.
وسألته عما كان ينبت في هذا الجزء من الوادي؛
فتبسم وقال: ما لحقنا فيه غير التنضب.
وسماه الأزرق - في هذا الموضع - (الليط). ثم يجتمع وادي طوى بوادي إبراهيم تحت جبل (ثبير الزنج) جبل المسفلة من الجنوب الغربي، فيكون أكبر روافد وادي إبراهيم.
وكانت هناك لوحة كتب عليها الطنبندأوي، وقال بعض العامة:
الطنطباوي، إلى آخر التحريفات.

التنعيم:

وادي ينحدر شمالاً بين جبال بشم شرقاً وجبل الشهيد جنوباً فيصب في وادي ياج، وهو ميقات لمن أراد العمرة من المكيين، وتسمى عمرته: عمرة التنعيم، أي مكان الاعتمار، وذلك تمييزاً لها عن عمرة الجعرانة، وكان يسمى نعمان، قال محمد بن عبد الله النُميري:

فلم تر عيني مثل سرب رأيتُه	خرجن من التنعيم معتمرات
مررن بفخ ثم رحن عشية	يلين للرحمن مؤتجرات
فأصبح ما بين الأراك وحدوه	إلى الجذع جذع النخل والعمرات
له أرج بالعنبر الغض فاغم	تطلع رياه من الكفرات
تضوع مسكاً بطن نَعْمَانِ إذ مشت	به زينب في نسوة عطرات

وقد توهم بعض أن نعمان الوارد هنا هو نعمان الأراك، وهذا خطأ، إذ إن من يعتمر قاصداً المسجد الحرام ليس قريباً من نعمان الأراك.

وقد أصبح التنعيم اليوم حياً جميلاً من أحياء مكة. وقد ثبت أن رسول الله (ﷺ) أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يعمر عائشة أخته من التنعيم، ومن ذلك اليوم اتخذ أهل مكة عمرة، وهو أقرب الحلّ إلى المسجد الحرام، فهو يقع على قرابة ستة أكيال شمالاً من المسجد الحرام على طريق المدينة.

وقد فسّر بعض الأدباء شعر النُميري: أنه على 'نعمان الأراك، لورود اسم نعمان، وذكر الأراك في هذا الطريق، وليس لهم ذلك، ففي هذا الشعر: ذكر العمرة من التنعيم، ثم هبوط النسوة فحاً بعد ذلك، متجهات إلى المسجد الحرام (موتجرات).

ثَبِير:

بفتح الثاء المثلثة، وكسر الباء:

قال عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو الملقب بالعرجي نسبة إلى عرج الطائف (١٤):

وما أنس مِ الأشياءِ لا أنس موقفاً لنا ولها بالسَّفحِ دون ثَبِيرِ
ولا قولها وهناً وقد سَمَحَتْ لنا سوابقُ دمعٍ لا تجفَّ غَزِيرِ:
أأنتَ الذي خَبَرْتَ أنك باكر غداة غَدٍ أو رائحٍ بهَجِيرِ؟
ويقول الحارث بن خالد المخزومي:

إلى طرف الجَمَار وما يليها إلى ذات القَتَادَةِ من ثَبِيرِ
قلت: معظم جبال مكة الكبار كانت تسمى الأَثْبِرَة جمع ثَبِير فنها: ثَبِير
غَيْنَاء وهو أشمخ هذه الأَثْبِرَة، وهو الذي تسميه عامة أهل مكة اليوم جبل
الرَّخَم ذلك أن على رأسه غر الطير لا يفارقه، وكان يسمى - أيضاً - ثَبِير الأَثْبِرَة،
أي كبيرها. وكان يسمى في الجاهلية سَمِيرًا ثم سُمِّي صَفْرًا، وكان يقال لقمته ذات



القتادة، وهو المقابل لجبل النور (حراء) من الجنوب، والمشرف على منى من الشمال، ويسمى منته الشمالى الشرقى «ثَقَبَة» بثلاث فتحات. وكان الجاهليون لا يفيضون من مزدلفة حتى تشرق الشمس على رأسه. ولذلك يقولون: أشرق ثبير كما نغير.

الأثرية:

جمع ثبير بفتح الثاء وكسر الباء الموحدة: اسم يطلق على عدد من جبال مكة منها ثبير غنياء - كما تقدم - وهو أضخم جبال مكة، يشرف على الأبطح من الشرق، ويشرف على منى من الشمال، ويقابل حراء من الجنوب، وتعرفه العامة اليوم بجبل الرخم - كما تقدم أيضاً -.

وثبير الزنج: جبل المسفلة الذي يشرف عليها من الغرب، ومنه جبل عُمَر وجبل الشراشف وجبل الناقة وغيرها.

أجزاء من الجبل يسمى كل منها جبلاً، وهي من عادات العرب في التسمية.

وثبير الخضراء: الجبل الذي يتصل بالحناد من الشرق، يناوح ثبير غنياء من الغرب الجنوبي، يمتد جنوباً إلى جبل سُدير، وغرباً إلى جبل السبع بنات، ومنه تشاهد جبل ثور جنوباً عدلاً.

وثبير النَّصع: جبل المزدلفة. وغيرها.

قال الفضل بن العباس اللّهي نسبةً إلى أبي هب عمّ النبي (ﷺ) (١٥):

هيّاه منك قُعيّعانُ وبلدح	فجنوب أثيرة فبطن عساب
فالهواتان فككبّ فجتاوب	فالبعوض فالأفراع من أشقاب

قوله: فبطن عساب، لعل صوابه (فبطن كساب)؛ لأن كساباً جبل لا زال معروفاً في طرف وادي ملكان، وهو الذي يقول فيه عمر بن أبي ربيعة:
حي المنازل قد عمرنا خراباً بين الجري وبين ركن كساباً^(١٦)
أما عساب - أوله عين - فلم أجد من يعرفه.

وثبير الأحدب: وهذا هو الطرف الشمالي من ثبير النصح، يقع بين جبل ثقبه وجبل الطارقي شمال مُزْدَلِفَة، ولا تتصل حدودها به، ومنه يسيل وادي أفاعية الذي يمر بين ثبير غنّاء وبين حراء، وكان يُكوّن صدر وادي إبراهيم، فكان سيله يضر بالمسجد الحرام؛ لأنه يسيل من جبال شواخ، فلما بني (العدل) حوّل ماء أفاعيه إلى مكة السدر «الصفيراء اليوم» فصار يذهب إلى فخّ فبلدح. وثبير النصح: وهذا هو الجبل الضخم الذي يشرف على 'مزدلفة من الشمال والشرق، ويعرف باسم جبل المزدلفة، يفصل بينه وبين المأزمين ريع يسمى رقع المزار.

وثبير الزنج: ويقول الأزرقى انه سمي بذلك، لأن زنوج مكة كانوا يحتطبون منه، ويلعبون عنده، وهو المعروف - اليوم - بجبل المسفلة، وله أسماء عديدة منها: جبل عُمر، يطلق على القسم المشرف على الشبيكة، يأخذه ريع الحفاير، وجبل الناقة يجاور جبل عُمر من الجنوب الشرقي، والناقة: حصاة هناك تشبه الحمل. يجاور ذلك جبل الشراشف، وفي الجنوب الغربي يسمى جبل التوبة، ولعل هذا له صلة باسم الزنج، ويسمى غربه جبل الحفائر، والحفائر كانت تسمى في عهد الأزرقى «المادر»، أي حيث يستخرج المدر: وهو الطين الذي كانوا يبنون به، وهي - اليوم - حي من أحياء مكة، وثبير الخضراء هو الجبل ذو القلة الذي يشرف على الأقحوانة من الجنوب، ويمتد غرباً بجنوب فيتصل بالحنادم، ويمتد جنوباً فيتصل بجبل سُدير، كما تقدم.



وَتَبِيرِ ثَوْرٍ: وهو يتلو هذا.
وتجدر الإشارة إلى أنه لا يعرف - اليوم - اسم تبير بل أن كثيراً من جبال مكة لا تعرف لها أسماء.

ثَوْر:

بلفظ ثور البقر جبل يقع جنوب مكة: يرى من المزدلفة ومن المسفلة، وقد تقدم أيضاً أنه أحد أثيرة مكة. قال أبو طالب عم النبي (ﷺ) (١٧):
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ عَلَيْنَا بَشَرٌ، أَوْ مُخْلَقٌ بَاطِلٍ
وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيَّةٍ وَمَنْ مُفْتَرٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يَحَاوِلِ
وَتَوْرٍ وَمَنْ أَرَسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ وَعَيْرٍ وَرَاقٍ فِي حِرَاءٍ وَنَازِلِ
وهذا الشعر يدل على أن ثوراً كان معروفاً في مكة. ومنذ أن لجأ إليه رسول الله (ﷺ) عند بدء الهجرة أصبح هذا الجبل مقدساً يزوره المسلمون للذكرى، ويدخله بعضهم تيمناً.
وجاء في سبب تسميته أطحل على وزن أفعل من الطُّحْلَة وهي لون معروف (١٨).

قال المتقدمون: إنه اسم الجبل المعروف اليوم باسم ثور، وإن اسم ثور هو ابن عبد مناة بن أد بن طابخة، فنسب ثور هذا إلى الجبل أطحل ف قيل: ثور أطحل. وإليه ينسب الفقيه المحدث سفيان بن سعد الثوري. وليس إلى ثور قضاة.

قال البعيث الشاعر:

وَجِئْنَا بِأَسْلَابِ الْمُلُوكِ وَأَحْرَزْتُ أَسْتَتْنَا مَجْدَ الْأَسَنَّةِ وَالْأَكْلِ
وَجِئْنَا بِعَمْرٍو بَعْدَمَا حَلَّ سَرَبُهَا مَحَلَّ الذَّلِيلِ خَلْفَ أَطْحَلِ أَوْ عُكْلِ

ويعرف هذا الجبل - اليوم وفي التاريخ الإسلامي - بجبل ثور، وفيه غار ثور الذي أوى إليه محمد (ﷺ) ورفيقه في بدء الهجرة إلى المدينة. وقد تناقل الناس - إلى اليوم - تحديداً خاطئاً لجبل ثور، فنجد في مقررات المدارس أنه جبل بأسفل مكة. وهذا خطأ، فالجبل يقع جنوباً عدلاً من مكة أي جنوب المسجد الحرام، ولكن الطريق إليه كانت من المسفلة، ثم من ربيع كُدَيٍّ وهما أسفل مكة، فظن زائروه أنه أسفل مكة. أما اليوم فيمكن الذهاب إليه من أجياد مباشرة بعد أن شُقَّ ربيعٌ هناك سَمَّى ربيعَ بَحْشٍ.

والناس يزورون الغار المقدس هناك، ولهم خرافة تقول: إن من يتعسر خروجه منه فهو لغير أبيه، ولا أدري مَنْ أول من أطلق هذه الخرافة؟ غير أننا لم نر سميماً استطاع دخوله كما لم نر نحيفاً تعسر خروجه منه. والإسلام لا يجيز مثل هذه الإشاعات، واختراع الخزعبلات.

وشهرة غار ثور في مكة تغني عن تحديده، وأنت تراه من حيث أتيت مكة بارزاً يشبه شكله شكل ثور مستقبل الجنوب، ولعل لشكله علاقة باسمه.

الجزل:

بفتح الجيم وسكون الزاي..

قال عمر بن أبي ربيعة^(١٩):

ولقد قلت ليلة (الجزل) لما أخضلت ريطتي عليّ السماء
ليت شعري وهل يردنّ (ليت) هل لهذا عند (الرّباب) جزاء؟
وقال السباعي في تاريخ مكة: جزل - بكسر أوله وتشديد ثانيه - نسب إلى طائفة من الجنود كانت تلعب فيه.

وأقول: شعر عمر يدل على أن المكان كان معروفاً قبل أن تعرف مكة



الجنود. ووصف هذا الجبل ينطبق على الجبل المعروف بجبل خليفة. وهو المقابل للمسجد الحرام من الجنوب على يمين الداخل في أحياء الكبير، فوقه قلعة بناها الشريف سرور أحد ولاة مكة في العهد العثماني. وهذا الجبل شق تحت نفق سنة ١٤٠٦ هـ يوصل بين سفلة مكة وحي جياذ الكبير.

الجعرانة:

بكسر أوله وسكون ثانيه وتخفيف الراء، كذا اتفق اللغويون على ضبطها. وأهل مكة اليوم ينطقونها بضم الجيم. قال أحدهم (٢٠):

فيا ليت بالجعرانة، اليوم، دارها وداري ما بين الشام فككب
فكنت أراها في الملبين ساعة بطن مني ترمي جمار المحصب
ويقصد الشاعر أن تكون داره شمال ككب، لأن الجعرانة هناك. ولعل صواب قوله: ما بين الشام فككب يكون (ما بين الستار وككب)؛ ذلك أن جبل الستار يقع قرب الجعرانة من الجنوب، وهو الجبل الذي يشرف على علمي طريق نجد من الشمال، والذاهب من مكة إلى نخلة يجعل الستار على يساره عن قرب.

والجعرانة اليوم: قرية صغيرة في صدر وادي سرف، فيها مسجد يعتمر منه أهل مكة المكرمة، ولها مركز إمارة، وتربطها بمكة طريق معبدة، وفيها زراعة قليلة. وكان النبي (ﷺ) اعتمر منها بعد غزوة الطائف، خرج منها ليلاً وعاد من ليلته.

جَمْع:

ضد التفرق.

قال ابن هرمة (٢١):

سَلَا الْقَلْبُ إِلَّا مَنْ تَذَكَّرَ لَيْلَةً بَجَمْعٍ وَأُخْرَى أَسْعَفَتْ بِالْمَحْصَبِ
وَمَجْلَسِ أَبْكَارٍ كَأَنَّ عَيُونَهَا عَيُونُ الْمَهَا أَنْضِينَ قُدَّامَ رَبِّ رَبِّ
وَقَالَ آخَرُ:

تَمَنَّى أَنْ يَرَى لَيْلَى بِجَمْعٍ يَسْكُنُ قَلْبَهُ مِمَّا يَعَانِي
فَلَمَّا أَنْ رَأَاهَا خَوَّلَتْهُ بَعَادًا فَتَّ فِي عَصْدِ الْأَمَانِي
إِذَا سَمِعَ الزَّمَانَ بِهَا وَضُنَّتْ عَلَيَّ فَأَيُّ ذَنْبٍ لِلزَّمَانِ؟
وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ (ﷺ):

وَلَيْلَةُ جَمْعٍ وَالْمَنَازِلُ مِنْ مَنَى وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حَرَمَةٍ وَمَنَازِلِ؟
وَجَمْعٌ إِذَا مَا الْمُقَرَّبَاتِ أَجْزَنَهُ سَرَاعًا كَمَا يَخْرُجْنَ مِنْ وَقَعٍ وَابِلِ
وَجَمْعٌ هِيَ الْمَزْدَلِفَةُ سَمِيَتْ لِاجْتِمَاعِ الْحُجَّاجِ فِيهَا عِنْدَ الْإِفَاضَةِ مِنْ عَرْفَةِ،
وَبِهَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، وَمَنْ قَالَ: هِيَ قَرْحٌ فَقَدْ وَهَمَ. يَصْلِي الْحَاجُّ بِجَمْعِ صَلَاةِ
الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ جَمْعَ تَأْخِيرٍ، ثُمَّ يَبِيتُ بِهَا - عَلَى أَغْلَبِ الْمَذَاهِبِ - فَيَصْلِي الصُّبْحَ
وَيُدْفَعُ إِلَى مَنَى.

وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَا تَدْفَعُ إِلَّا بِمَجِيزٍ يَدْفَعُ بِهَا مِنْ جَمْعٍ. فَكَانَتْ الْإِجَازَةُ
لِخِزَاعَةٍ، ثُمَّ صَارَتْ لِعَدْوَانٍ، وَكَانَ مِنْ عَدْوَانِ أَبُو سَيَّارَةَ أَحَدِ بَنِي سَعْدِ بْنِ وَابِشَ
بَنِ زَيْدِ بْنِ عَدْوَانَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ (٢٢):

نَحْنُ دَفَعْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ وَعَنْ مَوَالِيهِ بَنِي فِزَارَةَ
حَتَّى أَجَازَ سَالِمًا حِمَارَهُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ يَدْعُو جَارَهُ

وَكَانَ أَبُو سَيَّارَةَ يَدْفَعُ بِالنَّاسِ عَلَى أَتَانٍ (٢٣).

وفزارة من غَطَفان، ولا أدري كيف كانوا موالي لأبي سيارة؟ ولم أر مَنْ
علل ذلك.

وكان أبو سيارة يتقدم الحجاج صباح جمع ركباً حماراً ويخطب قائلاً:
اللهم أصلح بين نساءنا، وعاد بين رعائنا، واجعل المال بين سمحائنا، أوفوا
بعهدكم، وأكرموا جارككم، وأقروا ضعيفكم. ثم يقول: أشرق ثبير كما نغير.
وعلى كلّ فالناس - اليوم - لا تعرف جمعاً، إنما يعرفون المزدلفة، وهم
يقولون (مزدلفة) و (مستلفة).

... يتبع

الهوامش :

- (١) ديوانه : ١٨٤ .
- (٢) ديوانه : ٣٤٨ .
- (٣) أمة الوهاب : ابنة عمر بن أبي ربيعة .
- (٤) معجم البلدان (أجياد) .
- (٥) معجم البلدان (جياذ) وفي الإكليل ٢ : ٤٧ هو أبوبكر أحمد العيدي الأبيني، نسبه إلى أبيين - وفي العقد الثمين ٨ : ٩ ذيل: اختلف في نسبته، ف قيل: العيدي، والعيدي، والعَيَّدي. والصَّواب: العيدي؛ بالياء قبل الدال المهملة. وأبين مقاطعة يمنية قرب مدينة عدن.
- (٦) ديوانه : ٥٦٣ .
- (٧) معجم البلدان (الأخشبان) .
- (٨) في الديوان : جلاء العين مني بل قذاها .
- (٩) أخبار مكة ، ٢ : ٢٢٢ .
- (١٠) لعله تصحيف الخطم .
- (١١) معجم ما استعجم (البطحاء) .
- (١٢) معجم معالم الحجاز ١ : ٢٥٠ .
- (١٣) المصدر نفسه .
- (١٤) معجم البلدان (ثبير) .
- (١٥) معجم البلدان (أثيرة) .
- (١٦) أنظر معجم معالم مكة التاريخية والأثرية .
- (١٧) معجم البلدان (ثور) والسيرة « لامية أبي طالب » .
- (١٨) إن يكون صدر الدابة يميل إلى الحمرة ، وهولون مميز .
- (١٩) ديوانه : ١٧ .
- (٢٠) معجم البلدان (جعرائنة) .
- (٢١) معجم البلدان (جمع) .
- (٢٢) شفاء الغرام ، ٢ : ٣٢ .
- (٢٣) الأتاتان : أنثى الحمار .

زمزم في الشعر العربي

ماء زمزم لما شرب له

يا زمزم الخير والروح الأمين أتي
كأس من الحُب أهده الكريم إلى
بُزء السقام بها، برّ الطعام بها
أغنت أبا الذرّ عن ريّ ليلاليه
وكم سقيم رأى في مائها فرجاً
سؤر من الخلد أبقاه الكريم على
ضيافته منه للراجلين رحمته
كذلك يروي ابن عباس «لما شربت»
يشققها عند إسماعيل مَرْتَضِعَا
طفل الخليل فكان الرّي والشَّبَعَا
ريّ الشراب بها في مائها اجتمعَا
وأسمّنته بلا زادٍ فما جَزَعَا
لمّا تناول من سلسالها جُرْعَا
مرّ الزمان لمن لبّي ومن خشعَا
ولا يُذادُ الذي في برّها طمعَا
فانهل بها ثمّ سلّ ما شئت مُفْتِنَعَا

محي الدين عبد الحميد، عالج نفسك بماء زمزم : ١٥١

زمزم

ورثنا المجد عن آبا
وأبي مـناقب الخـير
ألم نسق الخـجـج ونـذ
ونـلقـى عـند تـصـريف الـ
وزمـزم مـن أرومـتنا
وخـير النـسـاس أولـنـا
فـإن نـهـلك فـلـن نـمـلك
وأبي النـسـاس لـم نـمـلك

ثـنـا فـرقـا بـنـا صـعدا
لـم تـشـدد بـنـا عـضدا
حـر الدلائـف الـرفـدا
مـنايا سـادة سـددا
وبـرغم أنـف مـن حـسدا
وخـير النـسـاس إـن بـعدا
وهـل مـن خـالد خـلدا
ونـمـجـده وإـن مـجـدا

مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس

لقـد فـضـل الرـحـمـن آل مـحـمـد
سقاهاهم ليسقوا الحاج في الحج زمزما

بـعلم وكنـان اللـه بـالنـاس أخـبرا
وخـطـط لـهم فـي جـنـة الخـلد كـوثرـا

الفضل بن عبد الرحمن بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب



ولنا حوضان لم يعطهما غيرنا الله ومحمد قد تلد
حوضنا الكوثر حق المصطفى يرغم الله به أهل الحسد
ولنا زمزم حوض قد بدا حيث مبنى البيت في خير بلد

كما قال أيضاً:

حوض النبي وحوضنا من زمزم ظمئاً امرؤ يرؤه حوضانا
فإذا رأيت شربنا ومقامه من حوضنا فشربنا أروانا
متمكناً يقضي وينفذ أمره حتى يكون كأنه أسقانا

الفضل بن العباس اللهبي

زعم العلاء وغيره لم يزعم أن النبيذ مع النشيل محرم
كذبوا ورب منى لقد جاشت به حمر الحياض تحوز ذلك زمزم
هذا النبيذ بطن مكة سنة وإذا وردنا بطن حجر يحرم

رجل من بني حنيفة

ويا واصفاً من ماء زمزم فضله نبي الهدى في وصفه منك أو صفاً
شفاء لسقم، بل طعام لطاعم رويناه مرفوعاً لنا، ومعرفاً
وفي جندب لما استقى بك آية بتعكين بطن منه في شدة العفا

أبوذر الغفاري (جندب بن جنادة)

شوق ودعاء

وزمزم مأؤها عذب فـرات
وكم نهلت على ظمأ قلوب
فهل لي رشفة منها قريباً
فلا تحرم إلهي من تمنى
إذا ما قلت: ذا ماء قراح
فحسبي جـرعة أطيني أوارى
تـرى فيها الشفاء وخير طب
وكم هـنئت بها من دون ريب!
أداوي مـهـجتي وأبـلـ قلبي؟
ولا تمنع إلهي أي صـب
يـقول السـائغون: بـلى وربّي
وأنقع غـلـتي، وأزـيل كـربي

محي الدين عبد الحميد، عالج نفسك بماء زمزم: ١٦٨

من أسماء زمزم عند الشعراء

لزمزم أسماء أتت فـهي بـرة
ونافعة مـضنونة عـونة الوري
وهـزة جـبريل وهـزمتـه كـذا
ومـؤنسـة مـيمونة حـرمية
ومـغذية عـدت وصافية عـدت
شـراب لأبـرار وعافية بـدت
وقال آخر:
لزمزم أسماء مـنها زمزم
سـقيا نـبي الله إسماعـيلا

طعام طعم وشفاء من يسقم
مـروية، هـزمتـه جـبرائـيلا



مُغْذِيَةٌ عَافِيَةٌ وَكَافِيَةٌ سَالِمَةٌ وَعَصْمَةٌ وَصَافِيَةٌ
وَبَرَّةٌ بَرَكَةٌ مَبَارَكَةٌ نَافِعَةٌ سَرٌّ يَغْشِي نَاسِكَهُ
مُؤْنِسَةٌ حِرْمِيَّةٌ مَيْمُونَةٌ وَظَلِيَّةٌ طَاهِرَةٌ مَضْنُونَةٌ
سَيِّدَةٌ وَعَوْنَةٌ قَدْ دُعِيَتْ شَبَّاعَةُ الْعِيَالِ قِدْمًا سُمِّيَتْ

من كتاب فضل ماء زمزم : سائد بكداش .

زمزم خارج بأمر الله أَعَاثَهُ لَا بَنَ خَلِيلُ اللَّهِ
وَأُمُّهُ هَاجِرٌ حِينَ سَكُنَا بِمَكَّةَ وَبَعْدَهُ زَالُ الْعَنَا
وَالابْنُ هَذَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ ذَاكَ النَّبِيُّ الصَّادِقُ النَّبِيلُ
ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ
وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يَرْضَعُ عِنْدَ خُرُوجِ الْمَاءِ وَهُوَ يَنْبَعُ
قَدْ وَصَلَتْ حَالَتُهُ مِنَ الضَّرَرِ مَنْ عَطَشَ فِي مَنْتَهَى مِنَ الْخَطَرِ
خَافَتْ عَلَيْهِ أُمُّهُ الْمَوْتَ وَلَا أَنْ يَسَّ وَلَا وَحْشَ لَدَيْهِمْ لَا وَلَا
قَامَتْ لِتَسْعَى سَعِيهَا فِي الْوَادِي فَرَبَّمَا يَغِيثُهَا مَنَادِي
إِذْ سَمِعَتْ صَوْتًا كَصَوْتِ شَخْصٍ فَهَرَوْتُ تَسْعَى أَشَدَّ الْحَرَصِ
فَرَأَتْ الْمَاءَ يَفُورُ جَارِيًّا صَارَتْ تَحُوطُهُ لِيَبْقَى بَاقِيَا
أَخْرَجَهُ جَبْرِيلُ رَفَقًا بِهِمَا صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَسَلَامًا
فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ مِنَ الزَّمَانِ بِأَمْرِ رَبِّ الْمَلِكِ الدِّيَانِ
فَشَرِبْتُ هَاجِرٌ بَعْدَ أَنْ سَقَتْ وَلِيَدَهَا فَرُويَا وَفَرَحَتْ
أَعَاثَهَا رَبُّ الْعِبَادِ الْمُنْعَمِ وَصَانَهَا مِنَ الرَّدَى الْمُحْتَمِ
بِذَا أَتَى الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ فَلَا تَمَلْ عَن قَوْلِنَا الصَّحِيحِ

التاريخ القويم لمكة: الكردي

زمـــــــزم

هـل تـرى الشـمس تـحجّ الأربـعا
هـهـنا واد نـداه أدمـع
فـاخشـعي يـا رـوح فـي أرجـائه
أربـعـا لم تـلـف إلـا حـرة
هـهـنا فـاضت يـنابـيع السـنا
طـوّفـي يـا رـوح فـي الوادـي فـكـم
طـهّر الله روابـيـه العـلى
وأقـام العـزّ فـي سـاحـاته
لا تـقل صـحراء فـيـها جـفوة
إنـهـا مـدرسة المـجد الـتي
ومـع الجـدب فـقد صارت بـما
إنـمـا الجـدب عـلـيـها قـبة
قـد حمـاها الرـوم والفـرس فـلم
حسـبـها والله أن أهـدت لـنا
مـن لدن آدم كـانت مـرتـعا
يـنـاء نـداء الله فـي أرجـائها
يـنـا خـليل الله هـذي سـاحة
فـامض يـا جـبريل واحـفر زمـزما
واسـق أجـيالاً عـطاشاً بـعدـه
وضـيـاها مـوشكاً أن يـخشـعا
ما تـراه العـين حـتى تـدمـعا
والثـمـي البـيت وحيـي الأربـعا
هـهـنا المـجد الـذي لـن يـركـعا
وحـبـا التـاريخ والدنـيا مـعا
مـن نـبي قـام فـيـه وسـعى
بـسـلام دأب لـن يـفـزعـا
وبـنـي البـيت العـتيق الأربـعا
فـطرة الله هـهـنا ما أروـعا
نـظـم الله بـنـاها ورعـى
قـدمت لـلنـاس سـهـلاً مـمرعـا
ومـجـن رد عـنـها المـطـمـعا
يـجـد الزـيـف إلـيـها مـهيـعا
أحمـد النـور وكـانت مـرتـعا
لـلـهـدى يـأوي إلـيـها طـيـعا
يـنـا أذان النـور فـيـها مـبدعـا
كـتب الله هـهـا أن تـرفـعا
وَازوِ إِسْمَاعِيلَ حـتى يـشـبـعا
مـن حـجـيج البـيت كـأساً مـزعـا



إن يكن ماءً ففيه نفحة	كم أثارت شوقهم والأدمعا
يا ضيوفَ الله لُتُّوا ربَّكم	قد دعاكم فأجيبوا إذ دعا
يا ضيوفَ الله هذي مكة	فادخلوها سجداً أو ركعا
واحملوا البرَّ إلى أكنافها	كتب الله هنا أن يجمعا
وانثروا الدمع صلاةً وانهلوا	قرة العين هنا أن تدمعا
واسمعوا كلَّ ملبٍّ جاءها	نشوة الروح هنا أن تسمعا
واطلبوا العودة في الحجر فكم	تشتهي النفس هنا أن ترجعا
يا ضيوفَ الله هذا بيته	ويمين الله في الأرض معا

محمد بدر الدين

تحقيق حول شعب أبي طالب علي قاضي عسكري

في بداية شارع الحجون شعب، يُسمّى في الجاهلية وبعد الإسلام بـ «شعب أبي دُبّ»، ويسمّيه أهل مكة اليوم بـ «مقبرة المعلّة»، أو «جنة المعلّة»^(١) ومعروف بين الإيرانيين بـ «مقبرة أبي طالب». وكان أهل الجاهلية وفي صدر الإسلام يدفنون موتاهم في شعب أبي د ب^(٢) من الحجون إلى شعب الصفي، صفي السياب، وفي الشعب اللاصق بشنية المدنيين الذي هو مقبرة أهل مكة اليوم^(٣). ويسمّى هذا الشعب أيضاً بـ «شعب العفاريت»، ويعرف اليوم بشعبة الجن. وهو يتصل بالحجون الجاهلي^(٤)، وهذا مكان يقصده الكثير من حجاج بيت الله



الحرام في كل عام بعد اتمام العمرة أو الحج لزيارة المدفونين فيه، منهم خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله ﷺ أم المؤمنين، وأبو طالب عم رسول الله ﷺ و... .
يسمّي بعض الناس هذا الشعب باسم «شعب أبي طالب»، ويريدون بذلك المكان الذي حوَّصر فيه رسول الله ﷺ وخديجة وأبو طالب ومن كان معهم، لمدة ثلاث سنوات من قبل المشركين، وهي تسمية غير صحيحة من الوجهة التاريخية؛ لأنّ شعب أبي طالب مكان آخر بقرب المسجد الحرام.
نورد فيما يلي الأدلة الواضحة، والقطعية على هذا الادّعاء:

الشعب في اللغة:

قال الجوهري (م ٣٩٣ هـ) في الصحاح:
و «الشعب» بالكسر، الطريق في الجبل والجمع «الشعاب» (٥).
قال ابن منظور (م ٧١١ هـ) في لسان العرب:
والشُّعْبُ: ما انفَرَجَ بين جَبَلَيْنِ. والشُّعْبُ: مسيل الماء في بطنٍ من الأرض (٦).

وقال فخر الدين الطريحي (م ١٠٨٥) في مجمع البحرين:
... «الشُّعْب» بالكسر، هو الطريق في الجبل، والجمع «شُعاب» ككتاب (٧).

مكان شعب أبي طالب:

تقع مدينة مكة في أرض جبلية وبين شعاب كثيرة؛ ولهذا فهي في موقع منيع من مخاطر السيول، وتبدو كأنّها تحتضن الدور التي فيها، بما يشبه الحصن الطبيعي، وقد كانت موطناً لسكنى مختلف القبائل.
وفي جوار المسجد الحرام ثلاثة شعاب متقاربة وهي:

- ١ - شعب أبي طالب.
 - ٢ - شعب بني هاشم.
 - ٣ - شعب بني عامر.
- وكان أجداد النبي ﷺ وقومه قد سكنوا في هذه الشعاب الثلاثة.

(موضع هذه الشعاب الثلاثة موضح في الخارطة بشكل دقيق)



قال الطريحي بعد تعريفه لمعنى الشعب:
وشعبُ أبي طالب بمكة، مكان مولد النبي ﷺ وشعب أبي دب أيضاً بمكة
وأنت خارج إلى منى^(٨).

وجاء في معجم البلدان في ذيل كلمة «شعب أبي يوسف»:
وهو الشعب الذي أوى إليه رسول الله ﷺ، وبنو هاشم لما تحالفت قريش
على بني هاشم وكتبوا الصحيفة، وكان لعبد المطلب فقسّمه بين بنيه حين ضعف
بصره، وكان النبي ﷺ أخذ حظّ أبيه، وهو كان منزل بني هاشم ومساكنهم، فقال
أبو طالب:

جَزَى الله عَنَّا عَبْدَ شمسٍ وَنَوْفَلًا وَتَيْمًا وَمَخْزُومًا عَقُوقًا وَمَأْتِمًا
بِتَفْرِيقِهِمْ مِنْ بَعْدِ وَدٍّ وَأُلْفَةٍ جَمَاعَتَنَا كَيْمَا يَنْالُوا الْمَحَارِمَا
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ تُبْزِي مُحَمَّدًا وَلَمَّا تَرَوْا يَوْمًا لَدَى الشَّعْبِ قَائِمًا^(٩)
وقال العلامة المجلسي رحمه الله:

والشعب بالكسر: ما انفرج بين جبلين، وشعب أبي طالب معروف بمكة،
وهو الموضع الذي كان فيه رسول الله ﷺ وأبو طالب، وسائر بني هاشم عند
إخراج قريش إياهم من بينهم. وكتب الكتاب بينهم في مهاجرتهم ومعاندتهم.
ثم يقول في ذيل كلمة الكليني رحمه الله: «في دار محمد بن يوسف»: المشهور في
السيرة: أن هذه الدار كانت للنبي ﷺ بالميراث، ووهبها عقيل بن أبي طالب، ثم
باعها أولادُ عقيل بعد أبيهم محمد بن يوسف أخا الحجاج فاشتهرت بدار محمد
بن يوسف، فأدخلها محمد في قصره الذي يسمونه بالبيضاء، ثم بعد انقضاء دولة
بني أمية حجت خيزران أم الهادي والرّشيد من خلفاء بني العباس فأفرزها عن
القصر وجعلها مسجداً. - والقصوى مؤنث أقصى أي الأبعد - والمكان بهذا
الوصف موجود الآن يزوره الناس^(١٠).

الدار التي ولد فيها النبي ﷺ :

معرفة الموضع الذي ولد فيه النبي ﷺ والديار التي كان يسكنها بنو هاشم في مكة؛ يساعدنا على أن نعرف شعب أبي طالب.

قال الأزرقي:

مولد النبي ﷺ أي البيت الذي ولد فيه النبي ﷺ وهو في دار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي ﷺ وفيه وفي غيره يقول رسول الله ﷺ عام حجة الوداع حين قيل له: أين نزل يا رسول الله؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل؟ فلم يزل بيده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف، فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء، وتعرف اليوم بابن يوسف، فلم يزل ذلك البيت في الدار حتى حُجَّت الخيزران أم الخليفين موسى وهارون فجعلته مسجداً يصلى فيه، وأخرجته من الدار وأشرعته في الزقاق الذي في أصل تلك الدار يقال له: زقاق المولد^(١١)، وهذا الشعب يُعرف اليوم بشعب بني هاشم وشعب علي، ويتصل بالسوق المسمى بسوق الليل^(١٢).

وذكر الفاكهي (م ٢٧٢، ٢٧٩ هـ):

ودار ابن يوسف لأبي طالب، والحق الذي يليه بعض دار ابن يوسف من مولد النبي ﷺ وهو الشعب الذي حاصرت فيه قُرَيْشُ بني هاشم، ورسول الله ﷺ مَعَهُمْ في الشعب^(١٣).

ثم أشار محقق هذا الكتاب في هامشه بأن هذا الشعب يعرف اليوم بـ «شعب علي»^(١٤).

ثم قال الفاكهي بشأن دار أبي يوسف ما يلي:

وقال بعض الناس: إن دار ابن يوسف كانت لعبد المطلب، فأمر الحجاج



أخاه محمد بن يوسف فاشتراها بمائة درهم، فدفعها الحجاج إليه، وأمر أخاه محمداً أن يبنيا، فبناها وكلاء محمد، فقال الناس: الدار لمحمد بن يوسف، فلما ولي الوليد بن عبد الملك^(١٥) استعمل خالد بن يوسف بن محمد بن يوسف على مكة، فادّعى أنها لأبيه، فخاصمه الحجاج بن عبد الملك بن الحجاج بن يوسف، فنظروا في الدواوين فوجدوا النفقة والتمن من الحجاج، وكان الحجاج قد جعل الدار الخارجة وقفاً على ولد الحكم بن أبي عقيل، والوسطى على ولد محمد بن يوسف، والداخلية على ولد الحجاج. وذكر بعض أهل مكة أن محمد بن يوسف كان أودع عطاء بن أبي رباح المال الذي بناها به ثلاثين ألف دينار، فلما أراد وكلاؤه قبضها، دعا الناس ليشهدوا على قبضها منه، فقال سفيان بن عيينة: قال عمرو بن دينار: فكننت فيمن دُعي ليشهد، فكانت رؤيتها أحب إلى من درهمين. ثم صارت هذه الدار بعد ذلك لولد عبد الملك بن صالح. ثم صارت اليوم لأبي سهل محمد بن أحمد بن سهل.

الشاعر يذكر دار ابن يوسف هذه:

وموعدها دار ابن يوسف غدوة كذا الخوخة القصوى المغلقة بابها
ويقال: إن النبي ﷺ وهب حقه من هذه الدار، والشعب لعقيل بن أبي طالب، وكان رسول الله ﷺ سخيّاً حليماً سَمحاً كريماً^(١٦).

وقال الفاكهي في موضع آخر:

وفي دار ابن يوسف بئر جاهلية، حفرها عقيل بن أبي طالب فلم تزل هذه الدار حتى باعها ولده من محمد بن يوسف، وفي هذه الدار^(١٧) البيت الذي ولد رسول الله ﷺ وقد اتُخذ مصلًى يُصلى فيه، والذي يليه حق العباس بن عبد المطلب ﷺ حتى دار خالصة مولاة الحيزران، ثم حق المقوم بن عبد المطلب، وهي دار طلوع مولاة زبيدة، ثم حق أبي لهب بن عبد المطلب وهي دار أبي يزيد

اللهي، وفيها كان يسكن الفضل بن العباس (١٨).

قال الكليني البغدادي (م ٣٢٩ هـ) في ذكر مولد النبي ﷺ:

ولد النبي ﷺ لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول في عام الفيل يوم الجمعة مع الزوال، وروى أيضاً عند طلوع الفجر قبل أن يبعث بأربعين سنة، وحملت به أمه في أيام التشريق عند الجمرة الوسطى (١٩) وكانت في منزل عبد الله بن عبد المطلب، وولدت في شعب أبي طالب في دار محمد بن يوسف (٢٠) في الزاوية القصوى عن يسارك وأنت داخل الدار، وقد أخرجت الخيزران ذلك البيت فصيرته مسجداً، يصلي الناس فيه (٢١).
وذكر أيضاً في مكان آخر من أنه: وماتت خديجة عليها السلام حين خرج رسول الله ﷺ من الشعب.

وجاء في تحاف الوري بأخبار أم القرى:

وكان الحمل برسول الله ﷺ في شعب أبي طالب في ليلة الجمعة من شهر رجب، وقيل في أيام التشريق (٢٢).

وذكر السيد الأمين في أعيان الشيعة:

ولد ﷺ بمكة يوم الجمعة أو يوم الاثنين... وكانت ولادته في الدار المعروفة بدار ابن يوسف، وهو محمد بن يوسف أخو الحجاج، وكان ﷺ وهبها لعقيل بن أبي طالب، فلما توفي عقيل باعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج، فلما بنى داره المعروفة بدار ابن يوسف أدخل ذلك البيت في الدار، ثم أخذته الخيزران أم الرشيد فأخرجته وجعلته مسجداً يصلي فيه وهو معروف إلى الآن، يزار ويصلى فيه ويتبرك به. ولما أخذ الوهابيون مكة في عصرنا هذا هدموه، ومنعوا من زيارته على عادتهم في المنع من التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وجعلوه مربوطاً للدواب (٢٣).



وقال تقي الدين الفاسي المكي (م ٨٣٢هـ):

ولد ﷺ بمكة في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف. ويقال: بالشعب. ويقال بالردم^(٢٤). ويقال: بعسفان، قلت: قال السهيلي: ولد بالشعب. وقيل: بالدار التي عند الصفا. وكانت بعد: لمحمد بن يوسف أخي الحجاج. ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجت. انتهى. والدار التي عند الصفا: هي دار الخيزران، ودار ابن يوسف بسوق الليل، وهي الموضع المعروف بمولده عليه الصلوة والسلام. وهذا الذي قاله السهيلي في ولادته بالدار التي عند باب الصفا غريب والله أعلم. انتهى^(٢٥).

وجاء في السيرة الحلبية ما يلي:

وكان مولده ﷺ بمكة في الدار التي صارت تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ... وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبي طالب، ولم تنزل بيد أولاده بعد وفاته، إلى أن باعوها لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بمائة ألف دينار، قاله الفاكهي ... فأدخلها في داره وسماها البيضاء أي لأنها بنيت بالجص، ثم طليت به فكانت كلها بيضاء، وصارت تعرف بدار ابن يوسف. لكن سيأتي في فتح مكة أنه قيل له ﷺ: يا رسول الله تنزل في الدور؟ قال: هل ترك لنا عقيل من رباغ أو دور؟ فان هذا السياق يدل على أن عقيلاً باع تلك الدار فلم يبق بيده ولا بيد أولاده بعده، إلا أن يقال المراد باع ما عدا هذه الدار التي هي مولده ﷺ ... وأن عقيلاً باع دار رسول الله ﷺ التي هي دار خديجة أي التي يقال لها مولد فاطمة، وهي الآن مسجد يصلى فيه بناء معاوية أيام خلافته، قيل وهو أفضل موضع بمكة بعد المسجد الحرام أي واشتهر بمولد فاطمة، لشرفها والّا فهو مولد بقية اخواتها من خديجة ولعل معاوية اشترى تلك الدار ممن اشتراها من عقيل، ويدل لما قلناه قول بعضهم لم يتعرض ﷺ عند فتح مكة لتلك الدار، التي أبقاها في يد عقيل أي التي

هي دار خديجة، فإنه لم يزل بها ﷺ حتى هاجر فأخذها عقيل. وفي كلام بعضهم لما فتح النبي ﷺ مكة ضرب مخيمة بالحجون ف قيل له: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً... وهي أي تلك الدار التي ولد بها ﷺ عند الصفا قد بنتها زبيدة زوجة الرشيد أم الأمين مسجداً لما حجت. وفي كلام ابن دحية أن الخيزران أم هارون الرشيد لما حجت أخرجت تلك الدار من دار ابن يوسف وجعلتها مسجداً. ويجوز أن تكون زبيدة جدت ذلك المسجد، الذي بنته الخيزران فنسب لكل منها. وأن الخيزران بنت دار الأرقم مسجداً وهي عند الصفا أيضاً. ولعل الأمر التبس على بعض الرواة؛ لأن كلا منهما عند الصفا. وقيل ولد ﷺ في شعب بني هاشم.

ثم الحلبي يقول: قد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بني هاشم، ثم رأيت التصريح بذلك، ولا ينافيه ما تقدم في الكلام على الحمل من أن شعب أبي طالب، وهو من جملة بني هاشم كان عند الحجون لانه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب والله أعلم (٢٦). انتهى.

يتضح من هذه الرواية التاريخية أن «شعب أبي طالب» لم يكن في منطقة الحجون، بل قرب المسجد الحرام وإلى جانب جبل الصفا وفي مكان فيه دار محمد بن يوسف... ولا يوجد هنالك دليل يثبت هذا الاحتمال بأن شعب أبي طالب كان في منطقة الحجون، وربما يفهم من كلمة «والله أعلم» التي أوردها الحلبي أنه لم يكن متأكداً من صحة ما نقله.

وذكر المسعودي (م ٣٤٥ هـ):

وكان مولده عليه الصلوة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة، في دار ابن يوسف، ثم بعد ذلك بنتها الخيزران أم الهادي والرشيد مسجداً (٢٧).



وذكر في موضع آخر:

وفي سنة ست وأربعين كان حصار قريش للنبي ﷺ وبني هاشم وبني عبد المطلب في الشعب (٢٨).

ونقل ابن الأثير (م ٦٣٠ هـ) عن ابن إسحاق بأن رسول الله ﷺ وُلد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وكان مولده بالدار التي تُعرف بدار ابن يوسف، قيل: إن رسول الله ﷺ وهبها عقيل بن أبي طالب، فلم تزل في يده حتى توفي، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج، فبنى داره التي يقال لها: دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجه الخيزران فجعلته مسجداً يصلّي فيه (٢٩).

وذكر الطبري (م ٣١٠ هـ) في تاريخه نحوه (٣٠).

وقال الفاسي المكي في ذكر المواضع المباركة بمكة المشرفة المعروفة بالمواليد:

فمنها المولد الذي يقال له، مولد النبي ﷺ بالموضع الذي يقال له سوق الليل، وهو مشهور عند أهل مكة. وذكر الأزرقي أن عقيل بن أبي طالب أخذها لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ولم يزل بيده ويد أولاده حتى باعه بعضهم من محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي، فأدخله في داره التي يقال لها دار البيضاء، ولم يزل هذا البيت في هذه الدار حتى حجّت الخيزران أم الخليفين موسى وهارون، فجعلته مسجداً يصلّي فيه، وأخرجته من الدار وشرعته إلى الزقاق الذي في أصل تلك الدار، انتهى (٣١).

وجاء في كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم:

كانت ولادة النبي ﷺ لمكة في دار أبي طالب، بشعب بني هاشم بقرب المسجد الحرام، ويسمّى الآن بشعب علي أي علي بن أبي طالب ولا زال محل

ولادته ﷺ معروفاً إلى اليوم (٣٢).

وقد ذكر أكثر المؤرخين أن ولادة النبي ﷺ كانت في شعب أبي طالب، أو في دار قرب الصفا، أو في الدار المعروفة بدار ابن يوسف وهي ثلاثة أسماء لمكان واحد (٣٣).

وورد في كتاب سيرة ساكن الحجاز:

وكان مولده ﷺ بالشَّعْب وهو شعب بني هاشم (مكان معروف عند أهل مكة، يخرجون إليه في كل عام يحتفلون بذلك أكثر من احتفالهم يوم العيد إلى يومنا هذا، في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج) (٣٤).

وذكر محب الدين الطبري المكي في كتابه «القرى لقاصد أم القرى»:

كان عقيل بن أبي طالب قد استولى عليه (بيت النبي ﷺ) زمن الهجرة، فلم يزل بيده ويد ولده حتى باعوه لمحمد بن يوسف (أخي الحجاج) فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء، ثم عُرفت بدار ابن يوسف، ولم يزل ذلك، كذلك حتى حُجَّت الحيزران (جارية المهدي) فجعلته مسجداً يصلّي فيه، وأخرجته من الدار إلى الزقاق الذي يقال له «زقاق المولد»... وهو الآن مكتبة عامة (٣٥).

وقال صلاح الدين الصفدي بعد بحث موسّع حول مكان ولادة النبي ﷺ:

القول الأرجح هو أن رسول الله ﷺ قد وُلِدَ في عام الفيل في دار تقع في الزقاق المعروف بزقاق المولد الذي كان بيد عقيل بن أبي طالب (٣٦).

وذكر عاتق بن غيث البلادي:

مولد رسول الله ﷺ من الناحية التاريخية ثابت أنه ولد عام الفيل ٥٣ ق.هـ تقريباً، في شعب أبي طالب المعروف اليوم بشعب علي وقد حول إلى مكتبة مكة، إبعاداً له عن زحام الناس وولعهم بالتبرك به (٣٧).

وقد كان موضع ولادة رسول الله، قبل تسلط الوهابيين على الحرمين



الشريفيين موضعاً يزوره المؤمنون والمسلمون الذين يفدون إلى مكة من كل أرجاء العالم (٣٨).

قال محمد بن علوي المالكي في كتابه باسم «في رحاب البيت الحرام»: مولد النبي ﷺ وهو مكان معروف إلى الآن بمكة في سوق الليل ... ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة استولى على هذا البيت عقيل بن أبي طالب ولم يزل بيده ويبد أولاده حتى باعه بعضهم من محمد بن يوسف الثقفي، ثم لما حجت الحيزران أم الخليفتين أخرجته وجعلته مسجداً يصلّى فيه، قال ابن ظهيرة ما معناه: وجرت العادة بمكة في ليلة مولد الرسول أن يتهياً الكبار والعلماء وأعيان البلاد بالفوانس والشموع فيخرجون إلى بيت مولد الرسول لزيارته وإحياء ذكر مولده ... قال: والمعروف المشهور في مولده - عليه الصلاة والسلام - هو الذي بسوق الليل ولا اختلاف فيه عند أهل مكة ثم قال: وكون هذا مولد الرسول ﷺ مشهور متوارث يأثر الخلف عن السلف (٣٩).

قال الفاسي المكي في صفة مولد النبي ﷺ:

أما الصفة التي أدركناه عليها، فإنه بيت مربع وفيه اسطوانة عليها عقدان، وفي ركنه الغربي مما يلي الجنوب زاوية كبيرة قبالة بابه الذي يلي الجبل، وله باب آخر في جانبه الشرقي أيضاً، وفيه عشرة شبابيك، أربعة في حائطه الشرقي، وهو الذي فيه باباه المتقدم ذكرهما، وفي حائطه الشمالي ثلاثة، وفي الغربي واحد، وفي الزاوية اثنان، واحد في جانبها الشمالي وواحد في جانبها الجنوبي، وفيه محراب، وبقرب المحراب حُفرة عليها درابزين من خشب، وذرع تربيع الحُفرة من كل ناحية ذراع وسُدس، الجميع بذرّاع الحديد، وفي وسط الحُفرة رخامة خضراء، وكانت هذه الرخامة مطوّقة بالفضّة على ما ذكره ابن جبير، وذكر أن سعتها مع الفضّة ثلاثا شبر (٤٠). وهذا الموضع جعل علامة للموضع الذي وُلد فيه النبي ﷺ

من هذا المكان^(٤١)، وذرع هذا المكان طولاً أربعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع. وذلك من الجدار الشمالي إلى الجدار المقابل له، وهو الجنوبي الذي يلي الجبل، وذرعه عرضاً أحد عشر ذراعاً وثن ذراع. وذلك من الشرقي الذي فيه بابه إلى جداره الغربي المقابل له، وطولاً الزاوية المشار إليها ثلاثة عشر ذراعاً ونصف ذراع وعرضها ثمانية ونصف، الجميع بذرار الحديد. وكان تحزير ذلك بحضوري، ولم يذكر الأزرقى صفة هذا المكان ولا ذرعه، وقد خفي علينا كثيراً من خبر عمارته. والذي علمته من ذلك أن الناصر العباسي عمّره في سنة ستّ وسبعين وخمسمائة. ثم الملك المظفر صاحب اليمن في سنة ستّ وستين وستائة، ثم حفيده المجاهد في سنة أربعين وسبعائة، وفي سنة ثمان وخمسين وسبعائة من قبل الأمير شيخون أحد كبار الدولة بمصر^(٤٢)، وفي دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر بإشارة مدير دولته «يلبغا الخاصكي»^(٤٣) سنة ستّ وستين وسبعائة، وفي آخر سنة إحدى وثمانائة، أو في التي بعدها، من المال الذي أنفذه الملك الظاهر برقوق صاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغيره بمكة. وكانت عمارة هذا المولد بعد موته^(٤٤).

هذا وقد وصفه ابن جبیر في رحلته بوصف غير هذا، مما يدلّ على أنه لم يدم على صفة واحدة بل كان يتغير صفةً وبناءً بتغير الزمن. وأعاد بناء هذا البيت بعد أن تهدم وصار خرباً مهجوراً الشيخ عباس قطان أمين العاصمة، ووضعت فيه مكتبة عامة عظيمة فخمة، تسمى بمكتبة مكة المكرمة مفتوحة للمطالعة والمراجعة.

وفي الأعوام الأخيرة هدم البنايات التي حول المكتبة لتوسيع أطراف المسجد الحرام، ويمكن ملاحظة الأبنية التي شيدت في موضع ولادة النبي ﷺ من خلال التصاوير.



وجاء في بحار الأنوار:

... ولد النبي ﷺ لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول في عام الفيل يوم الجمعة مع الزوال، وروي أيضاً عند طلوع الفجر قبل أن يبعث بأربعين سنة، وحملت به أمه في أيام التشريق عند الجمرة الوسطى وكانت في منزل عبد الله بن عبد المطلب، وولدت في شعب أبي طالب في دار محمد بن يوسف في الزاوية القصوى عن يسارك وأنت داخل، وقد أخرجت الخيزران ذلك البيت فصيرته مسجداً يصلي الناس فيه (٤٥).

وروى الزهرة عن أبي عبد الله الطرابلسي، البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ في دار محمد بن يوسف (٤٦).

وقال الكليني: [ولد] في شعب أبي طالب في دار محمد بن يوسف في الزاوية القصوى عن يسارك وأنت داخل الدار (٤٧).

يظهر ممّا ذكرناه أولاً: أنّ النبي ﷺ قد وُلد في شعب أبي طالب. وثانياً: أنّ شعب أبي طالب موضع في مكة، قرب المسجد الحرام، وبعيداً عن المكان الذي في الحجون الذي يعرفه بعضُ باسم هذا الشعب.

مقاطعة النبي ﷺ وأصحابه في شعب أبي طالب:

فلما رأت قريشُ أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنّ النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأنّ عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وجعل الإسلامُ يَفشو في القبائل، اجتمعوا واثتمروا [بينهم] أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.... فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو هب، عبد العزّي بن عبد المطلب، إلى قريش فظاھروهم (٤٨).

وقال السيد الأمين في أعيان الشيعة:

... وحصروهم في شعب أبي طالب أول المحرم سنة سبعة من البعثة فدخل بنو هاشم الشعب، مسلمهم وكافرهم عدا أبي هب وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لشدة عداوتها للرسول ﷺ... وانحاز إليهم بنو المطلب بن عبد مناف فكانوا أربعين رجلاً، وحصن أبو طالب الشعب وكان يحرسه ليلاً ونهاراً... وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب وذلك أشدّ ما لقي رسول الله ﷺ



وأهل بيته بمكة، وكان هشام بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي يأتي بالبعير بعد البعير قد أوقره طعاماً أو تمرّاً إلى فَمِّ الشَّعْب فينزِع عنه خطامه ويضربه على جنبه فيدخل الشعب، فبقوا في الشعب سنتين أو ثلاث سنين ... وخرج بنو هاشم من حصار الشعب في السنة العاشرة أو التاسعة من النبوة إلى مساكنهم ... (٤٩).

قال الكازروني في المنتقى وغيره:

... فعمد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخيه وبني أبيه ومن اتبعهم، فدخلوا شعب أبي طالب وآذوا النبي والمؤمنين أذى شديداً، وضربوهم في كل طريق، وحصروهم في شعبهم، وقطعوا عنهم المارة من الأسواق ونادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش: أيما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتره فزيدوا عليه، فبقوا على ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجهد الشديد، حتى سمعوا أصوات صبيانهم يتضاغون - أي يصيحون من الجوع من وراء الشعب - ... ويصبح قريش وقد سمعوا أصوات صبيان بني هاشم من الليل يتضاغون من الجوع ... (٥٠).

وجاء في إتحاف الوري بأخبار أم القرى:

دعا رسول الله ﷺ على كاتب الصحيفة فشلت يده، ثم غدت قريش على مَنْ أَسْلَمَ فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاء عليهم ... ولما فعلت قريش ذلك انحاز رسول الله ﷺ وسائر بني هاشم وبني المطلب، - خلا أباهب - وبني المطلب وولده في الشَّعْب، وخرج اللعين أبو لهب وولده إلى قريش، فظاھرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة، فكانوا لا يقدرّون على ذلك إلا من الموسم إلى الموسم، ولا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغ بهم الجهد، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشَّعْب يتضاغون من الجوع. فن قريش

من سرّه ذلك ومنهم من ساءه، ولم يكن يصل إليهم شيء إلا سراً، حتّى إن المطعم بن عدى أدخل عليهم في بعض الأيام ثلاثة أوقار من الطعام، وكان النبي ﷺ يشكر له ذلك، وكانت العير تأتي من الشام وعليها الحنطة إلى حكيم بن حزام بن خويلد فيوجهها نحو الشعب، ثم يضرب أدبارها فتدخل عليهم، فيأخذون ما عليها من الحنطة، وكان هشام بن عمرو بن ربيعة أوصل قريش لبني هاشم حين حصرُوا في الشعب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعام، فعلمت بذلك قريش، فمشوا إليه فكلّموه في ذلك فقال: إني غير عائد لشيء تحالفتم عليه. ثم عاد الثانية وأدخل حملاً أو حملين، فعالظته قريش وهمّوا به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه؛ رجلٌ وصل رحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أجمل (٥١).

وقال في موضع آخر: ... فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ... (٥٢).

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتدّ عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا طعاماً يقدّم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه، حتّى يرى ذلك من أراد مكرّاً به واغتياله، فاذا نَوَمَ الناس أمر واحداً من بني، أو اخوته، أو بني عمّه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه (٥٣).

وقال ابن كثير في السيرة النبوية:

... فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن



يُذْخِلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شِعْبِهِمْ وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّنْ أَرَادُوا قَتْلَهُ ... وَحَضَرَهُمْ إِيَّاهُمْ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ (٥٤).

وجاء في كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم: فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب، وهو المعروف اليوم «بشعب علي» ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبي لهب فإنه كان مع قريش، فلما انفصلوا عن قريش بالشعب المذكور، جهد القوم جهداً عظيماً، وتعبوا تعباً شديداً حتى أكلوا أوراق الأشجار، لأن قريشاً شددوا الحصار عليهم، وكان ذلك في السنة السابعة من البعثة، ومكثوا على هذا الحال من الضيق والتعب الشديد ثلاث سنوات (٥٥).

وقال أيضاً في موضع آخر:

قال هذه القصيدة أبو طالب عم النبي ﷺ في الشعب وهو شعب أبي طالب، الذي آوى إليه بنو المطلب وبنو هاشم مع رسول الله ﷺ ثم يذكر ما قاله في الشعب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم	فهم عنده في رحمة وفواضل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا	عقوبة شر عاجلاً غير آجل
بميزان قسط لا يخس شعيرة	له شاهد من نفسه غير عائل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم	وآل قصي في الخطوب الأوائل (٥٦)

وجاء في بحار الأنوار:

من معجزاته ﷺ أن قريشاً كلهم اجتمعوا وأخرجوا بني هاشم إلى شعب أبي طالب، ومكثوا فيه ثلاث سنين إلا شهراً، ثم أنفق أبو طالب وخديجة جميع ما لهما، ولا يقدر على الطعام إلا من موسم إلى موسم فلقوا من الجوع والعري ما الله أعلم به ... (٥٧).

وقال ابن سعد في «الطبقات الكبرى»:

... وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبى رسول الله ﷺ وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم ... (٥٨).

وجاء في الكامل لابن الأثير:

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا ... وذكروا أن أبا جهل لقي حكيماً بن حزام بن خُوَيْلِدٍ ومعه قمح يريد به عمته خديجة، وهي عند رسول الله ﷺ في الشعب متعلق به وقال: والله لا تبرح حتى أفضحك، فجاء أبو البختری بن هشام فقال: ما لك وله؟ عنده طعام لعمته أفتمنعه أن يحمله إليها؟ خلّ سبيله، فأبى أبو جهل، فنال منه. فضربه أبو البختری بلحى جمل فشجّه ووطأه ووطأ شديداً، وحمزة ينظر إليهم، وهم يكرهون أن يبلغ النبي ﷺ ذلك فيشمت بهم هو والمسلمون. ورسول الله ﷺ يدعو الناس سراً وجهاً، والوحي متتابع إليه، فبقوا كذلك ثلاث سنين (٥٩).

وفي السيرة للذهبي:

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين ... وقال محققه في هامشه: قال الحافظ أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري عن المدائني، عن أبي زيد الأنصاري، عن أبي عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال: حصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فلا يبتاع شيئاً، حتى مات منا قوم (٦٠).

وجاء في الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ:

ودخل بنو هاشم الشعب - شعب أبي طالب - ومعهم بنو المطلب بن عبد



مناف، باستثناء أبي لهب - لعنه الله وأخزاه - واستمروا فيه إلى السنة العاشرة ... ووضعت قريش عليهم الرقباء حتى لا يأتيهم أحد بالطعام. وكانوا ينفقون من أموال خديجة وأبي طالب حتى نفدت، حتى لقد اضطروا إلى أن يقتاتوا بورق الشجر. وكان صبيتهم يتضاغون جوعاً، ويسمعهم المشركون من وراء الشعب، ويتذاكرون ذلك فيما بينهم ... ولم يكونوا يجسرون على الخروج من شعب أبي طالب إلا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكانوا يشترون حينئذ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جداً ... وقد استمرت هذه المحنة سنتين أو ثلاثاً ... وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام أثناءها يأتيهم بالطعام سرّاً من مكة، من حيث يمكن، ولو أنهم ظفروا به لم يبقوا عليه كما يقول الاسكافي وغيره (٦١).

وجاء في أعلام الوري:

... فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخل الشعب وكانوا أربعين رجلاً، فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام لأن شاكى محمداً شوكة لأتبنّ عليكم يا بني هاشم. وحصّن الشعب وكان يحرسه بالليل والنهار ... وكانت خديجة لها مالٌ كثيرٌ فانفقته على رسول الله صلى الله عليه وآله في الشعب (٦٢).

وكتب اليعقوبي (م ٢٩٣ هـ) في هذا الصدد:

ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب ابن عبد مناف في الشعب، الذي يقال له شعب بني هاشم بعد ست سنين من مبعثه، فأقام معه جميع بني هاشم وبني المطلب في الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله ماله وأنفق أبو طالب ماله وأنفقت خديجة بنت خويلد ماله، ثم نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إن الله بعث الأرضة على صحيفة قريش فأكلت كل ما فيها من قطيعة وظلم إلا المواضع التي فيها ذكر الله (٦٣).

إن الوضع المهلك الذي آل إليه النبي ﷺ وأصحابه، حرّك نفراً من قريش لنقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم، فنهض هشام بن عمرو مع زهير بن أبي أمية، ومطعم بن عدي، وأبو البختري، وزمعة بن أسود بن المطلب، فاتّعدوا له، خَطَمَ الحجون التي بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها (٦٤).

أقول: يقع شعب الحجون في الموضع نفسه الذي فيه الآن مقبرة أبي طالب، وكان قبل الإسلام مقبرة أيضاً، وبالنتيجة فلو كان الشعب هنا، وفيه تعرض النبي ﷺ وأتباعه للمقاطعة، فلا معنى لأن يجعله الأشخاص المذكورون موضعاً خفياً لاجتماعهم وهو معرض للخطر الدائم في أية لحظة!! إن الاستفادة من هذا المكان كموضع خفي تدل على أن الحجون كان خارج مكة، أو إلى جوارها على الأقل، بل إن بعض الروايات تصرّح بأن الحجون كان خارج مكة في صدر الإسلام، ولهذا لا يمكن القول بأن النبي ﷺ وأتباعه وقومه خرجوا كلّهم من مكة وأقاموا خارجها!!

وروي في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما توفي أبو طالب نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أخرج من مكة، فليس لك فيها ناصر. وثارت قريش بالنبي ﷺ فخرج هارباً حتى جاء إلى جبل بمكة يقال له الحجون فصار إليه (٦٥).

نقض الصحيفة:

بعد ثلاث سنين تقريباً، أخبر النبي ﷺ عمّه أبا طالب: بأن الأرضة قد أكلت كلّ ما في صحيفتهم من ظلم وقطيعة رحم، ولم يبق فيها إلا ما كان اسماً لله، فخرج أبو طالب من شعبه ومعه بنو هاشم إلى قريش، فقال المشركون: الجوع



أخرجهم ... وقالوا له: يا أبا طالب، قد آن لك أن تصالح قومك. قال: قد جئتكم بخير، إبعثوا لي صحيفتكم، لعله أن يكون بيننا وبينكم صلح فيها. فبعثوا، فأتوا بها، فلما وضعت وعليها أختامهم. قال لهم أبو طالب: هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا: لا. قال: إن ابن أخي حدثني، ولم يكذبني قط: أن الله قد بعث على هذه الصحيفة الأربعة، فأكلت كل قطعة وإثم، وتركت كل اسم هو لله، فإن كان صادقاً أقلعتم عن ظلمنا، وإن يكن كاذباً ندفعه إليكم فقتلتموه. فصاح الناس: أنصفتنا يا أبا طالب ... ففتحت، ثم أخرجت فإذا هي كما قال ﷺ فكبر المسلمون، وامتنعت وجوه المشركين ... فقال أبو طالب:

أتبين لكم: أينأ أولى بالسحر والكهانة؟ ...

فأسلم يومئذ عالم من الناس ... ولكن المشركين لم يقنعوا بذلك بل استمروا على العمل بمضمون الصحيفة، حتى قام جماعة منهم بالعمل على نقضها، وخرج الهاشميون حينئذ من شعب أبي طالب (٦٦).

وقال ابن أبي الحديد: ... إنهم منعوا أيام الحصار في شعب بني هاشم من الماء العذب (٦٧).

أسماء بعض بني هاشم الذين كانوا مع النبي ﷺ في الشعب خلال مدة المقاطعة:

- ١ - أبو طالب بن عبد المطلب.
 - ٢ - علي بن أبي طالب.
 - ٣ - حمزة بن عبد المطلب.
 - ٤ - عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف.
- (ومع أن عبيدة لم يكن من بني هاشم، إلا أن اتحاد بني المطلب وبني هاشم، ومواقفهما المشتركة في الجاهلية والإسلام، يتيح لنا عدّه من بني هاشم).

- ٥- العباس بن عبد المطلب.
- ٦- عقيل بن أبي طالب.
- ٧- طالب بن أبي طالب.
- ٨- نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.
- ٩- ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.
- ١٠- الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.
- وكان شديداً على رسول الله ﷺ يبغضه ويهجوهُ بالأشعار، إلا أنه كان لا يرضى بقتله (٦٨).
- ١١- خديجة بنت خويلد (٦٩).
- قد ذكر المؤرخون وكتاب السيرة: أنَّ الموضع الذي حُصر فيه رسول الله وأصحابه على يد قريش، هو شعب أبي طالب، أشرنا إلى بعضهم ونُشير إلى بعض آخر:
- قال الطبرسي: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه في شعبه... (٧٠).
- وقال الفاسي المكي (م ٨٣٢ هـ):
- فانحاز الهاشميون غير أبي لهب، والمطلبيون إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً (٧١).
- وجاء في بحار الأنوار: وحاصروا بني هاشم في الشعب، شعب عبد المطلب أربع سنين، فأصبح النبي ﷺ يوماً وقال لعمه أبي طالب: إنَّ الصحيفة التي كتبتها قريش في قطيعتها قد بعث الله عليها دابة فلدحت كلَّ ما فيها غير اسم الله (٧٢).
- وروى الواقدي:
- دخل بنو هاشم في ليلة الأول من المحرم من السنة السابعة للبعثة في شعب



أبي طالب، واجتمع إليهم بنو المطلب في ذلك الشعب (٧٣).

وقال محمد إبراهيم آيتي رحمته الله:

ولما عزمت قريش على فعلها اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب وصاروا كلهم إلى الشعب، سوى أبي لهب بن عبد المطلب الذي ناصر قريشاً (٧٤).

وقال رفاعه رافع الطهطاوي:

شعب أبي طالب هو الموضع الذي صارت فيه المقاطعة ثم يقول: فأنحاز الهاشميون إلى أبي طالب... فدخلوا معه في شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب... وأقام بنو هاشم في الشعب ومعهم رسول الله صلوات الله عليه وآله نحو ثلاث سنين، وكان بنو هاشم محصورين في الشعب لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم... وأخرجوا بني هاشم وبني المطلب من الشعب وذلك في السنة العاشرة من مبعثه (٧٥).

وكتب إبراهيم رفعت باشا في مرآة الحرمين:

القشاشية، في شرق المسجد الحرام ويطل عليها جبل أبي قبيس، وفي الجهة الشرقية منها شعب علي أو شعب بني هاشم (٧٦).

وقال ياقوت الحموي:

شعب أبي يوسف، هو الشعب الذي أوى إليه رسول الله صلوات الله عليه وآله وبنو هاشم لما تحالفت عليهم قريش، على بني هاشم... وكان لعبد المطلب فقسمة بين بنيه حين ضعف بصره، وكان النبي صلوات الله عليه وآله أخذ حظ أبيه وهو كان منزل بني هاشم ومساكنهم (٧٧). قال عاتق بن غيث البلادي بعد نقل هذا الموضوع في كتابه معجم معالم الحجاز:

ثم عرف هذا الشعب فيما بعد بشعب أبي صالب (٧٨)، ثم شعب بني هاشم ويُعرف اليوم بشعب علي، وهو الشعب الذي يسيل بطرف أبي قبيس من الشمال

بينه وبين الخندمة، فيه مولد رسول الله ﷺ وهو اليوم مكتبة مكة أي المولد، يصب سيله على سوق الليل فوق المسجد الحرام بحوالي ثلاثمائة متر. كانت عند مصبة بذر فهدمت سنة ١٣٩٩ هـ في توسعة شارع الغزة^(٧٩).

وجبل أبي قبيس، هو أحد أشهر جبال مكة، ومنه يبدأ شعب علي أو شعب أبي طالب ويمتد إلى خندمة، وقد استودع فيه الحجر الأسود أيام الطوفان وموضعه في شعب علي، أي المكان الذي ولد فيه الرسول ﷺ وذكر عبد الملك بن هشام أنه سمي بأبي قبيس بن شامخ، وهو رجل من جرهم، كان قد وشى بين عمرو بن مضاخ وبين ابنة عمه مية، فنذرت أن لا تكلمه، وكان شديد الكلف بها فحلف لأقتلن أبا قبيس، فهرب منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبره، فإما مات وإما تردى منه، فسُمي الجبل أبا قبيس لذلك، في خبر طويل ذكره ابن هشام صاحب السيرة في غير كتاب السيرة، وقال أبو المنذر هشام: أبو قبيس، الجبل الذي بمكة، كناه آدم عليه السلام بذلك حين اقتبس منه هذه النار التي بأيدي الناس إلى اليوم، من مَرَحَتَيْنِ نَزَلَتَا مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَبِي قَبَيْسٍ فَاحْتَكَّتَا، فَأَوْرَثَا نَارًا، فَاقْتَبَسَ مِنْهَا آدَمُ، فَلِذَلِكَ الْمَرْخُ إِذَا حُكَّ أَحَدُهَا بِالْآخَرِ، خَرَجَتْ مِنْهُ النَّارُ^(٨٠).

بعض شعاب مكة:

كما ذكرنا سابقاً، يوجد في الشمال الشرقي للمسجد الحرام ثلاث شعاب،

وهي:

١ - شعب علي أو شعب أبي طالب ويسمى اليوم بالقشاشية^(٨١) أيضاً.

٢ - شعب بني هاشم ويسمى أيضاً بـ «غزة».

٣ - شعب بني عامر.



كان يسكن في هذه الأماكن الثلاثة، منذ العصر الجاهلي فما تلاه، أجداد النبي ﷺ وأبناء عبد المطلب وأبو طالب وبني هاشم^(٨٢).

وكذلك بعض البيوت في شعب علي، وبعض دار ابن يوسف كانت لأبي طالب، وبعض دار ابن يوسف (مولد النبي ﷺ) وما حوله لأبي النبي ﷺ عبد الله بن عبد المطلب، وكذلك دار خالصة مولاة الخيزران، لعباس بن عبد المطلب ودار الطلوب مولاة زبيدة، حق المقوم بن عبد المطلب. وذكر غير واحد من المكين أن الشعب الذي يقال له: شعب ابن يوسف - وهو شعب علي وبجانبه سوق الليل، كان لهاشم بن عبد مناف دون الناس. وكان عبد المطلب قد قسم حقه بين ولده ودفع إليهم ذلك في حياته فن ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبد الله بن عبد المطلب، وللعباس بن عبد المطلب أيضاً الدار التي بين الصفا والمروة التي بيد ولد موسى بن عيسى التي إلى جنب الدار التي بيد جعفر بن سليمان، ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها العلم الذي يسعى منه من جاء من المروة إلى الصفا بأصلها، ويزعمون أنها كانت لهاشم بن عبد مناف، ولهم أيضاً دار أم هاني بنت أبي طالب - كان بجانب الباب المعروف باسمها - التي كانت عند الحناطين عند المنارة فدخلت في المسجد الحرام حين وسعه المهدي في الهدم الآخر سنة سبع وسبعين ومائة^(٨٣).

وقال أحمد السباعي:

... عند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها دار مال الله، وكانوا ينفقون فيها على المرضى ويطعمونهم، وبالقرب من الدار يلتوي شعب ابن يوسف وهو ما نسميه شعب علي، وفيه دور عبد المطلب بن هاشم ودور أخرى لأبي طالب وأخرى للعباس بن عبد المطلب وإذا عدنا إلى استقامتنا في شارعنا العام يصافحنا دار العاص في فوهة شعب بني عامر، ثم يلتوي شعب بني عامر في

دروب متعددة تقوم عليها دور لبني بكر، وأخرى لبني عبد المطلب بن عبد مناف ... ونغني قليلاً إلى المعلاة لنجد الجزارين عن يميننا في شعب أبي دب، ثم مكان المقابر وهي بعد حدود شعب عامر ... (٨٤).

صفوة القول:

إضافة إلى ما مرّ ذكره، فإن شعب علي وشعب بني هاشم وشعب بني عامر، قرب المسجد الحرام محددة بشكل دقيق على الخرائط الموجودة عن الحجاز - قديماً وحديثاً - ولم يطلق أحد اسم شعب أبي طالب على مقبرة أبي طالب الواقعة في شعب أبي دب، ولهذا فإن وجود الشعب في ذلك المكان مع كل هذه الأدلة والشواهد، يمكن تبريره بالنقاط التالية:

أولاً: أن المنطقة كانت موضع سكن تلك العائلة.

وثانياً: توفر امكانية الحياة، والاستفادة من مخزون الطعام والاشياء الأخرى الموجودة في الدور، والّا كيف يمكن البقاء على قيد الحياة لمدة ثلاث سنوات، ومقاومة الظروف القاسية في تلك المنطقة القاحلة الخالية من أي ظل يظلمهم من الشمس المحرقة، أو يقيهم هب الرضاء القاتلة؟!

ثالثاً: أن المنطقة المسماة اليوم بمقبرة أبي طالب، كانت في العصر الجاهلي مقبرة ايضاً. وليس من المعقول لرسول الله ﷺ ان يترك جميع المناطق الموجودة في مكة ويلتجئ إلى مقبرة هو وأبو طالب ومجموعة من النساء والأطفال! رابعاً: أن الحجون - كما أوضحنا سابقاً - تقع خارج مكة، وهذا لا يتسق والروايات القائلة بأن بكاء الأطفال كان يُسمع من خارج الشعب.

خامساً: جاء في بعض النصوص التاريخية أن الأوضاع كانت على درجة شديدة من القساوة، اضطر معها المحاصرون إلى أكل أوراق الأشجار



والْحَبْطُ (٨٥)(٨٦) بينما لم تكن هناك أيّة أشجار أو نباتات في المقبرة آنذاك حتى يتناولها المحاصرون.

سادساً: يتضح مما نقله الأزرقي أن الحجون لم يسكنها أحد حتى العام العاشر للهجرة، وظلت هذه المنطقة خارج مدينة مكة لعدة قرون.
سابعاً: لم تكن هذه المنطقة من مكة مسكونة أساساً، وما كان فيها زرع أو دور، حتى إن رسول الله ﷺ كان يضرب الخيام عند النزول فيها لعدة أيام.
قال أبو الوليد:

إن النبي ﷺ بعدما سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة، وكان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلى مكة فاضطرب به الابنية، قال عطاء: في حجته فعل ذلك أيضاً، ونزل أعلى مكة قبل التعريف، وليلة النفر نزل أعلى الوادي (٨٧)، ثم يضيف الأزرقي: قيل للنبي ﷺ يوم الفتح: ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ فقيل له ﷺ: فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك، فأبى وقال: لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً، وكان يأتي المسجد من الحجون.

ونقل سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله ﷺ مضطرباً بالحجون في الفتح يأتي لكل صلوة (٨٨).
يتضح مما سبق أن شعب أبي طالب كان في غير موضع مقبرة أبي طالب، ولا يعرف متى حصل هذا الخلط وما سببه!!

والمؤرخ الوحيد الذي احتمل أن يكون موضع شعب أبي طالب في منطقة الحجون هو الحلبي الذي قال بعد بيانه لموضع ولادة رسول الله ﷺ:

أقول: قد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بني هاشم، ثم رأيت التصريح بذلك، ولا ينافيه ما تقدم في الكلام على الحمل من أن

شعب أبي طالب وهو من جملة بني هاشم كان عند الحجون؛ لأنه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب. والله أعلم^(٨٩).

ولكن لا يوجد هنالك دليل يثبت صحة هذا النقل. وربما يفهم من كلمة «والله أعلم» التي أوردها الحلبي أنه لم يكن متأكداً من صحة ما نقله.

وعلى هذا فقد كان المسار الطبيعي للأحداث بالشكل التالي: أنه حينما تعرّض أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب للخطر الداهم من العدو التقوا حول أبي طالب لكونه شخصية معروفة ومهاب الجانب، واجتمعوا في موضع يعرف بشعب أبي طالب، وتولوا حراسته دفاعاً عن أنفسهم وعن النبي ﷺ ولما انتهت المقاطعة، خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب، وعادوا إلى منازلهم، ولم يرجعوا إلى الشعب مرة أخرى، والنصوص التاريخية تثبت هذا المعنى، إلا أن البعض لم يلتفت إليها.



الهوامش :

- (١) فقه العبادات (الحج): ٢٠٥.
- (٢) أبو دب كنية رجل من بني سُوءاة بن عامر، سكنه فسمي به، أخبار مكة للأزرقي ٢: ٢١٠ - معجم معالم الحجاز: ٥٦.
- (٣) أخبار مكة للأزرقي ٢: ٢٠٩.
- (٤) المصدر نفسه ٢: ٢٧٢ في هامشه.
- (٥) الصحاح ١: ١٥٦.
- (٦) لسان العرب ٧: ١٢٦.
- (٧) مجمع البحرين ٣: ٥١٣.
- (٨) مجمع البحرين ٢: ٥١٣.
- (٩) معجم البلدان ٣: ٣٩٣.
- (١٠) امرأة العقول ٥: ١٧٣ و ١٧٤.
- (١١) أخبار مكة للأزرقي ٢: ١٩٨.
- (١٢) المصدر نفسه، في هامشه.
- (١٣) أخبار مكة للفاكهي ٣: ٢٦٤.
- (١٤) المصدر نفسه.
- (١٥) كذا في الأصل وهو غريب، لأن الوليد بن عبد الملك توفي سنة ٩٦ والحجاج توفي سنة ٩٥. وقد استعمل الوليد خلال حكمه رجلين على مكة، أولهما خالد القسري، والثاني عمر بن عبد العزيز، ولم يستعمل على مكة سواهما. أنظر شفاء الغرام ٢: ١٧٢.
- (١٦) أخبار مكة للفاكهي ٣: ٢٦٦.
- (١٧) وكان الدار تقع على يسار الداخل إلى شعب علي، وبها مكتبة مكة المكرمة التابعة لوزارة الحج والأوقاف.
- (١٨) المصدر نفسه: ٢٦٩.
- (١٩) أي في بيت كان قريباً منها وكان البيت لعبد الله أو موضع نزوله، إذ كانت لأهل مكة في منى منازل وبيوت ينزلونها في الموسم، ويحتمل أن يكون المراد بالمنزل الخيمة المضروبة له هناك - امرأة العقول ٥: ١٧٣.
- (٢٠) كان محمد بن يوسف والياً على اليمن ومعروفاً بعدائه لآل علي عليه السلام توفي في اليمن في سنة مائة للهجرة أو قبلها بقليل - الوافي بالوفيات ٥: ٢٤٢.
- (٢١) الكافي ١: ٤٣٩.
- (٢٢) إتحاف الوري بأخبار أمّ القرى ١: ١٥.
- (٢٣) أعيان الشيعة ١: ٢١٩.
- (٢٤) قال البكري: ردم بني جُمَح بمكة، كانت فيه حرب بينهم وبين بني محارب بن فهر، فقتلت بنو محارب من بني جمح أشد القتل. فسمي ذلك الموضع بما رُدم عليه من القتلى - شفاء الغرام ١: ٤٣٢.
- (٢٥) العقد الثمين ١٨: ٢١٩ و ٢٢٠.

- (٢٦) السيرة الحلبية ١: ٦٢ و ٦٣.
- (٢٧) مروج الذهب ٢: ٢٧٤.
- (٢٨) المصدر نفسه: ٢٨٧.
- (٢٩) الكامل في التاريخ ١: ٢٩٤.
- (٣٠) تاريخ الأمم والملوك ٢: ١٢٤.
- (٣١) شفاء الغرام ١: ٤٣١.
- (٣٢) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ١: ٦٧.
- (٣٣) السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٦٧.
- (٣٤) نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز ١: ٦.
- (٣٥) القرى لقاصد أم القرى: ٦٦٤.
- (٣٦) الوافي بالوفيات ٥: ٢٤٢.
- (٣٧) فضائل مكة: ٢٣٢.
- (٣٨) السيرة الحلبية ١: ٥٧.
- (٣٩) في رحاب البيت الحرام: ٢٦٢.
- (٤٠) كذا في الأصل، ولكن الذي عند ابن جبير - ص ١٤١ - : «فتكون سعتها مع الفضّة المتصلة بها شبراً».
- (٤١) شفاء الغرام ١: ٤٣٣.
- (٤٢) توفي سنة ٧٥٨ هـ. الدرر الكامنة ٢: ١٩٦ و ١٩٧، رقم ١٩٥٠.
- (٤٣) هو يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الأمير الكبير المشهور. قتل سنة ٧٦٨ هـ. قال ابن حجر: كانت ليلغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ومعروف كثير في بلاد الحجاز. الدرر الكامنة ٤: ٤٣٨ - ٤٤٠، رقم ١٢١٨.
- (٤٤) شفاء الغرام ١: ٤٣٢ - ٤٣٤.
- (٤٥) بحار الأنوار ١٥: ٢٥١، رواية ٥ باب ٣.
- (٤٦) بحار الأنوار ١٥: ٢٧٦، رواية ٢٣.
- (٤٧) المصدر نفسه.
- (٤٨) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٧٥.
- (٤٩) أعيان الشيعة ١: ٣٣٥.
- (٥٠) بحار الأنوار ١٩: ١٨ و ١٩.
- (٥١) إتحاف الوري بأخبار أم القرى، الجزء الأول: ٢٨٣.
- (٥٢) المصدر نفسه: ٢٨٤.
- (٥٣) إتحاف الوري بأخبار أم القرى، الجزء الأول: ٢٨٤ - دلائل النبوة ٢: ٨١ - ٤٣: ٢ - ٤٤ - شرح المواهب ١: ٢٧٨ - ٢٧٩.
- (٥٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٣.
- (٥٥) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ١: ٩٤ - ٩٥.
- (٥٦) المصدر نفسه: ٩٦.



- (٥٧) بحار الأنوار ١٩: ١٦.
- (٥٨) طبقات ابن سعد، ١: ٢٠٩.
- (٥٩) الكامل في التاريخ ١: ٥٠٤.
- (٦٠) السيرة للذهبي: ٢٢١.
- (٦١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢: ١٠٨ - شرح النهج للمعتزلي ١٣: ٢٥٦.
- (٦٢) أعلام الوري: ٥٩ و ٦٠.
- (٦٣) تاريخ اليعقوبي ١: ٣٨٩.
- (٦٤) تاريخ الأمم والملوك ٢: ١٢٥.
- (٦٥) أصول الكافي ١: ٤٤٩.
- (٦٦) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢: ١٢٠ و ١٢١.
- (٦٧) البحار ٣٣: ١١٤ رواية ٤٠٨.
- (٦٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ٦٥.
- (٦٩) المصدر نفسه: ٥٩.
- (٧٠) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٢٢٥.
- (٧١) العقد الثمين ١: ٢٣٠.
- (٧٢) بحار الأنوار ١٨: ١٢٠ رواية ١٦.
- (٧٣) الطبقات الكبرى ١: ٢٠٩.
- (٧٤) تاريخ پیامبر اسلام (تاريخ حياة نبي الإسلام): ١٥٤.
- (٧٥) سيرة ساكن الحجاز، الجزء الاول: ١١٥.
- (٧٦) مرآة الحرمين ١: ١٨٠.
- (٧٧) معجم البلدان ٣: ٣٩٣.
- (٧٨) كذا في المتن، ويمكن أن يكون المراد شعب أبي طالب.
- (٧٩) معجم معالم الحجاز ٥: ٥٦.
- (٨٠) معجم البلدان ١: ١٠٣.
- (٨١) لعل القشاشية منسوبة إلى الشيخ القشاشي، وقد كان يسكن مكة حوالي القرن الحادي عشر «أنظر الجزء الثاني من كتاب تاريخ مكة للسباعي، حوادث الشريف أحمد بن عبد المطلب» من عهد الترك العثمانيين.
- (٨٢) مرآة الحرمين ١: ١٨٠ و ١٨١.
- (٨٣) أخبار مكة للزرقي ٢: ٢٣٣.
- (٨٤) أخبار مكة للسباعي: ٣١.
- (٨٥) الخَبَطُ: اسم الورق السَّاقَط. لسان العرب ٤: ١٦.
- (٨٦) الغدير ٧: ٣٦٣.
- (٨٧) أخبار مكة للزرقي ٢: ١٦١.
- (٨٨) المصدر نفسه.

رجال من الحرمين الشريفين
(٢)

عبد الله بن مسعود ورحلة الإيمان المباركة

محمد سليمان

أن قدم جمعٌ من عمومتي إلى مكة فرافقتهم، وكان في بغيتهم شراء عطر، فأرشدوا إلى العباس بن عبد المطلب الذي كان جالساً عند زمزم، فجلسوا إليه، وجلستُ معهم. فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا ... عليه ثوبان أبيضان، كأنه القمر ليلة البدر، يمشي على يمينه غلام، حسن الوجه ...، تقفونهم امرأة قد سترت محاسنها، حتى

أُعرف بـ(ابن مسعود)، اسمي عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، كنتي أبو عبد الرحمن، وقد اختارها لي رسول الله ﷺ. أمي أم عبد الهذلي، كان أبي حليفاً لبني زهرة. نشأتُ في مكة، وعملتُ أجيراً أُرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعيط.

سمعتُ بدعوة رسول الله ﷺ للإسلام، وكنتُ يوماً غلاماً يافعاً، بعد



أتيتُ النبيَّ ﷺ، وأسلمتُ على يديه مبكراً، فكنت من السابقين الأولين، حيث كنتُ سادس ستة ما على وجه الأرض مسلمٌ غيرنا.

كما كنتُ أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ في مكة. قرأت منه آيات بينات، فراحت تدوي في سماء الكعبة، وأفق مكة البعيد، بعد أن اجتمع - يوماً - أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله، ما سمعت قريش بهذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهموه؟ فقلت: أنا.

قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه. فقلت: دعوني، فإن الله سيمعني.

وغدوت من فوري حتى أتيتُ المقام في الضحى، وما إن صرتُ على بعد خطوات من زعماء قريش، وهم في أنديتهم حتى صحتُ بصوت عالٍ تجاوبت أصداءه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن، علم القرآن، خلق

قصد الحجر فاستلمه، ثم استلمه الغلام واستلمته المرأة. طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفان معه. ثم استقبل الركن، فرفع يديه وكبر، وقامت المرأة خلفها، فرفعت يديها وكبرت، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه من الركوع، ففقت ملياً، ثم سجد وسجد الغلام معه والمرأة، يتبعونه، يصنعون مثلما يصنع، فرأينا شيئاً أنكرناه، لم نكن نعرفه بمكة. فأقبلنا على العباس، وقلنا: يا أبا الفضل، إن هذا أمر لم نكن نعرفه فيكم!

قال: أجل، والله، ما تعرفون هذا؟

فقلنا: من يكون هؤلاء؟

قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله، والمرأة خديجة بنت خويلد امرأته، والغلام علي بن أبي طالب. أما والله ما على وجه الأرض أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

فعدتُ إلى عملي، وقد شُغلت نفسي بما رأت. وما هي إلا أيام حتى

الإنسان، علّمه البيان... ﴿١﴾ وأخذتُ أقرأ هذه السورة المباركة، فيما راح كلّ زعيم من زعماء قريش - الذين ذهلوا وأدهشوا، وكأن صاعقة نزلت عليهم من غرابة ما يسمعون - يلتفت للآخر سائلاً؟ ما يقول ابنُ أمّ عبد؟! ويأتيه الجواب: إنّه يتلو بعض ما جاء به محمد. وفجأة أسرعوا نحوي وملاح الغضب الذي تملكهم قد ارتسمت على وجوههم، ثمّ انهالوا عليّ بأيديهم وعصيهم، وقد غادرت الرحمة قلوبهم، وأنا أقرأ دون توقف حتّى بلغت من السورة ما شاء الله أن أبلغ، ثمّ انصرفوا إلى أصحابي، وقد أدّمي رأسي من كثرة الجراح.

قالوا: هذا الذي خشينا عليك. قلت: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئت لأغاديّهم بمثلها. فقالوا: لا، حسبك، فقد أسمعهم ما يكرهون.

لقد كان زعماء الشرك يتربصون

الدوائر بكلّ مؤمن بالإسلام، وبكلّ صادق بآيات القرآن الذي يطعن عقائدهم الضالة، ويسفّه عقولهم، ولهذا تراهم لا يكتفون بإرسال عيونهم لمتابعتنا ومراقبتنا بل يتابعوننا بأنفسهم. وأذكر أنّي ذهبتُ وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وسعيد بن زيد لنصلي بعيداً عن عيونهم، في شعبٍ من شعاب مكة، فإذا بنفر من مشركي مكة منهم أبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق وغيرهما يطلّعون علينا، سبونا وعابونا، فحدث بيننا وبينهم عراك، وكان بيد سعد بلحى جملٍ ضرب به أحد رجالهم فشجّ رأسه، فكان أول دم أريق منهم في الإسلام.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما حلّ بنا من البلاء، وما يُصيبنا من العذاب على أيدي قريش، قال: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ فيها ملكاً لا يُظلم أحدٌ عنده، وهي أرض صدق، حتّى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».



فكانت أول هجرة لي. وبعد عودتي منها هاجرتُ إلى يثرب حيث كان رسول الله ﷺ قد سبقنا إليها، فنلتُ بذلك وسام الهجرتين، فوسام البدرين عندما شاركت في معركة بدر الكبرى، وكان النصر حليف المؤمنين وهم قلة، والهزيمة والذل نصيب المشركين وهم كثرة.

وقد أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس أبو جهل الذي أصابه معوذ بن عفراء، فعدتُ إلى ساحة المعركة، وأجلتُ نظري فيها، فوجدتُ أبا جهل في آخر رمق من حياته الآتمة، التي كان من فصولها: الإعتداء على رسول الله ﷺ وتعذيب المؤمنين، وقتل سمية أمِّ عمار بن ياسر.

قلتُ له: الحمد لله الذي أخذك. قال: وبماذا أخزاني.. لمن الدائرة اليوم؟

قلت: لله ولرسوله.

ثم قال حين رأني على صدره أريد قتله: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا

رُويَ الغنم.

فقلت له: إنِّي قاتلك يا أبا جهل! قال: لست بأول عبد قتل سيده! أما إن أشد ما لقيته اليوم في نفسي لقتلك إياي، ألا يكون وليّ قتل رجل من الأحلاف أو من المطيبين.

فضربته ضربةً وقع رأسه بين يديه ... وأقبلتُ برأسه وبسلاحه ودرعه وبيضته فوضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، وقلتُ له: أبشر، يا نبي الله، بقتل عدو الله أبي جهل.

فقال رسول الله ﷺ: أحقاً، يا عبد الله؟ فو الذي نفسي بيده، هو أحب إليّ من حُمُر النعم، اللهم قد أنجزت ما وعدتني فتّم عليّ نعمتك. وسجد شكراً لله، ثم شهد لي بالجنة.

بعدها أمر النبي ﷺ بوضع قتلى المشركين في القليب، وعندها تذكرتُ: أن النبي ﷺ كان يُصلي يوماً عند البيت، وأبو جهل وأصحابه له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، وقد

نُحِرَتْ بِالْأَمْسِ، فَيُضَعُّهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ عَقِبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ. وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغَيِّرُ شَيْئاً، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ. فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيَمِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ بَعْدَ أَنْ أَسْرَعَتْ امْرَأَةٌ فَأَخْبَرَتْهَا، فَطَرَحَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ، وَرَفَعَتْ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بَقَرِيشَ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ، شَقَّ عَلَيْهِمْ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، وَكَانُوا يَرُونَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: (اللَّهُمَّ عَلَيْكَ يَا أَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بَعْتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ، وَأُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَعَقِبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ)، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ أَحْفَظْهُ.

فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرَغِي يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سَحَبُوا إِلَى الْقَلِيبِ، قَلِيبُ بَدْرٍ. فَنَالُوا بِذَلِكَ جَزَاءَهُمُ الْعَادِلَ.

وَوَقَعَتْ مَعْرَكَةٌ أَحَدُ فَكَنْتُ مِنَ الَّذِينَ اسْتَمَاتُوا بِالذَّبِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ أَمَامَ السَّيْلِ الْمَتَدَفِّعِ مِنْ مُشْرِكِي قَرِيشَ، الَّذِي يَسْتَهْدَفُ قَتْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ حَلَّتْ بِنَا هَزِيمَةً بَعْدَ نَصْرٍ، كَانَ سَبَبُهَا مُخَالَفَةُ الرَّمَاةِ أَمْرَ رَسُولٍ:

«لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقَتِّلُ فَلَا تَنْتَصِرُونَا». وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (٢) فِي أَوَّلِكَ الرَّمَاةِ الَّذِينَ تَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَرِيقٌ سَالَ لِعَابِهِ حِينَ رَأَى الْغَنَائِمَ الَّتِي خَلَفَهَا الْمُشْرِكُونَ وَرَاءَهُمْ، فَتَرَكَ مَوْضِعَهُ، وَفَرِيقٌ قَلِيلٌ ثَبَتَ مَكَانَهُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ فَاسْتَشْهَدَ عَنْ آخِرِهِ.

وَفِي مَعْرَكَةِ حَنِينٍ، رَكْنَا إِلَى قَوْتِنَا وَكَثَرْتَنَا، حَتَّى قَالَ قَائِلٌ مَنَا: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ، فَشَدَّتْ كِتَابُ الْعَدُوِّ



علينا شدة رجل واحد، وأصبنا بهزيمة مباغته أول القتال، فتفرقت جموع المسلمين الذين انتابهم الخوف والذعر، فيما راحت جماعة منا تقدر بثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وكنت أحدهم تحيط برسول الله ﷺ، الذي علا صهوة بغلته البيضاء وسط المعركة، وهو يصيح بالمنهزمين: إلى أين أيها الناس؟ هلموا إليّ - هلموا إليّ ... أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله.

أنا النبي لا كذب

أنا بن عبد المطلب اللهم نزل نصرك، اللهم نزل نصرك ... وإذا بالجموع المنهزمة تعود إلى ساحة المعركة، وقد غطت تكبيرتهم وتلييتهم فضاء الوادي، فكان النصر بعد الهزيمة، وكان الظفر بعد المذلة والهوان، وما رجعنا إلا وقتلى المشركين قد ملأت ذلك الوادي، وأسراهم في الحبال عند رسول الله ﷺ.

ثم تعال معي - عزيزي - لنقرأ كيف صوّر لنا القرآن الكريم هذه

الواقعة أفضل تصوير بأعظم بيان. ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم توليتم مدبرين • ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين • ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفورٌ رحيم﴾ (٣).

وبداً رسول الله ﷺ بتقسيم غنائم حنين على المسلمين، وعندها سمعت رجلاً يقول: إن هذه القسمة ما عدل فيها، ما أريد بها وجه الله. فقلت؟ فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟

وأتي النبي ﷺ فأخبرته، فتغيّر لونه حتى ندمت على ما صنعت، ووددت أني لم أخبره. ثم قال ﷺ: «رحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر».

وأنزل الله تعالى: ﴿ومنهم من

يلمزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴿٤﴾.

لقد شهدت مع رسول الله ﷺ كل مشاهدته، ولم أتخلف عنه أبداً، ولا غربة في ذلك، فلقد تشرفت بخدمته، ورافقته في حله وترحاله، حتى صرتُ صاحب سرّه. قال لي رسول الله ﷺ: «إذنك عليّ أن تسمع سيّادي (سرّي)، ويُرفَع الحجاب، حتى أنْهاك». فكنت أُلج عليه، وألبسه نعليه، وأمشي معه، وأستره إذا اغتسل، وأوقفه إذا نام، ولهذا كلّه ولغيره عرفتُ عند الصحابة بصاحب السواد والسواك، وصاحب سرّ رسول الله. ولهذا أيضاً ترى بعضهم يعدّني وأمّي من آل النبي ﷺ لكثرة دخولنا عليهم ولزومنا لهم. قال في الصحابي الجليل حذيفة: «كان أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله ﷺ ابن مسعود، حتى يتوارى عنا في بيته. ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أنه من أقربهم إلى

الله زلفاً». وكانت ملازمتي لرسول الله فرصةً مباركة، نافعة لي، تزوّدت منه إيماناً وحكمةً وأدباً، واستقيتُ منه علماً ومعرفةً، حتى صرتُ فقيهاً في الدين، عالماً بالقضاء وأحكامه، عارفاً بالقرآن وعلومه: ناسخه ومنسوخه، متشابهه ومحكمه... تلقّيت كل ذلك من رسول الله ﷺ وبفضل وبركة صحبتي له. لقد أخذتُ من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنني أعلمهم بكتاب الله. فما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلمُ حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلمُ فيم أنزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلمُ مني لرحلتُ إليه، وما سمعتُ أحداً يرّد هذا عليّ ولا يعيبه. ولكني أذكر أن رجلاً قال لي يوماً: سمعتك تقول: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبْلغه المطايا لرحلتُ إليه».

فقلتُ: نعم قلت: هذا.

فقال: فأين أنت عن عليّ.

قلت: به بدأتُ، إنّي قرأتُ عليه.



وأضيف - أيضاً - أنني قرأت سبعين سورة على رسول الله ﷺ، وختمت القرآن على خير الناس بعده، علي بن أبي طالب ... وأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما من حرفٍ إلا وله ظهر و بطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن.

كما كنت محباً للقرآن، حاملاً له، عارفاً بقراءته، مجيداً لها، حسن الصوت به، وكنت أعدّ من القراء، ولفظة القراء هذه لا تطلق إلا على نخبة قليلة تختص بقراءة القرآن، من بين عدد ممن يعرفون القراءة في مجتمعنا الذي غلبت عليه الأمية. وقد قال في رسول الله ﷺ: «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غصاً أو رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد» وأمّ عبد كنية أمي. وشهد لي عليّ عليه السلام أنني أول من قرأ آية من كتاب الله على ظهر قلب بقوله: «أول من قرأ آية من كتاب الله عن ظهر قلبه ابن مسعود».

وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ

يجب أن يسمع القرآن مني، وذات مرة قال لي: اقرأ عليّ يا عبد الله. قلت: اقرأ عليك، وعليك أنزل يا رسول الله؟ فقال ﷺ: إني أحبُّ أن أسمع من غيري.

فأخذتُ أقرأ من سورة النساء، حتّى إذا بلغت قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فاضت عينا رسول الله ﷺ من الخشوع والخشية والإخبات لله ولتنزيله.

ولطالما جاءني بعض الصحابة إلى بيتي ليسمعوا مني قراءة القرآن وتفسيره؛ ولأن قراءتي هكذا كانت، ترى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل الأمويين، الذي عرف بمكره واشتهر بإجرامه وتعطشه للقتل وتعذيب الناس، تراه يمنع قراءة القرآن كما قرأته، فيقول في ضمن كلمة له يهدّد ويتوعد بها الناس: «... ولا أجد أحداً

يقرأ عليّ قراءة ابن أمّ عبد إلا ضربت عنقه...».

وكنْتُ من الذين نزلت فيهم:

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه...﴾ (٥)

نزلت في ستة نفر وأنا واحد منهم، حينما كنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فقال بعض زعماء قريش: إنّنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم عنك. فأنزل الله هذه الآية.

﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ (٦) كنت من هذا القليل الذي استثناه الله تعالى، فقد قلنا: والله لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذي عافانا، فقال رسول الله ﷺ: إنّ من أمتي رجالاً، الإيمان في قلوبهم أنبت من الجبال الرواسي.

﴿الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجر عظيم﴾ (٧)، نزلت هذه الآية في الذين أجابوا دعوة

الرسول ﷺ مع ما فيهم من جراح وآلام شديدة في يوم أحد، وكنت منهم، ندبنا الرسول ﷺ لنعود إلى المشركين فنقاتلهم.

ولما نزلت ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طمعوا إذا ما اتّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ (٨).

قال رسول الله ﷺ لي: أنت منهم. فكانت فرحتي بذلك عظيمة جداً.

نلتُ شرف الرواية عن رسول الله ﷺ حتّى تجدني في بعض الكتب الحديثية أدعى بـ(عبد الله بن المسعود الراوي)، فقد ورد لي في كتب الحديث الكثير من الروايات المتّفق على صحتّها، كما أن جمعاً من أعيان الصحابة والتابعين روى عني. وما نقلتُ حديثاً عن رسول الله ﷺ حتّى تغير لون وجهي، وانتفخت أوداجي، وعلتني كآبة وانحدر عرقي من جبيني، ودمعت عينا، وأقول في بداية نقلي



للحديث: أو قريباً من هذا، أو نحو هذا، أو شبه هذا. كل ذلك خوفاً من الزيادة والنقصان، أو السهو والنسيان، فأكون قد حكيت عن رسول الله ﷺ ما لم يقله، أو أدخل في الدين ما ليس منه. أذكر بعض ما رويته:

□ من صلى صلاة لم يصل فيها علياً وعلى أهل بيتي لم تقبل منه.

□ سبأ المسلم فسوق، وقتاله كفر.

□ سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال ﷺ: «ثم برّ الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال ﷺ: «الجهاد في سبيل الله». حدّثني بهنّ، ولو استزدته لزادني.

□ إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه.

□ إنّ الصدق يهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنّة، وإنّ الرجل ليصدق حتّى يكون صديقاً، وإنّ

الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وإنّ الرجل ليكذب حتّى يكتب عنه الله كذاباً. □ سمعت رسول الله ﷺ يقول بحقّ الصحابي الجليل «أبو ذر الغفاري»: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده، ويشهده عصاة من المؤمنين» وكان ذلك في مسيره إلى تبوك، حيث وقف بأبي ذر جملة فتخلف عليه، فلمّا أبطأ أخذ رحله عنه، وحمله على ظهره، وتبع النبي ﷺ ماشياً، فنظر الناس وقالوا: يا رسول الله! هذا رجل على الطريق وحده.

فقال ﷺ: كن أبا ذر،

فلما تأمله الناس، قالوا: هو أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده ...

وبقيت طيلة سنين أفكّر بهذا القول حتّى نفى عثمان أبا ذر إلى الربرة وهو مكان يكرهه كثيراً، فأصابه بها أجله، ولم يكن معه إلا امرأته وغلّامه،

فأوصاهما أن يغسلاه، ويكفناه ثم يضعاه على الطريق، فأول ركب يمرّ بهما يستعينا به على دفنه، ففعلوا ذلك. فإذا بي في رهط من أهل العراق، فأعلمتنا إمرأته بموته، حزناً حزناً شديداً، ورحنا نبكي عليه بدموع غزيرة، وقلتُ صدق حبيبي رسول الله ﷺ: لقد سمعته يقول: «يرحم الله أبا ذر...، ويموت وحده، ويبعث وحده، ويشهده عصابة من المؤمنين» ثم واريناه الثرى في سنة ٣٢ هـ.

فلك الله يا أبا ذر، ما أنصفوك في شيء.

□ ومن أدعيته عليه السلام التي رويتها هذا الدعاء:

ما من عبدٍ أصابه همٌّ، فقال: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو ذكرته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب

عندك، أن تجعل القرآن ضياءً صدري، وربيع قلبي، وجلالاً حزني، وذهاب همّي» إلا أذهب الله همّه، وبدّله مكان حزنه فرحاً. ولو راجعت كتب التفسير، ومعاجم القراءات لوجدت لي قراءات أختصّ بها وحدي بلغت أربعاً وسبعين قراءة، وأخرى شاركتُ فيها آخرين، وتجد لي آراءً في القرآن وتفسير آياته أنفرد بها، وأخرى أشارك فيها غيري، كما أنّ لي آراءً في الفقه، وفتاوى. وحكم وأقوال تناثرت في بطون الكتب، ببركات البيت النبوي الذي عشتُ في كنفه، وارتويتُ من ينبوع إيمانه وعلمه وأدبه وحكمته.

وهذه باقة من حكم وأدعية وأقوال لي:

□ ليس من الناس أحدٌ إلا وهو ضيفٌ على الدنيا، وماله عارية: فالضيف مرتحل، والعارية مردودة.

□ إنّ الرجل لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم.



□ ما من شيء أولى بطول سجن من لسان.

ومن دعائي: اللهم وسع عليّ من في الدنيا وزهدي فيها، ولا تُزوها (تبعدها) عني وترغبني فيها ...

وإن لي دعاء ما أكاد أدعه: اللهم إني أسألك إيماناً لا يبيد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع.

□ إن في كتاب الله آيتين، ما أصاب عبدٌ ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾^(٩).

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾^(١٠).

□ إن عملتم في دينكم بالقياس، أحللتكم كثيراً مما حرّم الله، وحرّمتكم كثيراً مما أحلّ الله.

ومن خطبة لي:

أصدق الحديث كتابُ الله، وأوثق العرى كلمة التقوى خير زاد، وأكرم الملل ملّة إبراهيم عليه السلام، وخير السنن سنّة محمد ﷺ .. وما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى، لنفسٍ تحيها خيرٌ من إمارة لا تُحصيها. خير الغنى غنى النفس. وخير ما أُلقي في القلب اليقين. الخمر جماع الآثام ... من يغفر يُغفر له، مكتوب في ديوان المحسنين. من عفا عُفي عنه، ... السعيد من وعظ بغيره ... أحسن الهدى هدى الأنبياء، أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى، أشرف الموت الشهادة ...

عرف الصحابة قدري، ومنزلتي عند رسول الله ﷺ، وسبقي وفضلي في الإسلام.

فقد ارتقيت - يوماً - شجرة لأجتنى من ثمرها للصحابة وهم ينظرون إلى دقة ساقِي ويضحكون، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما

يضحككم! أو تعجبون من دقة ساقيه؛
فو الذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان
يوم القيامة من أحد.

وقد سمع عليُّ عليه السلام - يوماً - ثناء
جمع من الصحابة عليَّ حيث قالوا: ما
رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق
تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشدَّ
ورعاً من ابن مسعود. فقال عليه السلام:
«أتشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم؟
قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد أني أقول
مثل ما قالوا، وأفضل من قرأ القرآن،
وأحلّ حلاله، وحرّم حرامه، فقيه في
الدين، عالم بالسنة».

وها هو الخليفة الثاني عمر بن
الخطاب، يعين عمار بن ياسر والياً على
الكوفة، ويجعلني وزيراً ومعلماً في
كتاب واحد سنة ٢١ هـ، جاء فيه:

«إنني قد بعثتُ عمار بن ياسر
أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً
ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب
رسول الله صلّى الله عليه وآله، من أهل بدر، فاقتدوا
بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد

أثرتكم بعبد الله عليّ نفسي».
فكنت في الكوفة معلماً للقرآن،
وفقيهاً في الدين، وأميناً على بيت مال
المسلمين، حتّى آل أمر الخلافة إلى
عثمان، فبعث الوليد بن عقبة بن أبي
معيط والياً على الكوفة في السنة الثانية
من خلافته، وعقبة هذا من الدّ أعداء
رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد قتله عليّ بن أبي
طالب بأمر رسول الله صبراً بعد أسره
في معركة بدر، وأنزل الله فيه: ﴿ويوم
يعصّ الظالم عليّ يديه يقول يا ليتني
اتخذتُ مع الرسول سبيلاً • يا ويلتي
لم أتخذ فلاناً خليلاً • لقد أضلني عن
الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان
للإنسان خذولاً﴾ (١١).

أما ابنه الوليد فقد أسلم يوم
فتح مكة، وكان فاسقاً بنصّ القرآن:
﴿يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق
بنياً فتيّبوا أن تصيبوا قوماً بجهالة
فتصبحوا عليّ ما فعلتم نادمين﴾ (١٢).

جرت بيني وبين الوليد هذا
مشادة وخصومة، بعد أن استقرض



فأمر عثمان الوليد بإشخاصي إليه في المدينة، فما كان من أهل الكوفة إلا أن اجتمعوا بسلاحهم حولي قائلين: أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه، فقلت: إني لا أحب أن أكون أول من فتح باب فتن لا تبقى ولا تذر. فأوصيتهم بتقوى الله، ولزوم القرآن.

ثم خرجت من الكوفة فيما راح أهلها يودعونني بحزن وأسى قائلين: جزيت خيراً، فلقد علمت جاهلنا، وثبت عالمنا، وأقرأتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، فنعم أخو الإسلام أنت، ونعم الخليل ...

ولما وصلتُ مسجد رسول الله ﷺ في المدينة إذ الخليفة يلقي كلمته، فلما رأياني قال: ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه بقيء ويسلح.

فقلت: لستُ كذلك، ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان.

مالاً من بيت مال المسلمين ولم يُرجعه، فأرسل الى عثمان يخبره بمطالبي له بإعادة المال، وبدل أن يقف الخليفة بجانبني كتب إلي: «إنما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما أخذه من المال». فلم يتأخر جوابي: «كنت أظن أني خازن لمال المسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك». ثم خرجت إلى مسجد الكوفة وقلت: «يا أهل الكوفة، فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب لي بها براءة ...».

ثم أعلنتُ استقالتي، وقلت: «مَنْ غَيَّرَ غَيْرَ اللَّهِ مَا بِهِ، وَمَنْ بَدَّلَ أَسْخَطَ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا أَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا وَقَدْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ ... إِنَّ أَصْدَقَ الْقَوْلِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

فلما سمع الوليد كل ذلك، كتب كتاباً آخر إلى الخليفة عثمان قال فيه: إنه يعيبك، ويطعن عليك.

وقد أثار كلام الخليفة أمّ المؤمنين عائشة فقالت: أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله؟ فقال لها: أسكتي. ثم أمر بإخراجه من المسجد، فضربت وأخرجت. ومنع عطائي سنتين، وأمر بمقاطعتي، ولم يأذن لي بمغادرة المدينة. وتوجه عليّ عليه السلام نحو الخليفة قائلاً:

يا عثمان، أتفعل هذا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الوليد بن عتبة؟ فقال: ما يقول الوليد فعلتُ هذا، ولكن وجهتُ زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة، فقال له ابن مسعود: إنّ دم عثمان حلال فردّ عليه عليّ عليه السلام: أحلت عليّ زبيد عليّ غير ثقة.

ثم حملني عليّ عليه السلام إلى منزله، فقام برعايتي وتعاهدني حتى شفيت من آثار ضربهم لي.

ولما مرضتُ مرضي الذي متّ فيه، دخل عليّ الخليفة عائداً، وقال لي:

ما تشتكى؟ فقلت: ذنوبي. فقال: فما تشتهي؟ فقلت: رحمة ربي. قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قلتُ: الطبيب أمرضني. قال: أمر لك بعطائك؟ قلت: منعته وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه. قال: يكون لولدك. قلتُ: رزقهم عليّ الله. قال: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن. قلتُ: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي. ثم غادر بيتي دون أن يحصل عليّ رضي.

مات عبد الله بن مسعود عن ستين عاماً، وصلى عليه حبيبُه عمّار بن ياسر مع جمع من أصحابه، ودفن ليلاً في البقيع سنة ٣٢هـ.

فسلام عليك يا أبا عبد الرحمن في الخالدين.

إنّ الكتب التي ذكرت حياة هذا الصحابي الجليل، وكلّ ما يتعلّق به عديدة، أكتفي هنا بذكر ما اعتمدته في هذه الترجمة له.

- ١- مختصر (تاريخ دمشق لابن عساكر) لابن منظور؛ تحقيق رويّة النحاس - دار الفكر.
- ٢- الكامل لابن الأثير.
- ٣- حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني ج ١ - إصدار دار الفكر.
- ٤- تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري.
- ٥- المغازي للواقدي.
- ٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير ج ٣.
- ٧- العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي.
- ٨- ربيع الأبرار ج ٢.
- ٩- أحاديث أم المؤمنين عائشة للسيد العسكري.
- ١٠- صحيح البخاري.
- ١١- صحيح مسلم.
- ١٢- التاريخ الجامع للأصول للشيخ منصور ناصيف.
- ١٣- أضواء على السنّة النبويّة لمحمود أبورية.
- ١٤- السيرة النبويّة لابن هشام ج ١، ج ٢.
- ١٥- ترجمة الإمام عليّ عليه السلام من تاريخ مدينة دمشق، تحقيق المحمودي ج ٣.
- ١٦- معجم القراءات القرآنية - إعداد الدكتور أحمد مختار عمر والدكتور عبد العال سالم مكرم.
- ١٧- تاريخ المدينة المنورة - ابن شبة مجلد ٣ - ٤.
- ١٨- العدة - الشيخ الطوسي.

الهوامش :

- (١) سورة الرحمن . استدللّ البعض بهذه القصة على أن سورة الرحمن مكّيّة .
(٢) آل عمران : ١٥٢ .

(٣) التوبة : ٢٥ - ٢٧ .

(٤) التوبة : ٥٨ .

(٥) الأنعام : ٥٢ .

(٦) النساء : ٦٦ .

(٧) آل عمران : ١٧٢ .

(٨) المائدة : ٩٣ .

(٩) آل عمران : ١٣٥ .

(١٠) النساء : ١١٠ .

(١١) الفرقان : ٢٧ - ٢٨ .

(١٢) الحجرات : ٦ .

أحمد الواسطي
أبعاد التأثيرات الفكرية والأدبية
على العقلية اليهودية في الجزيرة العربية

المقدمة:

تأثرت العقلية اليهودية في المجالات الفكرية والأدبية بالمسلمين في الجزيرة العربية، حيث نجد هذا التأثير واضحاً وجلياً علىنتاجات اليهود اللغوية والأدبية، التي أخذت تحاكي فيها الأساليب اللغوية والأدبية للمسلمين، هذا فضلاً عن تأثرها بالآداب الأوروبية. ويحاول اليهود من خلال وسائلهم الإعلامية، وما ي ألفون من كتب ونشرات أن يظهروا مكانتهم الفكرية والأدبية، ويجعلوا من الجزيرة العربية أرضاً يهودية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحاولون ربط دورهم التاريخي بدور إبراهيم الخليل عليه السلام، مع العلم بأن الجزيرة العربية طوال التاريخ لم تكن أرضاً يهودية، كما أن دورهم كان متأخراً كثيراً عن

دور إبراهيم الخليل عليه السلام.

مُنح اليهود صفة (أهل الكتاب) أو (أهل الذمة) عندما انتشر الإسلام، حيث أصبحت الدولة الإسلامية مسؤولة عن سلامتهم، فأخذوا بعلمهم المسلمين، وألقوا - للمرة الأولى في التاريخ - كتب النحو ومعجم الألفاظ تقليداً للمسلمين العرب، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نجد أن الشعراء اليهود قرضوا الشعر العبري وفقاً للأبجديات الشعرية المألوفة في اللغة العربية. وتناولت فنون الشعر العبري في ذلك الوقت جميع الأغراض المعروفة في الشعر العربي كالمديح، والهجاء، والفخر، والثناء، والحكمة، والوصف

فالشاعر اليهودي يهوذا الحريزي يقول في المدح:

لِليقي كل ياقار نافية في نلفيه في هولفيت بئير عل روش مشيحاف^(١)
أي: لصاحبنا اللاوى احترام ورفعة، فقد بات اكليلاً على الشعراء
كما نجد أن الشعراء اليهود، حاكوا الشعراء العرب في النظم العلمي والتعليمي، وفي نظم الأحاجي والألغاز^(٢).
ولم يؤلف اليهود كتباً علمية في قواعد لغتهم إلا بعد أن تتلمذوا على يد المسلمين العرب، ونشأوا في عهد الثقافة الإسلامية نشأة مكنتهم من فهم العلوم العربية على اختلاف أنواعها.

فظهر سعيد بن يوسف الفيومي فيلسوف اليهود في القرن العاشر^(٣). وكان أوّل النحاة العبريين، الذين وضعوا قواعد النحو العبري على غرار قواعد اللغة العربية وليس هذا فحسب، بل أخذ الكثير من العلوم الدينية، وتشرّبت روحه بمذهب «المعتزلة»، ويظهر هذا التأثير جلياً في معالجته الديانة اليهودية، ويعده النحاة اليهود أبا النحو العبري.

ونقل اليهود إلى لغتهم العلوم الإسلامية كاللاهوت، والطب والفلسفة،



وغيرها من أمثال كتب ابن سينا، «تهافت الفلاسفة» للغزالي، و«تهافت التهافت» لابن رشد.

ويقول الناقد (يهوذا الحريزي) بأسلوب حماسي: «إعلم أن الشعر البديع الحافل بالآلئ قد كان في بادئ الأمر ملكاً مقصوراً على أبناء العرب المسلمين وحدهم، وقد وزنوه بموازين صادقة، وهم يفوقون في شعرهم شعراء العالم قاطبة ... ومع أن لكل أمة شعراءها، فإن جميع شعرهم لا قيمة له، ولا وزن في مقابل شعر الإسماعيليين (أي المسلمين العرب) لأنهم - وحدهم - المستأثرون بالشعر العذب في لفظه، الجميل في فحواه ومعناه.

ثم يضيف الناقد العبري الحريزي، متحدثاً عن تأثير الشعر العربي في الشعر العبري بقوله: إن بني شعبنا بعد جلائهم عن أرض كنعان، قد قطن الكثيرون منهم مع العرب المسلمين في أوطانهم، وألفوا التحدث بلغتهم، والتفكير بتفكيرهم، وبامتزاجهم بهم تعلموا منهم صناعة الشعر الموزون في اللغة العبرية ...»^(٤).

والجدير بالذكر أن الشعراء اليهود عرفوا الأساليب البلاغية المألوفة آنئذٍ عند العرب المسلمين، التي بها كانوا يزينون قصائدهم ويحلّون أشعارهم. كما أن «بني إسرائيل» أول من دان باليهودية، لكنهم لم يكونوا وحدهم اليهود حتى في زمانهم^(٥). ولم تعرف باسم (اللغة العبرية) إلا بعد السبي البابلي^(٦). ولما استوطن (بنو إسرائيل) أرض كنعان، وعرفوا المدينة والحضارة، صاروا ينفرون من كلمة (عبري) التي كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا باسم (بني إسرائيل) فقط^(٧).

ولا يوجد في صحف العهد القديم ما يدلّ على أنّهم كانوا يسمّون لغة (بني إسرائيل) (باللغة العبرية)، بل كانت تارة تعرف باسم اللغة اليهودية: «يهوديت»

كما هو واضح في [سفر اشعيا] (٨).

دَقِيرْنَا إِلْ عَقَادِيمَا أَرَامِيَت كَيِّ شِمْعِيم أَنْحُنُو قِي أَلْ تَدَيِّرْ إِبْلِينُو يَهُودِيَت
بَأُزْنِيَه هَاعَام أَشِيرْ عَلْ هَحُومَا.
ويعني: كَلِّم عبيدك باللغة الأرامية ولا تكلِّمنا «باللغة اليهودية» في مسامع
الشعب الذي على السور.
وتارةً تعرف باسم (لغة كنعان): (٩)

بِیَوْم هَهُوَا يَهْيُو حَامِيش عَارِيم بِإِيرِصْ مِضْرِيم مِدْقُرُوت سِفَتْ كِنْعَن قِي
نَشْبَاعُوت لَيْهَقَا صِقَاءُوت عِيرْ هَهِيرِصْ يَامِيرْ لِإِحَات.
ويعني هذا النص: كان في ذلك اليوم بأرض مصر خمس مدن تتكلَّم (بلغة
كنعان)، وتحلف برب الجنود، وتسمى إحدى هذه المدن مدينة الشمس.
ولقد كشفت في (تل العمارنة) بمصر رسائل يرجع تاريخها إلى القرن الرابع
عشر (ق.م)، وإلى عصر الملك (أمون حوطف)، حيث كان «بنو إسرائيل» لا
يزالون تحت سيطرة (مصر)، فقد ذكرت هذه الرسائل الموجهة من أمراء فلسطين
والكنعانيين إلى عزيز مصر، أن قبائل (عبيري) أو (حبيري) تغزو فلسطين
وتتوغَّل من ناحية الصحراء في بلاد خاضعة للنفوذ المصري، ويطلبون منه
النجدة (١٠).

قلعة خيبر

وبقيت عقلية (الأديب الإسرائيلي) مطبوعة بطابع الصحراء في عصور الحضارة؛ لأنّ علاقة «بني إسرائيل» بأمم الصحراء لم تنقطع في عصر من العصور، ولا شك أن عادات «بني إسرائيل»، وأخلاقهم الاجتماعية في عصورهم الأولى كانت متأثرة بأخلاق وعادات العرب في الجاهلية، وأن كثيراً من أسماء الأعلام العبرية القديمة شائعة الاستعمال عند العرب في الجاهلية مثل:

(عوقُديا) وتعني: عبد الله و (سَعُديا) تعني: السعد و (عفرا) تعني: عفراء^(١١).

المصطلح العبري:

كان مصطلح (العبري) أو (العبراني) يطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب، وغيرهم من الأقوام العربية، حتى صارت كلمة (عبري) مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام^(١٢).

وقد ورد اسم (عبريو) في ورقتين من أوراق البردي كُتبتا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وفي عهد ملك مصر (رمسيس الثاني) من الأسرة التاسعة عشرة، الذي حكم من سنة ١٢٩٢ إلى سنة ١٢٢٥ ق.م موجودتين في متحف لايد في هولنده^(١٣). غير أن (جون أ. هامرين) يحسم هذه المعلومة في المجلد الثاني من مصنّفه الضخم (تاريخ العالم)^(١٤) بالقول: «إنّ الاعتقاد بكون «الخبيرو» أو «العبريو» هم ذاتهم عين العبريين قد ظلّ لزمان طويل يؤيده ذلك التشابه في الأسماء، بيد أنه من العسير علينا القول بهذا الرأي لعدم وجود شواهد تؤيده». ويستدل (هامرين) في تدعيم رأيه بما ذهب إليه الأستاذ (واردل) [Prof Wardle] في مصنّفه الحديث (إسرائيل وبابل) [Israel and Babylon] بشأن القلاقل التي سبّبتها قبائل «الخبيرو» التي هاجمت فلسطين خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فاستنجد أمراؤها الذين كانوا خاضعين بالاسم لمصر بالفراعنة، الأمر الذي سجّلت وقائعه ألواح (تل العمارنة) المشهورة من سياق رسائل بلاطي (المنحتب الثالث) و (المنحتب الرابع) (اخناتون) أي: من ١٤٠٠ - ١٣٦٠ ق.م) على وجه التقريب حين ذكر (واردل) أن مجيء الغزاة من الصحراء



كان من الحوادث المألوفة في تاريخ فلسطين القديم، وذكر أن (الخبيرو) لم يكونوا عبرانيين، حيث كانوا أكبر بكثير من الشعب العبري (١٥).

دور إبراهيم الخليل عليه السلام يسبق دور اليهود:

يمكن تحديد عصر إبراهيم عليه السلام وفقاً لسير الأحداث التاريخية، والموافق للمنطق الحسابي العقلي العام ١٩٥٠ ق.م - تقريباً - مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة التوقف لحظات عند مسألة تحديد تواريخ الأحداث القديمة، التي لا بد من أن يقال عنها: إنها تقريبية إلى أبعد الحدود، وقد أفرد العالم الألماني المعاصر (كورت مارك) [Kirt W.Marek] فصلاً طويلاً لمناقشتها في كتابه المنشور عام ١٩٥٥ بعنوان Lesectetdes Hittespon «أسرار الحثيين» نجتزئ منه هذه الفقرة من الفصل الثامن «علم التواريخ»: (١٦)

«إن أول عام حُدّد لابتداء التاريخ المصري، وهو تأسيس أول سلالة من قبل الملك مينيس (ميناء) الذي حقق وحدة مصر، قد جرى تعديله على التوالي، وخلال قرن واحد من الزمن وعلى مرّ الاكتشافات الجديدة، فقدّم من العام ٥٨٧٦ ق.م إلى العام ٢٩٠٠ ق.م ومع ذلك ليس هناك أي برهان على أن هذا التاريخ الأخير صحيح ونهائي».

وفي ضوء ما يقوله «ب مونت» P.Montet ودانيل روبس Daniel Rops وغيرهما من المتخصصين (١٧) بشأن تواكب حركة الهكسوس نحو مصر في القرن السابع عشر ق.م مع وصول يوسف وآله، وأنه في مدينه «أفاريس» بالدلتا، استقبل عاهل هكسوسي يوسف وأخوته استقبلاً حسناً.

كما نجد أن بعض الباحثين يغالطون أنفسهم بربط تاريخ بني إسرائيل بميلاد إبراهيم أبي الأنبياء - عليه وعليهم السلام -، أي مع منتصف القرن العشرين قبل

الميلاد، بينما يربط عدد آخر من الباحثين تاريخ «بني إسرائيل» بموسى ﷺ وهو خطأ آخر جسيم، كذلك رأينا فريقاً ثالثاً يرجع تاريخ اليهود إلى زمن الأكديين بالعراق، في حين نجد فريقاً رابعاً يجعل تاريخهم مواكباً لتلك الدفقات البشرية السامية (نسبة إلى سام بن نوح)، التي خفق بها قلب الجزيرة العربية في صورة هجرات متعاقبة إلى أطراف الجزيرة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.

وهذه الآراء جميعها على خلاف السياق المنطقي لتسلسل أحداث المنطقة، وخلافاً لما أثبتته الأحافير الأثرية الحديثة. والمجدير بالذكر ما أفاده الدكتور سوسه^(١٨) بأن كتبة التوراة إنما عمدوا إلى إهمال التسلسل الزمني؛ ليسهل عليهم ربط تاريخهم بعهود قديمة سبقت وجودهم، فأدخلوا التشويش على ذهن القارئ؛ بحيث أصبح تائهاً بين العصور، فلا يدري أيُّ تاريخ اليهود مع عصر إبراهيم، أم يواكب عصر موسى، ويشوع بن نون تلميذه، وخليفته على بني إسرائيل، أم من زمن الهجرات السامية العربية، أم من عصر الأكديين؟!

فالحقيقة أن كل عصر من هذه العصور يتميز عن العصر الآخر تميّزاً واضحاً، فاليهود أتباع موسى ﷺ ظهوروا خلال القرن الثالث عشر ق.م، والأكديون ظهوروا قبل عصر موسى بنحو ألفين وسبعمئة عام، حينما نزحوا من جزيرة العرب إلى شواطئ الفرات حوالي (٤٠٠٠ ق.م) بينما ظهر إبراهيم الخليل في منتصف القرن العشرين قبل الميلاد، أي أن المساحة الزمنية التي تفصله عن عصر موسى تصل لسبعة قرون تقريباً. كما أن الهجرات السامية من قلب الجزيرة إلى أطرافها سبقت وجود اليهود على ظهر البسيطة بنحو ألفي عام، ومن هنا جاء تأكيد العقاد^(١٩) على أننا إذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية، كما كانت العربية يومئذٍ بين الجزيرة العربية وبقاع الهلال الخصيب، فلا يقال: عن إبراهيم إنه إسرائيلي؛ لأن يعقوب هو أول من تسمى بـ(إسرائيل)،



ويعقوب حفيد إبراهيم. ولا يقال: عن إبراهيم: إنه يهودي؛ لأن اليهودي ينسب إلى (يهوذا) رابع أبناء يعقوب. ولا يقال: إنه عبري إذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية، تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف، فإن إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام. وقد يقال عنه: إنه سامي ينتمي إلى سام بن نوح، ولكنها نسبة إلى جدّ وليست نسبة إلى قوم^(٢٠). لذا فإن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً قطّ ولا نصرانياً كما يدّعي المدّعون، وما زعم «بني إسرائيل» بأنه يهودي، وأنهم على دينه يخالفون النصارى الذين زعموا ذات الزعم، فنزلت فيهم كلمة الله الفصل ببطلان قولهم أجمعين، حيث إن التوراة نزلت من بعده بنحو سبعمائة عام، والإنجيل من بعده بنحو تسعمائة وخمسين عاماً. وعليه فما كان لليهودية أو المسيحية وجود في عهده عليه السلام، ففيم هذه الحاجة في شأن إبراهيم، وهو الذي مال عن الأديان والعقائد الوثنية كافة إلى الدين القيم مسلماً موحداً غير مشرك بالله، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده أفلا تعقلون﴾ • ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴿ (٢١).

ثم تستطرد الآيات الكريمة القول بأن أحق الناس بإبراهيم عليه السلام أولئك الذين اهتدوا برسالته، واتبعوا نور دعوته في زمانه، وهذا النبي محمد ﷺ: النبي الأمي لموافقته له في أكثر شرعه والذين آمنوا من أمته، هم الذين ينبغي أن يقولوا نحن على دينه لا أنتم. والله ناصر المؤمنين وحافظهم: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (٢٢).

فإبراهيم عليه السلام بعث في بيئته كانت لها صلة وثيقة بنوح عليه السلام، حيث إنّ المنطقة التي بعث فيها هي منطقة نوح عليه السلام. أما هجرته عليه السلام فكانت لأسباب وأهداف سامية، حيث واجه الظروف نفسها التي واجهها الرسول صلى الله عليه وآله عند هجرته من مكة المكرمة. وقد هاجر عليه السلام من العراق الى الشام، وعندما يربّبه الناس وهو في الطريق الى اليمن والشام يدعوهم الى الإسلام^(٢٣). وتؤكد التوراة بكلّ وضوح أن إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر من العراق بمفرده، ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره، ذلك أنّ دعوة الربّ لإبراهيم الخليل عليه السلام كانت موجهة إليه بمفرده، وهي أن يهجر أرض العراق، فذهب ومعه ساراي زوجته ولوط ابن أخيه: (٢٤)

- ١ - قيومر بهقا إل أقرام ليخ ليخا مي أرصنحا
أو ممولدتنحا أو مبيت أفيخا إل ها أرص
أشير أرنيخا
- ٢ - قي إيعشخا لگوي گدول قارقارفخا قأگدلا
شميخا قي هيه براخا
- ٣ - قأقارخا مپارخيخا أو مقللخا آاور
قي نقرخوا قخا كل مشبحوت ها آدما



٤ - قِيلَخْ أَقْرَامْ كَأَشِيرِ دِيرِ إِيْلَاقْ يَهَقَا
 قِيلَخْ إِتْوْ لوط قِي أَقْرَامْ بِنْ حَامِيشْ شَانِيمْ
 قِي شَقْعِيمْ شَانَا بَصِيتُو مِيْحَارَانْ
 ٥ - قَايَقَحْ أَقْرَامْ إِتْ سَارَايْ أَشْتُو
 قِي إِتْ لوط بِنْ أَحِيفْ

ويعني هذا النص:

١ - وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى الأرض التي سأريك. ٢ - فاجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأعظم اسمك. ٣ - وأبارك مباركك، والعن لاعنيك، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. ٤ و ٥ - فذهب إبراهيم كما قال له الرب، فأخذ معه ساراي زوجته ولوطاً ابن أخيه. وكان عمره خمسة وسبعين عاماً لما خرج. ولم يكتفِ اليهود بأن عدّوا العراق وطنهم الأصلي، بل ربطوا تاريخهم القديم بجزيرة العرب، بدعوة أن اليهود هاجروا من فلسطين إلى جزيرة العرب، بعد تشريدهم على يد الرومان في القرن الأول للميلاد. وعلى هذا الأساس عدّوا شبه جزيرة العرب أرضاً يهودية طوال التاريخ، وغور الأردن هو الذي يفصل أرض إسرائيل الشرقية عن الغربية. هذا ما يلقّونه لطلاب الجيل الجديد من عرب ويهود في كتبهم المدرسية في إسرائيل (٢٥).

الهوامش :

- (١) د. ربحي كمال: الأدب العبري: ٤٢٠.
- (٢) المصدر نفسه.
- (٣) د. ربحي كمال: قواعد اللغة العبرية: ٤١-٤٢.
- (٤) يهوذا الحريزي: كتاب تحكموني: ٩٨.
- (٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣٩.
- (٦) مصنفات المؤرخ اليهودي يوسف: ٩٨.
- (٧) د. اسرائيل ولقنسون: تاريخ اللغات السامية: ٣٨.
- (٨) سفر أشعيا: ٣٦: ١١: ص ٦٧٠ الأصل العبري.
- (٩) سفر أشعيا: ١٩: ١٨: ص ٦٥٢ الأصل العبري.
- (١٠) د. اسرائيل ولقنسون، تاريخ اللغات السامية: ٢٨.
- (١١) المصدر نفسه.
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: ٣١.
- (١٤) (جون أ. هامرين)، ج ٢ الباب الخاص بفلسطين.
- (١٥) محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: ٣٢.
- (١٦) سهيل ديب، التوراة تاريخها وغاياتها: ٨٩.
- (١٧) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة): ٢٥٥.
- (١٨) د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ: ٢٢.
- (١٩) عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء: ٢٨٩-٢٩٠.
- (٢٠) المصدر نفسه.
- (٢١) آل عمران: ٦٥-٦٧.
- (٢٢) آل عمران: ٦٨.
- (٢٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ١٢: ٢٤٥-٢٤٦.
- (٢٤) سفر التكوين: ١٢: ١-٥ الأصل العبري: ص ١٦.
- (٢٥) بابوريش، إسرائيل معالم البلاد وجغرافيتها (للفص الثاني): ١٢٧-و عزرا حداد وإلياس دانيال، التاريخ (للفص الخامس): ٢٠٠.

أسماء المدينة المنورة ونعوتها

أحمد زمازي

المدينة، وما أدراك ما المدينة؟! منار الإسلام، وراية الإيمان ... مأوى
الرسول الكريم، ومشواه ومسراه إلى الرفيق الأعلى، مختلف الملائكة ومهوى
أفئدة العارفين والمسلمين، ومنشأ زعامة الصالحين في مشارق الأرض
ومغارها.

فيها يرقد الرسول ﷺ، وابنته الزهراء البتول ع، وأبنائهم الأئمة
الطاهرون؛ أبو محمد الحسن بن علي المجتبي، وأبو الحسن علي بن الحسين السجاد
زين العابدين، وأبو جعفر محمد بن علي الباقر، وأبو عبد الله جعفر بن محمد
الصادق ع إلى جانب كوكبة من أجلة الصحابة والتابعين وأعيان المدينة.

وقد دعا رسول الله ﷺ لهذا البلد الأمين وأهله فقال: «اللهم بارك لنا في
مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا ... ثم قال: والذي نفسي بيده! ما من المدينة

شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانه»^(١).
وللمدينة أسماء عديدة ومتنوعة، وهذه الأسماء المتظافرة تدلّ على عظمة
المدينة وشوكتها لأنها موضوعة لفاهيم عميقة، ومبتنية على ما ورد حول المدينة
من الآيات والأحاديث، وسنذكر بعضها ضمن العناوين التالية:
على أننا نكتفي هنا بذكر تسعين اسماً من أسماء المدينة، المنورة^(٢) ونرتبها
حسب تسلسل حروف المعجم.

١- أثرب:

فهي لغة في «يثرب» حيث تنوب الهمزة عن الياء، وقد ذكر الشعراء ذلك
كثيراً^(٣)، وسيأتي تفصيلها في «يثرب».

٢- أرض الله:

ذكر بعض المفسرين من العامة مثل الثعلبي، ومقاتل ومجاهد في تفسير
الآية الكريمة ﴿... أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا...﴾^(٤) أن المراد من
«أرض الله» المدينة^(٥).

وقال آخرون من الشيعة والسنة: إنّ «أرض الله» مطلق البلاد، سواء
كانت المدينة أو غيرها التي تقدر فيها إقامة أمور الدين^(٦)، وجاء في
الميزان: وهذا يناسب سعة الأرض، ولولا فرض السعة لكان يقال: فتهاجروا
منها^(٧).

٣- أرض الهجرة:

هي بلدة، هاجر النبي ﷺ وأصحابه من مكة المكرمة إليها، وسمي هؤلاء



بـ (المهاجرين) والذين احتضنهم بـ (الأنصار). هذا مضافاً إلى أن هذا الاسم ورد في الحديث النبوي كما نقله الطبراني في الأوسط حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة قُبَّةُ الإسلام، ودار الإيمان، وأرض الهجرة، ومَبْوَأُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ»^(٨). وأيضاً سُمِّيت المدينة بـ «دار الهجرة».

٤، ٥ - أَكَّالَةُ الْقَرْي. وأيضاً يعبر عنها بـ «أَكَّالَةُ الْبُلْدَانِ» : وجاء في حديث عن مالك بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ»^(٩) أي: أُمِرْتُ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا وَاسْتِطَانَهَا. وقد ذكر أهل الحديث وجهين لهذه الرواية: ١ - كانت المدينة مركزاً لجيوش الإسلام، وقد نصر الله دينه بأهلها، فنهبا فتحت القرى، وغنمت أموالها وسبائياها وأسراها. ٢ - كان أكل المدينة وقوتها من القرى المفتوحة، وهذه القرى تُماير الطعام وتسوق إليها غنائمها^(١٠). فقد غلبت المدينة وأهلها على البلاد والقرى المجاورة والبعيدة، بواسطة الإسلام ونصرة الله - عزَّ وجلَّ - فسميت أَكَّالَةُ الْبُلْدَانِ أو أَكَّالَةُ الْقَرْي.

٦ - الْإِيمَانُ:

جاء في تفسير البيضاوي ذيل الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾^(١١) سَمَّى اللهُ «المدينة» بِالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْمَدِينَةَ وَأَهْلَهَا كَانُوا مَظْهَرَ الْإِيمَانِ وَمَصِيرِهِ^(١٢). ونقل ابن شُبَّة حديثاً عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: سَمَّى اللهُ الْمَدِينَةَ: الدَّارَ وَالْإِيمَانَ^(١٣).

٧، ٨- البَارَّة، البرَّة:

هاتان الكلمتان مترادفتان، ويقصد بهما زيادة الخير والبركة التي تتناول المدينة وأهلها خصوصاً، ومنها تنتشر إلى سائر البلاد عموماً، وأنها منبع الفيض والبركات.

قال السمهودي: يقال للمدينة: البرَّة، إذ هي منبع الأسرار، وإشراق الأنوار، وبها العيشة الهنيئة، والبركات النبويَّة (١٤).

٩، ١٠، ١١، ١٢- البَحْر، البَحْرَة، البَحِيرَة، البَحِيرَة:

تطلق هذه اللغات الأربع على المدينة المنورة. نقل الزركشي (١٥) ثلاث منها، والرابعة تصغير لما قبلها، وقال ياقوت الحموي: الاستبحار والبحر: السعة لأنها تمتنع من الأرض. ولما قال سعد بن عُبادة، - حينما دخل النبي ﷺ بيته لعبادته في مرضه، وأنه ﷺ شكاً مما سمع عن عبد الله بن أبي بن سلول: وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ أَنْ يُتَوَجَّوهُ فَيُعْصِبُوهُ بِالْعِصَابَةِ (١٦).

البَحِيرَة: مدينة رسول الله ﷺ وهي تصغير البَحْرَة (١٧). وهكذا يقال: هذه بَحْرَتُنَا أي أرضنا. وقال القاضي أبو علي: البَحِيرَة (بفتح الباء) مكبرة وهي مدينة النبي ﷺ (١٨).

١٣- البَلَاط:

هو كلُّ أرض فُرشت بالحجارة والآجر، أو الحجارة المفروشة في الدار أو غيرها. والبَلَاطَةُ الحَمْرَاء: هي حجر يُسمَّى حجر السماق، ولد عليها علي بن أبي طالب عليه السلام في بيت الله الحرام، وقد كانت في وسط الكعبة ثم غيّرت في ضلع البيت عند الباب (١٩). فقال الحاكم النيشابوري حول وليد الكعبة علي عليه السلام: فقد

تواترت الأخبار، أنَّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب -كرم الله وجهه- في جوف الكعبة^(٢٠).

وأنشد صاحب وسائل الشيعة الشيخ الحرّ العاملي رحمته الله أرجوزة قيّمة طويلة ونحن نكتفي برباعية منها:

مَوْلَاهُ بِمَكَّةٍ قَدْ عُرِفَا فِي دَاخِلِ الْكَعْبَةِ زِيدَتْ شَرَفَا

عَلَى رُخَامَةٍ هُنَاكَ حَمْرَا مَعْرُوفَةٌ زَادَتْ بِذَاكَ قَدْرَا^(٢١)

ويطلق على المدينة «البلاط» لكثرة الأحجار فيها أو لاشتغال المدينة على موضع معروف - وكان سوقاً - يصلّى فيه على الجنائز على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله ^(٢٢) يُسمّى «البطحاء».

وقال الفيروز آبادي: هو موضع بين مسجد النبي صلّى الله عليه وآله وسوق المدينة^(٢٣).

فإطلاق «البلاط» على المدينة إمّا مجازاً من تسمية الشيء باسم جزئه، أو من حيث إن «المدينة» أرض أكثرها من الأحجار.

١٤- البَلَد:

هو المدينة كما ذكره القرطبي في تفسير الآية الشريفة: ﴿لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وأنت حلُّ بهذا البلد^(٢٤) ونقل قول الواسطي لتبيين الآية بهذه العبارة. قال الواسطي: أي: نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً، وبركتك ميتاً، يعني المدينة^(٢٥).

ورجح القاضي - عياض بن موسى اليحصبي السبتي - هذا القول، وإن اتفق أكثر المفسرين على أن البلد في الآية المذكورة: مكة المكرمة^(٢٦).

١٥- بَلَدُ رَسُولِ اللَّهِ:

هذه الكلمة من أسماء المدينة كما رواه البرزاز - العالم الحنفي - عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الشياطين قد يؤسّس أن تعبد ببلدي هذا - يعني المدينة - وبجزيرة العرب، ولكن التحريش^(٢٧) بينهم»^(٢٨).

البلد في هذا الحديث النبوي ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأطلق على المدينة؛ لأنها بلد رسول الله صلى الله عليه وآله...

١٦- بَيْتُ رَسُولِ اللَّهِ:

عُبر عن المدينة المنورة بالبيت في الآية الكريمة حيث قال: «عزّ من قائل»:



﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحقّ وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ (٢٩).

هذه الآية نزلت في غزوة بدر، حينما كره الناس أن يخرجوا من المدينة لمحاربة المشركين، فأمر الله نبيّه بالخروج من المدينة مع أنّه صعب وكُره للمؤمنين (٣٠).

وفي هذه الآية كلمة «بيت» أُضيفت إلى ضمير الخطاب «ك»، فالآية نسبت البيت - المدينة - إلى صاحبه رسول الله ﷺ فيصير معناها: بيت رسول الله ﷺ.

١٧- التّين:

هو فاكهة معروفة يؤكل رطباً ويابساً (٣١)، والتين هو اسم للسورة الخامسة والتسعين من السور القرآنية، قال الله عزّ وجلّ: ﴿والتين والزيتون • وطور سينين • وهذا البلد الأمين﴾ (٣٢).

وقال أبو الحسن الأوّل في تفسير الآيات: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله - تبارك وتعالى - اختار من كلّ شيء أربعة إلى أن قال: واختار من البلدان أربعة فقال تعالى: ﴿والتين والزيتون...﴾ فالتين: المدينة، والزيتون: بيت المقدس، وطور سينين: الكوفة، وهذا البلد: مكّة» (٣٣).

١٨، ١٩، ٢٠، ٢١- جُبَار، الجَابِرَة، الجَبَّارَة، المَجْبُورَة:

هذه اللغات الأربع تطلق على المدينة، أمّا الأولى: فهي على وزن جُدام كما نقلها ابن شبة حيث ذكر روايةً نبويّة (٣٤) وسنذكرها قريباً. وأمّا اللغات الثلاث الأخيرة: فهي مروية عن التوراة حسب ما ذكرها السهمودي وابن شبة (٣٥).

وهذه الأسماء الأربعة تشترك معنىً حيث إنّ المدينة تجبر الكسير، وتغني الفقير، وتجبر البلاد على الإسلام، أو لأنّ الإنسان حينما يطالع ويدرس بركاتها

يذعن قهراً.

٢٢، ٢٣ - جَزِيرَةُ الْعَرَبِ:

قال بعض العلماء في الحديث النبوي: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» المقصود بها هي المدينة (٣٦) ويؤيد هذا القول ما ذكر في حديث العباس: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ التفت إلى المدينة وقال: «إِنَّ اللَّهَ - تعالى - قد برأ هذه الجزيرة من الشرك» (٣٧).

٢٤ - الْجَنَّةُ:

وهي وسيلة الوقاية والمحافظة على الشيء، وهذا الاسم مأخوذ عن قول الرسول ﷺ في غزوة أحد حيث قال ﷺ: «أنا في جُنَّةٍ حصينة» وأراد ﷺ بها «المدينة» (٣٨). ورواه أحمد بن حنبل مع اختلاف يسير عن جابر بن عبد الله الأنصاري كما يلي، قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «رَأَيْتُ أَنِّي فِي دَرَعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقْرًا تُنَحَرُّ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدَّرَعَ الْحَصِينَةَ: الْمَدِينَةَ، وَأَنَّ الْبَقْرَ، بَقْرٌ، وَاللَّهُ خَيْرٌ» (٣٩).

قال الشاعر:

هِيَ جُتَّتِي مِمَّا أَخَافُ وَجَتَّتِي وَبِجَاهٍ مِنْ فِيهَا تُخَلِّصُ مُهْجَتِي (٤٠)

٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨ - الْحَبِيبَةُ، الْمُحِبَّةُ، الْمُحَبَّةُ، الْمَحْبُوبَةُ: (٤١)

هذه الهيئات الأربع من مادة واحدة هي: حَبَبٌ. وقد جرت على لسان الناس وأُطلقت على المدينة وهي مأخوذة عن الرواية النبوية وهي: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ» (٤٢)، وفي كتب الحديث روايات كثيرة تتضمن حب رسول الله ﷺ، ودعائه للمدينة ولأهلها.



قال الشاعر:

دَارُ الْحَبِيبِ لَنَا فَلَذُ بِرَحِيبِهَا فَالْتَفُسُ مُولَعَةٌ بِدَارِ حَبِيبِهَا
اللَّهُ شَرَّفَهَا بِهِ لِنَصِيبِهَا وَاخْتَصَّهَا بِالطَّيِّبِينَ لَطِيبِهَا
وَاخْتَارَهَا وَدَعَا إِلَى سُكْنَاهَا (٤٣)

٢٩، ٣٠ - الْحَرَمُ، الْمُحَرَّمَةُ:

وهما يطلقان على مكان مخصوص ينبغي بل يجب احترامه، وتقديسه وصيانته، ويحرم انتهاكه وهدمه، والمدينة هي من أبرز مصاديق الحرم. فقد روى امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «المدينة حرم ما بين غير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...» (٤٤).

وروى جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام نفس الرواية المتقدمة مع زيادة: سئل الصادق عليه السلام: ما الحدث؟ قال عليه السلام: القتل (٤٥).
وبهذه القرينة نستطيع أن نقول: المحدث هو القاتل، وأيضاً ورد في حديث آخر: المدينة حرم كما حكى سهل بن حنيف وقال: أهوى رسول الله صلى الله عليه وآله بيده إلى المدينة فقال: «إنها حرم آمن» (٤٦).
ويطلق على المدينة المحرمة كما ذكرناه آنفاً.

٣١ - حَرَمُ رَسُولِ اللَّهِ:

إنه اسم آخر للمدينة لأن رسول الله صلى الله عليه وآله نسب «الحرم» إلى نفسه فقال صلى الله عليه وآله: «إن مكة حرم الله، حرّمها إبراهيم عليه السلام وإن المدينة حرمي ما بين لابتيها حرم» (٤٧).

ومضافاً إلى هذه الرواية النبوية فقد وصفها أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

«مَكَّة حَرَمُ اللَّهِ، والمدينة حَرَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ والكوفة حرمي، لا يريد بها جَبَّارٌ بحادثة إلا قصمه الله» (٤٨).

٣٢ - حَسَنَة:

وهي اسم للمدينة لقوله - تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ (٤٩). روى الطبرسي عن ابن عباس رضي الله عنه أي بَلَدَةً حَسَنَةً بدل أوطانهم وهي المدينة (٥٠).
وأيضاً روى الفخر الرازي (٥١) عن الحسن والشعبي وقتادة ما ذكره الطبري، ونقل القرطبي عن الجميع نفس ما قدّمناه (٥٢).

٣٣، ٣٤ - الْخَيْرَة، الْخَيْرَة:

المدينة ذات خيرات كثيرة وهي مقبولة لدى الناس عامةً، وتبّه النبي ﷺ الناس عليها حينما قال عليه السلام: «المدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون» (٥٣). ومن ثمّ سميت المدينة بهما - الْخَيْرَة، الْخَيْرَة -.

٣٥ - دَارُ الْأَبْرَارِ:

بعدما هاجر النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة واستقرّ فيها، اجتمع المهاجرون والأنصار وازدادوا يوماً بعد يوم خصوصاً في السنة السابعة من الهجرة - حينما فتحت قلاع خيبر - فخرجت المدينة من جاهليّتها السابقة وأصبحت دار الأبرار (٥٤).

٣٦، ٣٧ - دَارُ الْمُخْتَارِ، الْمُخْتَارَة:

المدينة هي الموطن الثاني لرسول الله ﷺ حيث اختارها وأقام عليه السلام فيها



العقد الأخير من عمره الشريف، وانتقل منها إلى الرفيق الأعلى. فالمدينة مختارة لمن اختاره الله من خلقه في حياته ومماته (٥٥).

٣٨- دار الإيمان:

وضحنا في الرقم السادس علة إطلاق لفظة «الإيمان» على المدينة ولكن هذا الاسم ورد في الأحاديث مع الهيئة التركيبية مثل قول رسول الله ﷺ: «المدينة قبة الإسلام، ودار الإيمان...» (٥٦).

٣٩- دارُ السُّنة:

هي المكان الذي تجلّت فيه الشريعة الإسلامية، والسنة المحمدية الغراء وكملت، وعمل بها رسول الله ﷺ والمسلمون الأوائل (٥٧).

٤٠- دارُ السَّلامة:

المدينة هي مأمن الرسول الكريم ﷺ حيث أنعم الله بالسلامة والسكينة عليه خصوصاً، وعلى المؤمنين عموماً، وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: «أنا في جنة حصينة» (٥٨) أو «رأيت أني في درع حصينة...».

٤١- ذاتُ الحُجر:

حُجْر وحُجَرَات جمع للحُجْرة من البيوت، وهي كالغرفة تُجمع على غُرَف وغُرَفَات والمدينة تشتمل عليها (٥٩).

٤٢- ذاتُ الحرار:

الحِجَارُ جَمْعُ حَرَّةٍ وَهِيَ حِجَارَةٌ سُودٌ. وَالْمَدِينَةُ تَحْتَوِي عَلَى كَثِيرٍ مِنْهَا (٦٠).

٤٣- ذَاتُ النَّخْلِ:

لَا شَتَالَ الْمَدِينَةُ عَلَى نَخِيلٍ كَثِيرَةٍ كَمَا نَشَاهِدُهَا، وَمِنْ ثَمَّ جَرَى هَذَا الْاسْمُ عَلَى لِسَانِ «ابْنِ التَّوَّامِ الْحَمِيرِيِّ» وَ «عِمْرَانَ بْنِ عَامِرٍ» بَدَلًا عَنْ الْمَدِينَةِ. وَأَيْضًا عَبَّرَ عَنِ الْمَدِينَةِ بِذَاتِ النَّخْلِ فِي الرِّوَايَةِ النَّبَوِيَّةِ «أَرَيْتَ دَارَ هَجْرَتِي ذَاتِ نَخْلٍ وَحَرَّةٍ» (٦١).

٤٤- السَّلَاقَةُ:

نَقَلَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَمِينٍ الْمُشْتَهَرُ بِـ «الْأَقْشَهْرِيِّ» عَنِ التَّوْرَةِ، وَسُمِّيَتْ الْمَدِينَةُ بِهَا لِاتِّسَاعِهَا وَتَبَاعُدِ جِبَالِهَا (٦٢).

٤٥- سَيِّدَةُ الْبُلْدَانِ:

الْمَدِينَةُ هِيَ أَفْضَلُ بَقَاعِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ؛ لِأَنَّهَا مَدْفَنُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَكَتَبَ أَبُو نَعِيمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ» أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ، وَقَفَ أَمَامَهَا فَنَادَى: «يَا طَيِّبَةُ يَا سَيِّدَةَ الْبُلْدَانِ» (٦٣).

٤٦- الشَّافِيَّة:

سُمِّيَتْ بِهَذَا الْإِسْمِ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «تُرَابُهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ» (٦٤)، وَذَكَرَ ابْنُ مُسْدِي (٦٥): يَسْتَشْفِي الْحُمُومُ حِينَ تُلَقَّى أَسْمَاءُ الْمَدِينَةِ عَلَى عَاتِقِهِ. وَرَوَى ابْنُ الْأَثِيرِ عَنْ سَعْدٍ ... لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَاجَهَ ﷺ رَجَالًا مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَثَارُوا غِبَارًا، فَخَمَّرَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَ



النبي ﷺ أنفه، فأزال رسول الله ﷺ اللثام عن وجهه وقال: «والذي نفسي بيده إن في غبارها شفاءً من كلِّ داء» (٦٦).

٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١ - طَابَة، طَيِّبَة، طَائِبَة، طَائِبَة، مُطَيَّبَة:

الأسماء الخمسة من مادة واحدة وتختلف صيغها ومصادرها؛ لأن ابن شُبَّه حينما ذكر - الأولى والثانية - اعتمد على الحديث النبوي (٦٧). وأمَّا الثلاثة الأخيرة فهي مروية عن التوراة، كما نقلها وهب بن مُبَيَّه (٦٨). قال السهمودي: هذه الأسماء الخمسة مبتنية وموافقة لقول الله - عز وجل - وهو: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (٦٩) فكانت الريح الطيبة جزاءً لمنجاتهم بعد خوفهم في الفلك وهذه الريح الطيبة هي فرحة تامة ومسرّة قويّة (٧٠)، فتسمية المدينة بهذه الأسماء الخمسة؛ لطيب تربتها - لمن دخل فيها، وطهارتها من الكفر والأرجاس (٧١).

٥٢، ٥٣ - طِبَابَا، طِبَابَا:

قال ياقوت الحموي: طِبَابَا من أسماء المدينة حيث يطلق على الأرض المستطيلة، وأيضاً على الطريق والثوب وغيره، فإنَّ المدينة سُمِّيت بذلك لأنَّها كذلك (٧٢).

فإن كانت بالطاء المعجمة: فمن ظَبَّ وظَبْظب: إذا حمَّ حيث كانت المدينة محمولة إذا دخلها أحد ابتلى بالحمى فنقل الله - سبحانه - حمّاها إلى مُهَيَّعَة بدعاء ﷺ (٧٣).

٥٤ - العاصِمة:

سمّيت بذلك لأنّ المدينة عصمت المهاجرين من كيد المشركين. وهي حصن الإسلام والمسلمين. وكان المسلمون يعتصمون بها، وقيل: معنى العاصمة المعصومة، لعصمتها قديماً بجيوش موسى وداود عليهما السلام حيث إنّهم مبعوثون إلى مَنْ كان فيها من الجبابرة ^(٧٤)، أو لعدم دخول الطاعون والدّجال فيها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله» ^(٧٥).

٥٥- العذراء:

والدليل على تسميتها بالعذراء لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتّى تسلّمها رسول الله صلى الله عليه وآله وهو المالك، وهي منقولة عن التوراة على ما رواه إبراهيم بن أبي يحيى: إنّ هذا الاسم مع أسماء آخر مذكورة في الكتب السماوية ^(٧٦).

٥٦- العراء:

سمّيت بهذا الاسم لعدم ارتفاع أبنية المدينة في السماء، حيث إنّ المسلمين حاولوا أن لا ترتفع أبنيتهم على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ومسجده، ومن ثمّ تشبه المدينة بالناقة العراء التي لا سنام لها أو لصغر سنامها ^(٧٧). وقال الأزهري: العرى سادات الناس الذين يعتصم بهم الضعفاء، ويعيشون بعرفهم، ومن حيث إنّ المدينة صارت محتملاً للمستضعفين بعد مهاجرة النبي صلى الله عليه وآله لكي يصبحوا سعداء، فسمّيت بالعرى ^(٧٨).

٥٧- العرّوض:

وهو كصّبور يطلق على أرض منخفضة، تكون فيها أودية السيول والمدينة كذلك؛ ولذا تُسمّى بالعرّوض لأنّها من بلاد نجد، ونجد كلّها على خطّ



مستقيم طولاً، والمدينة معترضة عنها ناحية، وقال ابن سيدة: والعروض مكة والمدينة (٧٩).

٥٨- الغراء:

هي تأنيث الأغراء أي الغرة وهي البياض في الجبين، أو بمعنى الرجل الكريم والوسيم، أو يوم شديد الحر، والغراء: هي نبت طيب الريح، والسيدة الكبيرة (٨٠).
والمدينة سادت البلاد؛ لأن فيها الكرامة والفضيلة والبركة .. وهي صفات مرموقة تسبب تفوقها على سائر البلاد.

٥٩- غلبة:

كانت المدينة تدعى في الجاهلية «غلبة» لأن اليهود نزلت على العاقلة فغلبتهم عليها، ثم نزلت الأوس والخزرج على اليهود فغلبوهم عليها. وبعد ظهور الإسلام نزل المهاجرون على الأوس والخزرج فغلبوهم عليها (٨١).
وقيل: سميت المدينة بالغلبة لظهورها واستيلائها على الأقطار من المدائن والأمصار (٨٢).

٦٠- الفاضحة:

نقل عن كراع: لا يمكن لأحد أن يعيش في المدينة، ويكتم عقائده الفاسدة، بل يفتضح ويبان ما في ضميره. وهذا هو أحد المعاني للحديث النبوي الشريف حيث قال ﷺ: «إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها» (٨٣).

٦١- القاصمة:

هي منقولة عن التوراة، حيث إنّ المدينة قصمت كلّ جبّار عنها، ومتمرّد دخل عليها، وهذا المضمون مذكور في الحديث النبوي: «من أراد أهل المدينة بسوء، أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» (٨٤).

٦٢- قُبَّةُ الْإِسْلَام:

هذا الاسم مأخوذ عن الرواية التي نقلها الهيثمي وهي: «المدينة قُبَّةُ الْإِسْلَام، ودار الإيمان...» ذكرناها في الرقم «٣» (٨٥).

٦٣، ٦٤- الْقَرْيَةُ، قَرْيَةُ الْأَنْصَار:

قَرْيَةُ - بفتح القاف وكسر ها - تطلق على مدينة تتناول حوائج سكّانها، وأهل اللغة يعبرون عنها بـ«المصر الجامع» (٨٦).

والقرية تطلق على المدن الصغيرة والكبيرة كما قال الله - عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٨٧).

قال الطبرسي رحمه الله: يعنون بالقريتين: مدينتي مكّة والطائف (٨٨). وإنّ القرية استخدمت في القرآن الكريم ثلاث وثلاثين مرّة، وعنيت فيها المدن والأصوار. غير أن هذا الاسم جرى على لسان رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة (٨٩). هذه القرية من الشرك، وأشار ﷺ بيده إلى المدينة (٨٩). وقال أهل اللغة أيضاً: المدينة هي قرية الأنصار.

٦٥- قَلْبُ الْإِيمَان:

لما أورده ابن الجوزي في الحديث النبوي: «المدينة قُبَّةُ الْإِسْلَام، قلب الإيمان و...» (٩٠) وهذه هي الرواية التي نقلها الهيثمي، إلّا أنّه زاد فيها: «قَلْبُ



الإيمان».

٦٦- الْمُؤْمِنَةُ:

لما نقله ابن زبالة عن رسول الله ﷺ حيث قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ تربتها لمؤمنة»، ثم قال ابن زبالة: «هذا الاسم «المؤمنة» مكتوب في التوراة» (٩١).

٦٧- الْمُبَارَكَةُ:

لدعاء رسول الله ﷺ حينما نزل المدينة، قال أنس: وقف النبي ﷺ أمام بيت أبي أيوب الأنصاري، وقرأ هذه الآية الكريمة (٩٢): ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٩٣). ومن ثم سميت المدينة بـ«المباركة» أو «المباركة».

٦٨- مَبُوءٌ وَمَبِينٌ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ:

المدينة هي محلّ تمكّن هذين الحكّمين واستقرارهما، ومحلّ بيانها، حيث قال النبي ﷺ: «المدينة قُبَّةُ الْإِسْلَامِ.. وَمَبُوءُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ» وأيضاً ورد: «مَبِينُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ» نقلهما الطبراني وابن الجوزي كما قدّمناه في الرقم «٣».

٦٩- الْمَجْبُورَةُ:

هي منقولة عن التوراة وستأتي مفصلاً (٩٤).

٧٠- الْمَحْبُورَةُ:

وهي من الحَبْر بمعنى الجمال وفي الحديث: «يُخْرِجُ رَجُلٌ مِنَ النَّارِ ذَهَبَ حَبْرُهُ» أي جماله وسحناؤه. والتحبير: التحسين الذي يسرُّ به، وقال الله العظيم

﴿... فهم في روضة يُحْبَرُونَ﴾^(٩٥) جاء في مجمع البيان اختصاص هذه الحالة بالمؤمنين في روضة وهي الجنة، أحسن شيء، لا يوجد مثلها عند العرب^(٩٦). والمحبار من الأرض السريعة النبات الكثيرة الخيرات. والمدينة محبورة لأن فيها نعم الله مع السرور والخيرات الكثيرة. وقد لُقِّبَ رسولنا الكريم بـ(المحبور) كما جاء في دعاء الثور المروي عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ قالت: علّمني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدعاء: «بسم الله النور بسم الله الذي يقول للشيء كن فيكون... بسم الله الذي أنزل النور على الطور بقدر مقدور في كتاب مسطور على نبي محبور»^(٩٧).

٧١- المَحْرُوسَة:

لأن المدينة تُحْرَسُ بالملائكة. روى الجندي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المدينة مشتبكة بالملائكة على كل نقب منها ملك يحرسها»^(٩٨). في هذا الحديث حراسة الملائكة تتعلّق بالنقب؛ لأنّ النقب طريق في الجبل، والعدو يتسلّل منه، وحينما كانت الطرق الجبلية محفوظة فالمدينة محروسة.

٧٢- المَحْفُوفَة:

وأيضاً تُسَمَّى محفوفة: لأنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون»^(٩٩).

قال الشاعر:

مَحْرُوسَةٌ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ طَارِقٍ ودخول دَجَالٍ وطعنٍ لاحقٍ
فالمرأ فيها ذو فؤادٍ واثقٍ هذي محاسنها فهل من عاشقٍ
كَلَفٍ شَحِيجٍ باخِلٍ بَنَوَاهَا^(١٠٠)



٧٣- المَحْفُوظَةُ:

المدينة محفوظة بإرادة الملك الديان كما قال رسول الله ﷺ: «الْقُرَى المحفوظة أربع: المدينة ومكة، إيليا ونجران» (١٠١).

٧٤- مُدْخَلَ صِدْقٍ:

﴿... رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (١٠٢). ذكر الطبرسي في تفسير هذه الآية الكريمة أربعة أقوال. ثانيها: أَنَّ معناه أَدْخَلَنِي الْمَدِينَةَ وَأَخْرَجَنِي مِنْهَا إِلَى مَكَّةَ لِلْفَتْحِ. ونسبه إلى ابن عباس والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير (١٠٣).

٧٥، ٧٦- الْمَدِينَةُ، مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

المدينة عَلَمٌ لَعَدَّةِ مَدَنٍ، مِنْهَا: الْمَدِينَةُ وَهِيَ «يَثْرَبُ» (١٠٤) وهذه الكلمة «المدينة» مذكورة في أربعة عشر موضعاً من القرآن الكريم ولم يقصد بها مدينة رسول الله ﷺ إِلَّا فِي الْمَوَاضِعِ الْأَرْبَعَةِ التَّالِيَةِ:

١ - سورة التوبة، ١٠١: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾.

قال الكلبي: نزلت في جهينة ومزينة وأشجع وغفار من أهل المدينة يعني عبد الله بن أبيّ، وجد ابن قيس، ومعتب بن بشير، والجلال بن سويد وأبي عامر الراهب (١٠٥).

٢ - التوبة، ١٢٠: ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ...﴾.

يعنون بـ «المدينة» وأهلها نفس ما مضى في الآية الكريمة المتقدمة.

٣- الأحزاب، ٦٠: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لَنُغَيِّرَنَّكُم بِهِمْ...﴾.

٤- المنافقون، ٨: ﴿يَقُولُونَ لئن رجعنا إلى المدينة لَنُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والمدينة في هاتين الآيتين هي مدينة رسول الله ﷺ (١٠٦) كما تدلُّ عليها القرائن الموجودة فيها، وهذا هو أمر بين بحيث لم يتعرَّض أحد خلافه، انتهى.

المدينة هي منقولة عن التوراة (١٠٧)، وجرى هذا الاسم على لسان رسول الله ﷺ حيث قال ﷺ: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كما حبَّبت إلينا مكة...» (١٠٨).

وقال الصادق عليه السلام: لما دخل النبي ﷺ المدينة خطَّ دورها برجله ثم قال: «اللهم من باع رباعه فلا تبارك له» (١٠٩).

وأن النبي ﷺ نسب المدينة إلى نفسه عندما قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي مَدِينَتِي هَذِهِ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدَّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ...» (١١٠).

مضافاً إلى ما تقدم: ربما كان اسم المدينة أقدم زماناً ممَّا ذكرنا حيث إنَّ أهلها استقبلوا النبي الأعظم في وصوله منشدين:

طلع البدر علينا من ثِيَابِ الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
جئت شَرَفَ المدينة مرحباً يا خير داع

فيشهد هذا أنَّ المدينة كانت مشهورة لدى العرب. وربما كان النبي ﷺ قد سمَّاها قبل هجرته (١١١).

٧٧- المَرْحُومَةُ:

هي منقولة عن التوراة، لأنَّها دار المبعوث رحمةً (١١٢).



٧٨- المَرْزُوقَةُ:

سمّيت بذلك حيث إنّ الله - عزّ وجلّ - كثر حظّ المدينة ورزقهم بما شاء من النعمة، فهي مرزوقة كما ذكرها عمدة الأخبار (١١٣).

٧٩- الْمِسْكِينَةُ:

هذا الاسم منقول عن التوراة كما روى ذلك إبراهيم بن أبي يحيى فقال: للمدينة في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، المحبة، المحبوبة، طيبة، طابة، المسكينة، جابرة، المجبورة، المرحومة، العذراء والقاصمة (١١٤). ووضحنا أكثر هذه الأسماء حسب التسلسل المعجمي.

وسمّيت المدينة مِسْكِينَةً لأنّها مسكن المساكين وملجأ الخاشعين والخاضعين لله والمتوسّلين برسول الله ﷺ وآله الكرام.

وأنشد هذه الخماسية الشيخ أبو عبد الله محمد التونسي:

يَا رَبِّ بِالْمَخْتَارِ يَسَّرْ أَمْرَنَا وَاغْفِرْ خَطَايَانَا وَأَذْهَبْ ضُرْرَنَا
وَأَجْزِلْ عَطَايَانَا وَأَجْمِلْ سَثْرَنَا وَاجْعَلْ بَطِيئَةً فِي حِمَاهِ مَقَرَّنَا
وَأَجِبْ سَوَالَ نَفُوسِنَا وَدُعَاهَا

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالْآلِ وَالصَّحْبِ الْكَرَامِ الْمُحْتَدِ
الْقَائِمِينَ الرَّاكِعِينَ السُّجْدِ أَنْصَارِ دِينِكَ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

وَالْمَالِ حُبًّا لِلرَّسُولِ وَجَاهًا (١١٥)

٨٠- المسلمة:

ذكرها صاحب المعجم البلاذري، سمّيت بها لأنّ أهل المدينة انقادوا لله

بالطاعة وبادروا إلى نصرة نبيّه المصطفى ﷺ وإِنَّهَا فَتَحَتْ بِالْقُرْآنِ (١١٦).

٨١- مَضَجْعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

لأنّ رسول الله ﷺ قال: «المدينة مُهاجري ومَضَجْعِي فِي الْأَرْضِ» (١١٧) والمدينة مضجعه ومرقده حيّاً وميتاً.

٨٢- الْمُقَدَّسَة :

لتزوّجها عن الشرك، وطهارتها من أرجاس الذنوب والآثام، والمدينة تنفي الذنوب حينما يدخلها المسلم ويزور النبي الكريم ﷺ (١١٨). وقال الأستاذ الدكتور الشريف رحمه الله:

فَطَوَّبِي لِمَنْ زَارَ خَيْرَ الْوَرَى وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا
فَإِنَّ السَّعَادَةَ مَضمُونَةٌ لِمَنْ حَلَّ طَيِّبَةً أَوْ زَارَهَا

٨٣- الْمَقَرَّة :

فهذا كالممرّ من القرار، ذكر في دعاء رسول الله ﷺ كما قال أنس: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر إلى المدينة دعاء ﷺ له وللآخرين فقال: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً» (١١٩).

٨٤- الْمَكِينَة :

لتمكّنها في المكانة والقدر والمنزلة عند الله - عزّ وجلّ - كما ذكره السمهودي (١٢٠).

٨٥- الْمُؤَفِّيَة :



بتشديد الفاء وتخفيفها؛ لأنَّ التوفية والإيفاء بمعنى واحد، وقد سُمِّيت المدينة مُوفية؛ لأنها أوفت حقوق القادمين طعاماً وشراباً. وتراها شفاء الأسقام والأمراض؛ وآبارها أطيب أنهار الدنيا، وأهل المدينة الموفون بالعهد^(١٢١).

٨٦- النحر:

بفتح النون وسكون الحاء - علم لأرض المدينة وهكذا علم لأرض مكة. والنحر هو اللون وجمعه نحار أي من كل لون. والنحر أيضاً: السوق الشديد. وقيل لشدة حرِّهما^(١٢٢).

٨٧- الهذراء:

ذكره ابن نجَّار نقلاً عن التوراة - والتسمية به لشدة حرِّها - يقال: يوم هاذر: شديد الحرِّ أو لكثرة مياهها وأنهارها المصَّوتة عند جريانها. ويحتمل أن تكون الدال مهملة من هدر الحمام ويقال: أرض هادرة أي كثيرة النبات^(١٢٣).

٨٨- يثرب:

وهي لغة في «أثرب» كما قدّمنا وهي اسم للمدينة قبل الإسلام؛ لأنَّ أوَّل من سكنها بعد التفرُّق هو: يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام^(١٢٤).

وهذا الاسم مأخوذ من الثَّرب وهو الفساد أو من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب، أو يؤول الاسم إلى من بناها وهو غير موحد^(١٢٥). ومن ذلك لا يحبُّه رسول الله ﷺ وغيره فقال ﷺ: «لا تدعوها يثرب فإنَّها طيبة» - يعني المدينة -^(١٢٦) وقال أبو عبيدة: إنَّ مدينة الرسول في ناحية من يثرب^(١٢٧).

٨٩، ٩٠- يَنْدَدُ، يَنْدَرُ (تَنْدَدُ، تَنْدَرُ):

لما رواه زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ: «للمدينة عشرة أسماء هي: المَدِينَةُ، وَطَيْبَةُ، وَطَائِبَةُ، وَمِسْكِينَةُ، وَجَبَّارُ، وَمَجْبُورَةُ، وَيَنْدَدُ، وَيَشْرَبُ» (١٢٨).

قال الفيروز آبادي: يَنْدَدُ مَنْ نَدَدَ، وهي المدينة وأيضاً يقول في مادة نَدَر: يَنْدَرُ كَحَيْدَر وهي من أسماء المدينة المنورة (١٢٩). ونقل في بعض الكتب أنهما: تَنْدَدُ وَتَنْدَرُ (١٣٠).

وفي نهاية هذه الأسماء نذكر ما ذكره السيد المرتضى علم الهدى رحمه الله: «أَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَدِينَةِ: يَثْرِبُ، طَيْبَةُ، طَائِبَةُ، الدَّارُ، الْمِسْكِينَةُ، جَائِزَةُ، الْمُحْبُورَةُ، الْمُحَبَّةُ، الْحُبُوبَةُ، الْعَذْرَاءُ، الْمَرْحُومَةُ، الْقَاصِمَةُ، يَنْدَدُ» (١٣١).

فكلامه يحتوي على اسم آخر غير ما قدمناه وهو «جَائِزَةُ». هذه هي أسماء المدينة المنورة التي جمعناها ورتبناها وتعرضت لذكر بعض الدقائق واللطائف - الموجودة في الروايات من الشيعة والسنة - في وجه تسميتها بها ولا ادعي الاستقصاء الكامل؛ لأنَّ عظمة المدينة ومن فيها أكبر من أن يؤدي حقها مثلي.

الهوامش :

- (١) صحيح البخاري، ٣: ٦٠ باب المدينة تنفي الخبيث - صحيح مسلم، ٢: ٢ و ١٠٠١، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة - وسائل الشيعة، ١٠: ٢٧٣، باب استحباب الإقامة بالمدينة.
- (٢) تسمية الأشياء مجازاً تحتاج إلى علاقات مناسبة كما ذكر في علم البيان والعلاقات كثيرة منها: تسمية الشيء باسم جزئه أو سببه أو محله... وأكثر أسماء المدينة أسماء مجازية. شرح المختصر، تفتازاني: ١٥٦.



- (٣) لسان العرب، ابن منظور، ١: ٢٣٤.
- (٤) النساء: ٩٧.
- (٥) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ١٠.
- (٦) أبي مسعود، محمد بن محمد العمادي، ٢: ٢٢٣ - التفسير الكبير، الفخر الرازي، ١١: ١٢.
- (٧) الميزان، العلامة الطباطبائي، ٥: ٥٠.
- (٨) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٢٩٨.
- (٩) صحيح البخاري، ٣: ٥٤، باب فضل المدينة، رقم الحديث ١٣٠.
- (١٠) صحيح مسلم، ٢: ١٠٠٦، باب المدينة تنفي شرارها - لسان العرب، ١١: ٢٣، مادة: أكل.
- (١١) الحشر: ٩.
- (١٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ٢: ٤٨١.
- (١٣) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة، ١: ١٦٢.
- (١٤) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، السهمودي، ١: ١١.
- (١٥) أعلام الساجد بأحكام المساجد، الزركشي: ٢٥٣.
- (١٦) صحيح مسلم، ٣: كتاب الجهاد، رقم الحديث ١٧٩٨.
- (١٧) لسان العرب، ٤: ٤٤، مادة: بَحَرَ.
- (١٨) صحيح مسلم، ٣: ١٤٢٣، ح ١٧٩٨، حكاية القاضي أبو علي عن جماهير رواة مسلم.
- (١٩) مجمع البحرين، الطريحي، ٤: ٢٤٠، مادة: بَلَطَ.
- (٢٠) المستدرک علی الصحيحین، الحاكم النيشابوري، ٣: ٤٨٣.
- (٢١) علي وليد الكعبة، محمد علي الأردوبادي: ٥٥.
- (٢٢) قاموس المحيط، الفيروز آبادي، ٢: مادة: بَلَطَ - لسان العرب، ٧: ٢٦٤.
- (٢٣) مجمع البحرين، الطريحي، ٤: ٢٤٠ مادة: بَلَطَ.
- (٢٤) البلد: ١ و ٢.
- (٢٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠: ٤٠.
- (٢٦) مجمع البيان، الطبرسي، ١٠: ٤٩٢ - التفسير الكبير، الفخر الرازي، ٣١: ١٧٩ - التبيان، الشيخ الطوسي، ١٠: ٣٥٠.
- (٢٧) التحريش هو النفاق.
- (٢٨) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٢٩٩.
- (٢٩) الانفال: ٥.
- (٣٠) مجمع البيان، ٤: ٥٢٠.
- (٣١) جاء في الحديث: روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في التين: «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت هذه هي؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تنفع من النقرس» نور الثقلين، ٥: ٦٠٧ - مجمع البيان، الطبرسي، ١٠: ٥١٠.
- (٣٢) التين: ١ - ٣.
- (٣٣) وسائل الشيعة، ١٠: ٢٨٣ ح ٤ - الخصال، الشيخ الصدوق: ٢١٢ - نور الثقلين، ٥: ٦٠٦.

- (٣٤) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة، ١: ١٦٢.
- (٣٥) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ١٣ - تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة، ١: ١٦٣.
- (٣٦) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة، باب: إخراج اليهود من جزيرة العرب، ح ٣٠٢٩.
- (٣٧) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٢٩٩.
- (٣٨) وفاء الوفا، السهمودي، ١٣.
- (٣٩) مسند أحمد بن حنبل، ٣: ٣٥١.
- (٤٠) فضائل المدينة المنورة، الصالح الشامي، ١٣٩.
- (٤١) عمدة الأخبار في مدينة المختار، أحمد بن عبد الحميد العباسي، ٦٥.
- (٤٢) وسائل الشيعة، ١٠: ٢٣٧ ح ٥ - صحيح مسلم، ٢: ح ١٣٧٦ - صحيح البخاري، ٣: ح ٦١ ح ١٤٨.
- (٤٣) فضائل المدينة المنورة، الصالح الشامي، ١٤٠.
- (٤٤) صحيح مسلم، ٢: باب فضل المدينة، ح ١٣٧١ - وسائل الشيعة، ١٠: باب وجوب احترام مكة والمدينة...، ح ١٩٣٩٠ - الفروع من الكافي، ٤: ٥٦٥، ح ٦.
- (٤٥) نفس المصادر الماضية.
- (٤٦) صحيح مسلم، ٢: باب فضل المدينة، ح ١٣٧٥.
- (٤٧) الفروع من الكافي، ٤: ٥٦٤، باب تحريم المدينة، ح ٥.
- (٤٨) الفروع من الكافي، ٤: ٥٦٣، باب تحريم المدينة، ح ١.
- (٤٩) التلح: ٤١.
- (٥٠) مجمع البيان، ٦: ٣٦١.
- (٥١) التفسير الكبير، ٢٠: ٣٤.
- (٥٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠: ٧١.
- (٥٣) صحيح مسلم، ٢: ١٠٠٨، ح ١٣٨٨.
- (٥٤) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٢: السنة السابعة.
- (٥٥) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٢٢.
- (٥٦) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٢٩٨، المصدر نفسه في الرقم ٣.
- (٥٧) عمدة الأخبار، أحمد بن عبد الحميد العباسي، ٦٩.
- (٥٨) مسند أحمد بن حنبل، ٣: ٣٥١، ذكرت الحديث في الرقم ٢٦.
- (٥٩) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ١٥.
- (٦٠) المصدر نفسه.
- (٦١) الإصابة في تمييز الصحابة، ١: ٤٦٤.
- (٦٢) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ١٦.
- (٦٣) المصدر نفسه.
- (٦٤) الوفاء، ابن جوزي، ١: ٣٩٩.
- (٦٥) هو الحافظ أبو بكر محمد بن يوسف الأزدي الغرناطي الأندلسي المهلب، قال ابن ناصر الدين: كان ذا رحلة واسعة ودراية وهو عالم وحافظ للقرآن، جاور بمكة أواخر عمره، وشاع أنه على مذهب أهل



- البيت عليه السلام فقتل غيلة سنة ٦٦٣ هـ. شذرات الذهب، ٥: ٣١٣.
- (٦٦) جامع الأصول، ابن الأثير، ٩: ٣٣٤.
- (٦٧) قال رسول الله ﷺ: للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة، طيبة، طابة، ...» وسيأتي الحديث مفصلاً.
- (٦٨) فضائل المدينة المنورة، الصالحي الشامي: ٥٢.
- (٦٩) يونس: ٢٢.
- (٧٠) تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي، ٧: يونس، الآية ٢٢.
- (٧١) معجم معالم الحجاز، عاتق بن غيث البلادي، ٥: ٢٤٣.
- (٧٢) لسان العرب، ١: ٥٥٥ - عمدة الأخبار: ٧٣ - معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٥: ٨٣: طول المدينة $\frac{1}{4}$ ٦٠ درجة، وعرضها ٢٠ درجة.
- (٧٣) وسائل الشيعة، ١٠: ٢٧٣ ح ٥.
- (٧٤) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ١٧.
- (٧٥) صحيح البخاري، ٣: ٥٧: باب: لا يدخل الدجال المدينة - صحيح مسلم، ٢: ١٠٠٨.
- (٧٦) عمدة الأخبار في مدينة المختار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٧٣.
- (٧٧) فضائل المدينة المنورة، الصالحي الشامي: ٥٣.
- (٧٨) لسان العرب، ١٥: ٤٦.
- (٧٩) لسان العرب، ٧: ١٧٣ - عمدة الأخبار في مدينة المختار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٧٥.
- (٨٠) المنجد، ١: مادة: غرر وغيره من اللغات - عمدة الأخبار: ٧٥.
- (٨١) عمدة الأخبار: ٧٥.
- (٨٢) عمدة الأخبار: ٧٥، منقول عن الزبير بن بكار.
- (٨٣) كتاب الجامع، الموطأ، ٢: ٨٨٢ - صحيح مسلم، ٢: كتاب الحج، ح ١٣٨٣.
- (٨٤) صحيح مسلم، ٢: ١٠٠٨، ح ١٣٨٧.
- (٨٥) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٢٩٨.
- (٨٦) المنجد، أقرب الموارد، وغيرهما من كتب اللغة، مادة: قري.
- (٨٧) الزخرف: ٣١.
- (٨٨) مجمع البيان، الطبرسي، ٩: ٤٦.
- (٨٩) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٢٩٩.
- (٩٠) الوفاء، ابن جوزي، ١: ٣٩٩.
- (٩١) وفاء الوفا: السهمودي، ١: ٢٠.
- (٩٢) سنن أبي داود، ١: ١٢٣.
- (٩٣) المؤمنون: ٢٩.
- (٩٤) سيأتي ذكرها في الرقم «٨٠».
- (٩٥) الروم: ١٥.
- (٩٦) مجمع البيان، الطبرسي، ٧: ٢٩٨.
- (٩٧) دلائل الإمامة، أبو جعفر الطبري الإمامي: ٢٨، ٢٩.

- (٩٨) مجمع الزوائد، ٣: ٣٠٩ - فضائل المدينة، الجندي، ح ١٣.
- (٩٩) مسند أحمد بن حنبل، ٢: ٤٨٣.
- (١٠٠) فضائل المدينة المنورة، الصالحي الشامي: ١٤٢.
- (١٠١) عمدة الأخبار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٧٨.
- (١٠٢) الإسراء: ٨٠.
- (١٠٣) مجمع البيان، الطبرسي، ٦: ٤٣٥.
- (١٠٤) المنجد، ٢: الأعلام.
- (١٠٥) أسباب النزول، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.
- (١٠٦) مجمع البيان، ٨: ٣٧١ - ١٠: ٢٩٥.
- (١٠٧) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٢٣.
- (١٠٨) بحار الأنوار، ١٨: ٩ ح ١٥ باب ٦.
- (١٠٩) بحار الأنوار، ١٩: ١١٩ ح ٤ باب ٧.
- (١١٠) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٣: ٣٠٧.
- (١١١) معجم معالم الحجاز، عاتق بن غيث البلادي، ٨: ٧٠.
- (١١٢) فضائل المدينة، الصالحي الشامي: ٥٨.
- (١١٣) عمدة الأخبار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٧٩، ٧٤.
- (١١٤) عمدة الأخبار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٧٤ - ٧٩.
- (١١٥) وفاء الوفا، السهمودي ٤: ١٤١٩ ذكرت الأبيات غير خماسية ولكن خمسها أبو عبد الله محمد التونسي.
- (١١٦) فضائل المدينة المنورة، الصالحي الشامي، ٥٨ - وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٢٤.
- (١١٧) مجمع الزوائد، ٣: ٣١٠ - الحجج المبينة للسيوطي: ٢٥.
- (١١٨) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٢٤.
- (١١٩) المصدر نفسه.
- (١٢٠) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٥٣.
- (١٢١) عمدة الأخبار في مدينة المختار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٨٢.
- (١٢٢) عمدة الأخبار في مدينة المختار، أحمد بن عبد الحميد العباسي: ٨١.
- (١٢٣) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٢٦ - فضائل المدينة المنورة، الصالحي الشامي: ٦٠.
- (١٢٤) مجمع البحرين، الطريحي، ٢: مادة: ثرب - معجم معالم الحجاز، عاتق بن غيث البلادي، ١٠: ١٣.
- (١٢٥) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة، ١: ١٦٢.
- (١٢٦) الدر المنثور، ٥: ١٨٨ - تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي، ٧: ٩٤.
- (١٢٧) التبيان، الشيخ الطوسي، ٨: ٣٢٣.
- (١٢٨) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة، ١: ١٦٢.
- (١٢٩) قاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة: ندد، ندر.
- (١٣٠) وفاء الوفا، السهمودي، ١: ٢٧.
- (١٣١) مجمع البيان، الطبرسي، ٨: ٣٤٦.

أسماء المدينة المنورة ونعوتها

٩٣١/٣



الروضة المقدسة محمد جواد الطبرسي

ولقد كان في مضماري، في
السنوات التي كنت أتشرف بزيارة قبر
رسول الله ﷺ، أن أتعرّف على هذه
البقعة الطاهرة أكثر ممّا سمعت أو قرأت
بنحو الإجمال والايجاز، فلذلك عزمت
على كتابة صفحات وإن كانت بصورة
موجزة، ولكن حاوية على جميع أنحاء
البحث حول هذه البقعة الطاهرة، آملاً
بذلك الدخول في رياض الجنة التي
وعد المتّقون بها، إن شاء الله تعالى.

لقد كتب الكثير من المؤرخين
وغيرهم حول العناوين والموضوعات
التي تخصّ المدينة المنورة: عن شرافة
أرضها ومشرفها، وعن نزل وحلّ
فيها وعن آثارها وأماكنها. ولكن قلّ
من تعرّض لذكر الروضة المقدّسة في
المسجد النبوي بنحو التفصيل، وحقّق
الموضوع كما ينبغي، من حدودها
واختلاف الآراء فيها وبيان معناها
وعلة شرافتها وآدابها وغير ذلك.



الروضة عند أهل اللغة:

قال ابن منظور: الروضة: الأرض ذات الخضرة، والروضة: البستان الحسن ... وقوله صلى الله عليه وسلم: بين قبري أو بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة...^(١)

وقال الطريحي: الروضة: الأرض الخضرة بحسن النبات ومنه روضات الجنان، وهي أطيب البقاع وأنزهها، ومنه الحديث ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة أي كروضة^(٢).

ما قيل في معنى الروضة:

فسّرت الروضة الشريفة ما يقرب من ثمانية معانٍ حسب الإحصاء وهي:

١ - إنّ من لزم طاعة الله في هذه البقعة آلت به الطاعة إلى روضة من رياض الجنة. قاله الخطابي^(٣).

٢ - مَنْ عَبَدَ الله بين القبر والمنبر، فله عند الله روضة من رياض

الجنة. بهذا المعنى أشار العلامة المجلسي في البحار عن العلل: العلة في أن بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبين المنبر روضة من رياض الجنة: أنه مَنْ عَبَدَ الله بين القبر والمنبر، وعرف حقَّ رسول الله وأهل بيته عليهم السلام، وتبرأ من أعدائهم، فله عند الله - عز وجل - روضة من رياض الجنة، ولا يكون له ذلك في غير ذلك الموضع^(٤).

٣ - روضة في الدنيا للعلم والمعرفة، حيث كان يقتبس ذلك من الرسول وهو فيها، ثمّ تجعل يوم القيامة إحدى رياض الجنة^(٥).

٤ - إنّ تلك البقعة نفسها روضة من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسود من الجنة، فيكون الموضع المذكور روضة من رياض الجنة الآن، ويعود روضة في الجنة كما كان، ويكون للعامل بالعمل فيه روضة في الجنة..^(٦)

وأشير إلى هذا المعنى بما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين بيتي ومنبري روضة

حدود الروضة:

بعد التعرف على معنى الروضة: نودّ أن نشير إلى حدود الروضة المقدسة، وما ورد في تحديدها من روايات وأقوال، ونواصل البحث والنقاش في ذلك.

ألف - التعابير الواردة عن النبي في تحديد الروضة:

وردت تعابير مختلفة في تحديد الروضة الشريفة عن الرسول الكريم ﷺ، رواها عنه جمع من الصحابة: كجابر بن عبد الله، وعبد الله بن زيد المازني، وابن عمر، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وسنذكرها لك بالتفصيل.

١ - قال رسول الله ﷺ: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة (١٤).

٢ - وقال ﷺ: ما بين حجرتي ومنبري روضة من رياض الجنة (١٥).

٣ - وقال ﷺ: ما بين بيتي

من رياض الجنة، ومنبري على ترعة (٧) من ترع الجنة، وقوائم منبري رتب في الجنة. قال: قلت: هي روضة اليوم؟ قال: نعم، انه لو كشف الغطا لرأيتكم (٨).

وقال البحراني: ويحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة في المنبر والروضة، بأن يكون حقيقتها كذلك، وإن لم يظهر في الصورة بذلك في الدنيا؛ لأن الحقائق تظهر بالصور المختلفة (٩).
٥ - من أقام بهذا الموضع فكأنه أقام في روضة من رياض الجنة. قاله ثعلب (١٠).

٦ - ينقل ذلك الموضع بعينه إلى الجنة. قاله ابن حجر (١١).

٧ - العبادة فيها تؤدي إلى الجنة (١٢).

٨ - البقعة كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة، بما يحصل فيها من ملازمة حلق الذكر، ولا سيما في عهده ﷺ.. (١٣)



عبد الله ﷺ عما يقول الناس في الروضة فقال: قال رسول الله ﷺ: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على ترعة من ترع الجنة. فقلت له: جعلت فداك فما حدّ الروضة؟

فقال: بعد أربع أساطين من المنبر إلى الظلال. فقلت: جعلت فداك من الصحن فيها شيء؟ قال: لا (٢٣).

٢ - عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال: حدّ الروضة في مسجد الرسول ﷺ إلى طرف الظلال (٢٤).

٣ - عن جميل بن دراج قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ ما بين منبري وبيوتي روضة من رياض الجنة، ومنبري على ترعة من ترع الجنة، وصلاة في مسجدي تعدل ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام.

قال جميل: قلت له، بيوت النبي وبيت علي منها؟ قال: نعم وأفضل (٢٥).

ومصلاي روضة من رياض الجنة (١٦).

٤ - وقال ﷺ: ما بين حجرتي ومصلاي روضة من رياض الجنة (١٧).

٥ - وقال ﷺ: ما بين منبري والمصلى روضة من رياض الجنة (١٨).

٦ - وقال ﷺ: ما بين مسجدي إلى المصلى روضة من رياض الجنة (١٩).

٧ - وقال ﷺ: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة (٢٠).

٨ - وقال ﷺ: ما بين منبري وبيوتي روضة من رياض الجنة (٢١).

٩ - وقال ﷺ: ما بين هذه البيوت إلى منبري روضة من رياض الجنة (٢٢).

ب - تحديد الروضة عن أهل البيت عليه السلام:

ووردت روايات عن أهل البيت عليه السلام في الروضة، وحدّها، ما يلي:

١ - عن مرازم قال: سألت أبا

ج - تحديد الروضة في أقوال الآخرين:

لقد وقع الخلاف في تحديد الروضة الشريفة، فمنهم من حدّدها ما بين المنبر والحجرة الشريفة التي دفن النبي فيها وعليه الأكثر، اعتماداً على صحيحين إحداهما قوله: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة .. والثانية ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة^(٢٦)، ومنهم من قال: إنّها تعمّ جميع المسجد الموجود في زمنه.

ومال إلى هذا الرأي الشنقيطي قائلًا: وأنا أميل إلى رأي الإمام مالك، والزين المراغي في تحديد الروضة الشريفة بما بين جميع بيوت النبي وبين منبره الشريف لأدلة منها: ما ذكره من حمل الخصوص في قوله (قبري) على العموم في قوله (بيتي) وما رواه أحمد: ما بين هذه البيوت إلى منبري روضة من رياض الجنة .. وحديث وقوائم منبري على ترعة من ترع الجنة

الذي يفهم منه: أن ما كان شمال المنبر الشريف من الأرض هو ترعة من ترع الجنة، وإلى الشمال الغربي من ذلك في نهاية المسجد حيث باب الرحمة كان يقع آخر بيت من بيوت الرسول ..^(٢٧) ومنهم من قال: إنّها تعمّ المسجد في زمنه وبعده. قال الراساني: إنّ اسم الروضة يعمّ مسجده ﷺ كلّ مع ما زيد فيه^(٢٨).

ومنهم من قال: إنّها من حجرته إلى مصلاه لرواية ما بين حجرتي ومصلاي على القول بأن المراد مصلى العيد^(٢٩).

د - الروضة وحدّها في أقوال الفقهاء: حدّد فقهاؤنا - رضوان الله عليهم - الروضة بما بين القبر والمنبر اعتماداً على ما روي عن رسول الله ﷺ: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. وإليك بعض الآراء في هذا المجال:



النبي ﷺ استحباباً مؤكداً، وزيارة فاطمة عليها السلام في الروضة والأئمة في البقيع، والصلاة بين المنبر والقبر وهو الروضة (٣٥).

٧ - وقال البحراني: قد اتفقت الأخبار وكلمة الأصحاب على أنه يستحب لزائر المدينة بعد الدخول إكثار الصلاة في مسجد الرسول، ولا سيما في الروضة وهي ما بين القبر والمنبر إلى طرف الظلال (٣٦).

وقفة مع القارئ حول روايات الروضة:

كان هذا عرضاً موجزاً من الروايات المروية عن النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، وما قيل في ذلك حول تحديد الروضة المقدسة.

ولنا وقفة خاطفة وسريعة معك حول مفاد هذه الروايات من جهة حدود الروضة بداية ونهاية فإنها تتضيق بالنظر إلى بعضها، وتتسع بالنظر إلى أخرى:

١ - قال الشيخ الطوسي: ... ويستحب أن يصلّى ما بين القبر والمنبر ركعتين فإنّ فيه روضة من رياض الجنة.. (٣٠)

٢ - وقال ابن البراج: الروضة: هي ما بين القبر والمنبر إلى الأساطين التي تلي صحن المسجد، وليس في الصحن من الروضة شيء.. (٣١)

٣ - وقال يحيى بن سعيد: ثم أتى المنبر فمسح برمانيته، وصلّى بين القبر والمنبر، وهو روضة من رياض الجنة.. (٣٢)

٤ - وقال ابن ادريس: ويستحب الصلاة بين القبر والمنبر ركعتين، فإنّ فيه روضة من رياض الجنة.. (٣٣)

٥ - وقال ابن حمزة: فإذا فرغ أتى المنبر ومسح وجهه وعينيه برمانيته .. وصلّى ركعتين بين القبر والمنبر، فإنّ فيه روضة من رياض الجنة (٣٤).

٦ - وقال المحقق الحلي: الرابع يستحبّ الغسل لدخولها وزيارة

فالرواية الأولى والثانية والثالثة والرابعة والثامنة والتاسعة جعلت بداية الروضة بيته وحجرته وبيوته الشريفة. والرواية الخامسة جعلت بداية الروضة منبره ﷺ والسادسة: المسجد الشريف والسابعة: قبره ﷺ. هذا من جهة البداية.

وأما من جهة النهاية: فالرواية الأولى والثانية والخامسة والسابعة والثامنة والتاسعة جعلت نهاية الروضة المنبر الشريف. والرواية الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة مصلاه أو المصلّى. فتكون حدود الروضة بحسب ما مرّ علينا من الروايات ستّة:

الحّد الأول: ما بين بيته وحجرته والمنبر. والحّد الثاني: ما بين حجراته والمنبر. والثالث: ما بين بيته ومصلاه. والرابع: ما بين المنبر والمصلّى. والخامس: ما بين القبر والمنبر. والسادس: ما بين المسجد إلى المصلّى. وعلى هذا فيكون أضيق الحدود هو ما دار بين القبر ومصلاه إذا فسّرنا

المصلّى بحرابه في المسجد. وأوسع الحدود: هو ما كان بين المسجد ومصلّى العيد.

وأما ما ورد عن أهل البيت العصمة عليهم السلام ففي بعضه: ما تحدّد الروضة من المنبر إلى الظلال وفي بعض آخر: تحدّد الروضة بما بين المنبر وبيوته ﷺ وبيت علي وفاطمة، وثالثه بين القبر والمنبر.

والذي يخطر بالبال بل يكون في النهاية هو المختار: أن روايات بين البيت أو القبر والمنبر روضة من رياض الجنّة كثيرة ومتظافرة ومشهورة ومنقولة في معظم الكتب الحديثيّة، ومؤيدة بروايات وردت عن أهل البيت عليهم السلام كما مرّ عليك. وإنّا وإن عثرنا على أحاديث نقلت عنها ﷺ بما يخالف الحّد المذكور: من أن حدّ الروضة فيما بين المسجد والمصلّى، أو كل المسجد في زمن الرسول أو بعده. لكن كل هذه الأقوال مردودة وغير ثابتة وأنهم استدّلوا بأشياء أغلبها



ضعيف مبناها، وهذا ما أشار إليه صاحب كتاب اتحاف المؤمنين^(٣٧).

يبقى ما رواه جميل عن الصادق عليه السلام: أن الروضة هو ما بين المنبر وبيوت النبي صلى الله عليه وآله فنقول: إن صحّت الرواية عنه. وأثبتنا أن بيوت النبي كانت تمتد إلى باب الرحمة، وقصد النبي من البيوت كل بيوته، فكلّ المسجد داخل في الروضة كما قيل. ولكن يمكن أنه أراد صلى الله عليه وآله غالب بيوته

التي كانت تقع على جهة الشرق لا كلّ بيوته. إضافة على ذلك أنه لم يدّع أحد من علمائنا هذا الحدّ بحيث يكون كلّ المسجد داخلاً في الروضة. وأمّا بيت علي وفاطمة وإن كان بحسب الحدّ المذكور خارجاً عن حدّ الروضة، لكن يمكن أن نعدّ البيت من الروضة أيضاً اعتماداً على قول أهل البيت بأن بيت علي وفاطمة عليهما السلام من الروضة. وأهل البيت أدري بما في البيت.

رياض الجنة .. لأنَّ قبر فاطمة بين
قبره ومنبره، قبرها روضة من رياض
الجنة (٤٠).

وأن الله شرف تلك البقعة
الطاهرة لأنَّها مدفن الزهراء فاطمة عليها السلام
باعتبار أن قبر المعصوم وحواليه
روضة من رياض الجنة، كما ورد في أن
قبر النبي صلى الله عليه وآله (٤١) والحسين عليه السلام (٤٢)
وعلي بن موسى الرضا عليه السلام (٤٣) أيضاً
روضة من رياض الجنة ولا استغراب
من ذلك. ولكن لما لم يعين مكان قبر
الزهراء في الروضة، وكان بين القبر
والمنبر؛ فلذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين
قبري ومنبري مشيراً إلى قبر
الزهراء عليها السلام. وهذا الاحتمال وإن لم يكن
بعيداً في نفسه، إلا أن قبر الزهراء قد
خفي علينا، فقد روي أنها دفنت في
بيتها أو في البقيع (٤٤).

ولكن يمكن الالتزام بذلك،
والقول بامتداد الروضة الشريفة،
ودخول قبر الزهراء في الروضة، وإن
كانت مقبورة في بيتها، اعتماداً على

مساحة الروضة الشريفة:

وأما مساحة الروضة طويلاً
وعرضاً فقليل: يبلغ طول الروضة اثنين
وعشرين متراً، وعرضها خمسة عشر
متراً (٣٨).

وقال في الدرر الثمين: ومساحة
الروضة الشريفة من المنبر الشريف
غرباً إلى الحجرة شرقاً سبعة وستون
ذراعاً بالذراع الهاشمي .. (٣٩)

علّة تشريف الروضة المقدّسة:

وهناك سؤال يطرح نفسه بأنه:
لماذا فضّلت تلك البقعة الطاهرة على
ساير المسجد؟

والجواب عن ذلك هو: أنا وإن
لم نعر على شيء يدل بوضوح على
حكمة أفضلية الروضة على ساير
المسجد، ولكن يكفينا ما روي عن
الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:
ما بين قبري ومنبري روضة من

الخبر المذكور عن الصادق، قال فيه: قبرها روضة من رياض الجنة، لتوسعة الروضة بحيث تشمل بيتها، كما ادّعاه العلامة المجلسي مؤيداً بما روى جميل عن الصادق عليه السلام قال: فقلت له: بيوت النبي وبيت عليّ منها؟ قال: نعم وأفضل.

ويحتمل أنها لما كانت هذه البقعة الطاهرة محلّ جلوس النبي للوعظ والتبليغ وأداء الرسالة الإلهية، ولما كانت تلك البقعة معدّة لكسب العلم والمعرفة حيث كان يُقتبس ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله وهو فيها، لذلك شرفها الله على سائر المسجد. ويحتمل أيضاً: أن هذه البقعة لما كانت قطعة من الجنة وستعود إليها؛ فلذلك شرفها الله تعالى.

آداب الروضة:

اهتمّ السلف والخلف برعاية الآداب والمستحبات في الروضة المقدسة، ووردت روايات كثيرة ترغب

في الدّعاء وتحبب الصلاة وطلب الحاجة من الله - عزوجل - وحتى زيارة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في الروضة المقدسة، وإليك نصّ ما روي في ذلك:

١- استحباب الصلاة في الروضة:

عقد الحرّ العاملي رحمه الله باباً حول استحباب الإكثار من الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله، خصوصاً بين القبر والمنبر، وفي بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام، وتعرض لذكر روايات مروية عن المعصومين عليهم السلام بأن الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله تعدل ألف صلاة في غيره (٤٥)، أو تعدل عشرة آلاف صلاة (٤٦)، وترغيبهم في الصلاة في المسجد النبوي بعد الاستشهاد بقول النبي صلى الله عليه وآله: ما بين منبري وبيوتي روضة من رياض الجنة، وصلاة في مسجدي تعدل عشرة آلاف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام. قال جميل: قلت له: بيوت النبي وبيت عليّ منها؟ قال: نعم

وأفضل (٤٧).

الدعاء عند القبر فائت المنبر وامسحه بيدك، وخُذ برمانيه وهما السفلاوان وامسح عينيك ووجهك به ..، وقم عنده فاحمد الله واثن عليه وسل حاجتك، فإن رسول الله ﷺ قال: ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة .. (٥٢).

وقال الشيخ الطوسي: ويستحب أن يصلي ما بين القبر والمنبر ركعتين فإن فيه روضة من رياض الجنة (٤٨). وقال ابن ادريس الحلي: ويستحب الصلاة بين القبر والمنبر ركعتين فإن فيه روضة من رياض الجنة (٤٩).

٣- استحباب زيارة الزهراء في الروضة:

ومن الآداب في الروضة زيارة فاطمة بنت محمد ﷺ فيها. قال الشيخ المفيد: ثم قف وزر فاطمة فإنها هناك مقبورة. فإذا أردت زيارتها فتوجه إلى القبلة في الروضة، وقل: السلام عليك يا رسول الله وعلى بنتك الصديقة الطاهرة، السلام عليك يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ، السلام عليك أيتها البتول الشهيدة الطاهرة .. ثم ارفع يديك وادع بما بدا لك .. (٥٣)

وقال المحقق: الثالثة يستحب أن تزار فاطمة عليها السلام من عند الروضة (٥٤).

وقال البحراني: قد اتفقت الأخبار وكلمة الأصحاب: على أنه يستحب لزائر المدينة بعد الدخول إكثار الصلاة في مسجد الرسول ﷺ ولا سيما في الروضة وهي ما بين القبر والمنبر إلى طرف الظلال (٥٠). وقال المحقق: وتستحب الصلاة بين القبر والمنبر وهو الروضة (٥١).

٢- استحباب طلب الحاجة في الروضة: ومن جملة الآداب والمستحبات الواردة في الروضة الدعاء والثناء وطلب الحاجة. روى معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام قال: إذا فرغت من



تلخص مما ذكرنا: أن الروضة المقدسة الواقعة في الحرم المدني بقعة طاهرة شرفها الله، وعظمها ببركة رسوله الكريم ﷺ وهي ما بين القبر والمنبر. وعلى من زار النبي ﷺ أن يحمد الله ويثني عليه ويصلي ويدعو ويزور السيدة فاطمة فيها. رزقنا الله وإياكم زيارته.

□ □ □

وقال العلامة الحلي: والغسل عند دخولها وزيارة فاطمة عليها السلام في الروضة وبيتها والبقيع والأئمة به والصلاة في الروضة .. (٥٥)

وقال الشيخ الطوسي: ويستحب أن يصلي ما بين القبر والمنبر ركعتين فإن فيه روضة من رياض الجنة. وقد روى أن فاطمة عليها السلام مدفونة هناك، وقد روى: أنها مدفونة في بيتها، وقد روى أنها مدفونة في البقيع، وهذا بعيد. والروایتان الأوليان أشبه وأقرب إلى الصواب، وينبغي أن يزور فاطمة عليها السلام من عند الروضة .. (٥٦)

٤- استحباب صلاة زيارة النبي ﷺ في الروضة:

ويستحب أيضاً لمن زار النبي ﷺ أن يصلي الركعتين عند الفراغ من زيارته في الروضة. قال الشهيد في الدروس: وسادسها صلاة ركعتين للزيارة عند الفراغ، فإن كان زائراً للنبي في الروضة .. (٥٧)

الهوامش :

- (١) لسان العرب ٥: ٣٦٩.
- (٢) مجمع البحرين : ٣٣٠.
- (٣) أخبار مدينة الرسول : ٨٣.
- (٤) مستدرك الوسائل ١٠: ١٩٥، البحار ٩٩: ٣٨٢.
- (٥) الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين : ٢٤.
- (٦) وفاء الوفا ٢: ٤٢٩.
- (٧) قال البحراني : التبعة بضمّ المثناة الفوقانية ثمّ المهملتين في الأصل : هي الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كان في المطمئنين فهي روضة .. وقيل التبعة : الدرجة وقيل : الباب .. الحدائق الناضرة ١٧: ٤١٥.
- (٨) وسائل الشيعة ١٠: ٢٧٠، فروع الكافي ٤: ٥٥٤.
- (٩) الحدائق الناضرة ١٧: ٤١٦.
- (١٠) لسان العرب ٥: ٣٦٩.
- (١١) الدر الثمين : ٢٤، وفاء الوفا ٢: ٤٢٩.
- (١٢) أخبار مدينة الرسول : ٨٢، عمدة الأخبار : ١٣٨، وفاء الوفا ٢: ٤٢٩، اتحاف المؤمنين : ٦٤.
- (١٣) وفاء الوفا ٢: ٤٢٩.
- (١٤) وسائل الشيعة ١٠: ٢٧٠، فروع الكافي ٤: ٥٥٥، العقد الثمين ٣: ٤١٠، وفاء الوفا ٢: ٤٢٦، أخبار مدينة الرسول : ٨٠، عمدة الأخبار : ١٣٨.
- (١٥) شفاء الغرام ٢: ٣٦٢، أخبار مدينة الرسول : ٨٢.
- (١٦) وفاء الوفا ٢: ٤٢٨.
- (١٧) المصدر نفسه.
- (١٨) المصدر نفسه.
- (١٩) عمدة الأخبار : ١٨٢، وفاء الوفا ٢: ٤٢٨.
- (٢٠) وسائل الشيعة ١٠: ٢٧٠، وفاء الوفا ٢: ٤٢٧.
- (٢١) فروع الكافي ٤: ٥٥٦، وسائل الشيعة ٣: ٥٤٣.
- (٢٢) وفاء الوفا ٢: ٤٢٨ و ٤٢٩.
- (٢٣) البحار ٩٧: ١٤٦، وسائل الشيعة ١٠: ٢٧١، فروع الكافي ٤: ٥٥٥.
- (٢٤) المصدر نفسه.
- (٢٥) المصدر نفسه.
- (٢٦) الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين : ٢٤، المسجد النبوي عبر التاريخ : ٤٩.
- (٢٧) المصدر نفسه.
- (٢٨) اتحاف المؤمنين بتاريخ مسجد خاتم المرسلين : ٦٢.



- (٢٩) المصدر نفسه ، عمدة الأخبار : ١٨٢ .
- (٣٠) النهاية : ٣١٧ (الجوامع الفقهية) .
- (٣١) المذهب : .
- (٣٢) الجامع للشرائع : ٢٣١ .
- (٣٣) السرائر : .
- (٣٤) الوسيلة : ١٩٧ .
- (٣٥) المختصر النافع : ٩٨ .
- (٣٦) الحقائق الناضرة : ١٧ : ٤١٥ .
- (٣٧) اتحاف المؤمنين : ٦٤ .
- (٣٨) المسجد النبوي عبر التاريخ : ٤٩ ، أشهر المساجد في الإسلام : ١ : ٢٢٢ ، مرآة الحرمين : ١ : ٤٥١ .
- (٣٩) الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين : ٢٤ .
- (٤٠) البحار : ٩٧ : ١٩٢ .
- (٤١) المصدر نفسه .
- (٤٢) مستدرک الوسائل : ١٠ : ٣٢٥ .
- (٤٣) المصدر نفسه : ٣٥٧ .
- (٤٤) البحار : ٩٧ : ١٩٢ .
- (٤٥) وسائل الشيعة : ٣ : ١٩٢ .
- (٤٦) المصدر نفسه .
- (٤٧) البحار : ٩٩ : ٣٨٢ ، وسائل الشيعة : ٣ : ٥٤٣ .
- (٤٨) النهاية : ٣١٧ (الجوامع الفقهية) .
- (٤٩) السرائر : .
- (٥٠) الحقائق الناضرة : ١٧ : ٤١٥ .
- (٥١) شرايع الإسلام : ١ : ٢٧٩ ، المسالك : ٢ : ٣٨٤ .
- (٥٢) مستدرک الوسائل : ١٠ : ١٩٥ ، وسائل الشيعة : ١٠ : ٢٧٠ ، فروع الكافي : ٤ : ٥٥٣ .
- (٥٣) المقنعة : ٧١ .
- (٥٤) شرايع الإسلام : ١ : ٢٧٩ ، المسالك : ٢ : ٣٨٢ .
- (٥٥) قواعد الأحكام : .
- (٥٦) النهاية : .
- (٥٧) البحار : ٩٧ : ١٣٤ .

المساجد والأماكن الأثرية المجهولة

لزائر المدينة المنورة الميمونة عبد الرحمن خويلد

«اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحَبِّبْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ» رسول الله ﷺ

مقدمة:

بما أنَّ للمدينة المنورة فضلاً كبيراً على المسلمين، لأنها مهاجر الرسول الكريم محمد (ﷺ)، وعاصمة الإسلام الأولى، ومنها انطلق الإسلام إلى الآفاق، وعمَّ بنوره البشرية، وأنقذ من هداه الله سبحانه من الشرك والضلالة إلى التوحيد والهداية، لذلك لابدَّ من معرفة معالمها المهمة، وآثارها الرائعة.

وقد رأيت أنَّ أكثر الزائرين لطيبة الطيبة لا يعرف عنها سوى المسجد النبوي الشريف، والبقيع، والمزارات الأربعة المشهورة، وهي (مسجد قباء، ومسجد القبلة، والمسجد السبعة، وشهداء أحد)، علماً أنَّ قسماً منهم لا



يعرف حتّى هذه المزارات الأربعة إلّا بعد سماعه عنها من أصحابه، أو من بعض سائقي السيارات عندما يرفعون أصواتهم بعبارة (زيارة يا حاج). أمّا بقية المساجد والأماكن الأثرية الأخرى فاعتقد أنّ أغلب زوّار هذه المدينة العزيزة إن لم يكن كلّهم لا يعرف أو لم يسمع عن بعضها، مع كثرة زيارته للمدينة المنورة.

وكيف تُجهل هذه المساجد والأماكن التي كانت عامرة بنزول الوحي عليه السلام، أو كونها مصلى أو مقبل أو مبيت النبي (ﷺ)؟ فتجول زوّارها في ربوعها يعيد إلى أذهانهم الذكريات العطرة، والصور الرائعة للسيرة النبويّة على هذه الأرض المباركة، ممّا يثلج صدورهم، ويسعد نفوسهم، ويزيد إيمانهم. لذلك رأيت أنّ من الضروري إخراج كتابٍ لينتفع به الزوّار. والمنهج الذي اتّبعت فيه هو: تصوير هذه المساجد والأماكن بسهولة التعرّف عليها أولاً، وللحفاظ على صورتها خشية اندثارها ثانياً، ثمّ إيضاح أماكنها، والتعليق عليها. وقد رتبتها من حيث القرب والبعد عن مسجد الرسول (ﷺ)، مراعيّاً في ذلك موقعها في اتّجاه واحد، ووضعت خريطة تبين أماكنها، وتسلسل أرقامها؛ ليستطيع الزائر الوصول إليها بسهولة ويسر، كما أنّي حرصت على ذكر المساجد التي ثبت أنّ النبي (ﷺ) صلى فيها، وختمت الكتاب بوضع أربعة فهارس له.

راجياً من الله تعالى العون والسداد والتوفيق لما يحبّه ويرضاه، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

١- مسجد المصلى (الغمامة)

يقع هذا المسجد إلى الغرب من مسجد النبي (ﷺ)، ويبعد عنه حوالي



٩٤٨/٣



أربعائة متر، وتقام فيه الصلوات الخمس عدا صلاة الجمعة.
 وكان يسمّى بـ(مسجد المصلّى)، لأن أكثر صلاة النبي (ﷺ) للعديد
 فيه^(١)، ثمّ سُمّي بـ(مسجد الغمامة)، ولا يُعرف عند أغلب الناس في الوقت
 الحاضر إلا بهذا الاسم. ويُروى أن المصطفى (ﷺ) خرج إلى المصلّى فقال: «هذا
 مُسْتَمَطَّرنا ومُصَلَّلنا لِفَطْرنا وأُضْحاننا، فلا يضيق ولا ينقص علينا»^(٢).

٢- مسجد الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)

موقع هذا المسجد بالقرب من مسجد الغمامة في الشمال الغربي منه، ويبعد
 عنه بمسافة تقدّر بتسعين متراً تقريباً. ولقد ذكرت بعض كتب تاريخ المدينة^(٣): أن

النبي ﷺ صلى في مكان هذا المسجد سنة أو سنتين، وقد تغنى بعض الشعراء بالمصلى، واشتاقوا إلى ما حوله من مساكن، قال أحدهم:

فكم من حرّة بين المصلى إلى أحد إلى ما حاز ريم
إلى الجماء من خدّ أسيل نقيّ اللون ليس به كلوم

وقال آخر:

ليت شعري هل العقيق فسلح فقصور الجماء فالعرستان
فإلى مسجد الرسول فما حا ز المصلى فجانبنا بطحان
فبنوا مازن كعهدي أم لي سوا كعهدي في سالف الأزمان^(٤)



وهذا المسجد أكبر من سابقه، وقد جدّد حديثاً.

٣ - مسجد السقيا

مكان هذا المسجد غرب المسجد النبوي، ويبعد عنه حوالي كيلومترين ومائة متر، ويتميز بقبابه الثلاث، والوسطى أكبرها، وهو الآن داخل سور محطة السكة الحديدية - التي يطلق عليها عند عامة الناس اسم (الاستصيون) - في الجهة الجنوبيّة منه.

وبُني هذا المسجد في مكان قبّة الرسول (ﷺ) عند خروجه لغزوة بدر، واستعراض جيشه^(٥)، ووعدّه الله - تعالى - أن تكون إحدى الطائفتين له، إما العير أو النفير، بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ

أَنَّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴿٦﴾.

وقد صلى النبي ﷺ فيه ودعا الله أن يبارك للمدينة في مدّها وصاعها^(٧). وكانت إلى الجنوب من هذا المسجد بئر السقيا، التي كان يُستعذب من مائها لرسول الله ﷺ، وقد دُفنت ولم يبق لها أثر^(٨).

٤- مسجد المنارتين

يقع هذا المسجد إلى الغرب من مسجد السقيا، ويبعد عنه بمسافة تقدّر بكيلومتر واحد، وهو قبل محطة العواجي (الخضر) للبنزين بمائة متر، على يمين الذهاب على طريق مكة القديم. وهو الآن متروك، والمتبقي منه عبارة عن بناء



حجري شبه مقفل، ولا يمكن الصلاة فيه؛ لأنه لم يُهَيَأْ لذلك. وقد صَلَّى النبي (ﷺ) في مكانه، فلذلك بُني هذا المسجد^(٩).

قال الأستاذ غالي الشنقيطي في كتابه الدر الثمين^(١٠): «وعلى يسار طريق جدة يوجد مسجد المنارتين، وقد قيل: إنَّ النبي (ﷺ) صَلَّى في مكانه فلهذا بني ثم مسجد، وهو الآن جديد البناء وجميل وكبير تقام فيه الصلوات الخمس». وقد توهَّم في ذلك، لأنَّ المسجد يقع على يمين طريق جدة - مكة، كما أنَّه لم يجدَّ لحدِّ الآن، ولم تقم فيه الصلوات.

٥ - مسجد الإجابة

يقع هذا المسجد إلى الشمال الشرقي من المسجد النبوي، ويبعد عنه بمسافة

تقدّر بستمائة وخمسين متراً، ويطلق على اسم الشارع الذي يمرّ بالقرب منه شارع الستين.

وكان هذا المسجد لبني معاوية^(١١) من الآوس، وعُرف هذا المسجد باسمهم، لكنّه اشتهر الآن بمسجد الإجابة؛ لأنّ الله تعالى استجاب لنبيّه (ﷺ) فيه، فروي «أنّ رسول الله (ﷺ) أقبل ذات يوم من العالية حتّى إذا مرّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلّينا معه، ودعا ربّه طويلاً ثمّ انصرف إلينا، فقال: سألت ربّي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمّتي بالسنة^(١٢) فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسمهم بينهم فننعيها»^(١٣).

وقال ابن شبه^(١٤): «صلّى الرسول (ﷺ) في مسجد بني معاوية ركعتين، ثمّ



قام فناجى ربّه ثم انصرف».

وقيل: إنّ النبي (ﷺ) صلى فيه عن يمين المحراب قدر ذراعين، وقد أهتم بهذا المسجد، وجدّد في الأزمنة السابقة مرّات عديدة^(١٥)، وقيل: إنّ المباهلة بين النبي محمّد (ﷺ)، ووفد نصارى نجران، وقعت في هذا المسجد، وذلك عندما أمر الله - تعالى - رسوله (ﷺ) بملاعتهم، لكنهم تراجعوا في اللحظة الأخيرة، ورفضوا الملاعة^(١٦).



الهوامش :

- (١) آثار المدينة : ٨٢، والدر الثمين : ٢٢٧ .
- (٢) تحقيق النصرة : ١٤٢، وآثار المدينة : ٨٢، والدر الثمين : ٢٢٧ .
- (٣) تحقيق النصرة : ١٤٢، ووفاء الوفا : ٢ : ٧٨٢، والدر الثمين : ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (٤) الدر الثمين : ٢٢٩ .
- (٥) تاريخ معالم المدينة المنورة : ١ : ٧٢، ووفاء الوفا : ٢ : ٩٧٢ .
- (٦) الأنفال : ٨ : ٧ .
- (٧) ووفاء الوفا : ٢ : ٨٤٤، والدر الثمين : ٢٢٨ .
- (٨) قيل: إنه كان يفصل بينها وبين المسجد طريق مكة القديم، ينظر: آثار المدينة : ٩٢، وقيل: إنه يمر فوقها الطريق المذكور، ينظر: الدر المنثور : ٢٢٨، والله أعلم بالصواب .
- (٩) تحقيق النصرة : ١ : ١٢٩، ووفاء الوفا : ٢ : ٨٧٨، وعمدة الأخبار : ١٩٨ .
- (١٠) ص ٢٢٨ .
- (١١) تحقيق النصرة : ١٢٩، وعمدة الأخبار : ١٧٦، وآثار المدينة : ٩٤ .
- (١٢) السنة: الجذب، وهو انقطاع المطر، وبيوسة الأرض، ينظر: المصباح المنير (السين مع النون) : ١ : ٢٩٧، و(الجيم مع الدال) : ١ : ١٢٦ .
- (١٣) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة : ٤ : ٢٢١٦، حديث رقم ٢٨٩٠، والطبراني في الصغير : ١ : ٨ .
- (١٤) تاريخ المدينة المنورة : ١ : ٦٨ .

(١٥) الدر الثمين: ١٥٢.

(١٦) سيرة ابن هشام ٢: ١٦٠.

من رحلة ابن جبير عن الحج

عبد الله المؤمن

هذه بعض اللامحات التي سطرتها رحلة ابن جبير - أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَانِي، الأَنْدَلُسِي، الشَّاطِطِي، البِلَنَسِي. ولد في يِلَنَسِيَّة. وسمِع العلوم من أبيه في شاطِطِيَّة، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش أثناء رحلته الثالثة الطويلة - بعد رحلتين قصيرتين - التي استغرقت من يوم الاثنين التاسع عشر من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ وختمها يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٥٨١ هـ، وقد استغرقت رحلته الحجازية ابتداءً من ليلة الجمعة الرابعة والعشرين من شهر ربيع الأول من العام ٥٧٩ هـ، وانتهاءً في يوم الأحد العشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة. أما مدة إقامته في مكة



فيصفها لنا بقوله:

«فكانت مدةً مقامنا بمكة، - قدسها الله - من يوم وصولنا إليها، وهو يوم الخميس ١٣ لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين، إلى يوم بإقلاعنا من الزاهرة، وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر وتُلت شهر، التي هي بحسب الزائد والناقص من الأشهر مئتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوماً سعيدات مباركات....»

ونحن بهذه اللمحات سوف نعود مع ابن جبير؛ ولنرى معه أحوال الناس في ذلك الزمان، وحال العمران، وما وصفه لنا من مشاعر مقدسة وأنفاس متجهة وقلوب خاشعة، وأيدٍ متضرعة.

آفة الحجّاج:

يصف لنا ابن جبير هذه الآفة، وهو في وصفه يضع الحقائق، ويوضح الواقع، ويبين كيف تعامل الإنسان في ذلك الزمان مع ما يواجهه من مصاعب. فابن جبير - بعد أن يصل إلى جدّة عن طريق البحر الأحمر، الذي كان يسميه بحر فرعون - يصف لنا طريقة ذهاب الحجّاج من جدّة وإليها عن طريق البحر، فيقول:

«والركوب من جدّة وإليها آفة للحجّاج عظيمة إلا الأقل منهم؛ ممن يسلمه الله - عزّ وجلّ - وذلك أن الرياح تُلقِيهم - على الأكثر - في مراسٍ بصحارى تبعد منها مما يلي الجنوب فينزل إليهم البُجاة، وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فيُكرون منهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء، وربما ذهب أكثرهم عطشاً، وحصلوا على ما يخلفه من نفقة أو سواها، وربما كان من الحجّاج من يتعسّف^(١) تلك المجهلة^(٢) على قدميه فيضلّ ويهلك عطشاً. والذي

يسلم منهم يصل إلى عذاب كأنه مُنْشَر من كفن، شاهدنا منهم مُدَّةً مُقَامِنَا أَقْوَاماً قد وصلوا على هذه الصفة في مناظرهم المستحيلة^(٣)، وهيئاتهم المتغيرة، آية للمتوسمين. وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي، ومنهم من تساعده الريح إلى أن يحطَّ بِمُرْس عذاب، وهو الأقلُّ».

صفة جُدَّة:

وبعد أن يصف ابن جبير في رحلته أهوال بحر فرعون - أي البحر الأحمر - ينتقل إلى وصف مدينة جُدَّة - بعد أن وصل إليها - فهو يقول في وصفها: «وجُدَّة هذه قرية على ساحل البحر المذكور، أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغُرَف، ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أذى الحرِّ، وبهذه القرية آثار قديمة تدلُّ على أنها كانت مدينة قديمة، وأثر سورها المُحْدِق بها باقٍ إلى اليوم، وبها موضع فيه قُبَّة مشيِّدة عتيقة، يُذكر أنه كان منزل حَوَّاءَ أُمِّ الْبَشَر - صلى الله عليها - عند توجَّهها إلى مكة، فبني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله، والله أعلم بذلك».

وصف سكان جُدَّة:

ثم يأتي بعد ذلك إلى وصف سُكَّان جُدَّة نسباً ومعاشاً وعملاً: «وأكثر سُكَّان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أَشْرَافَ عَلَوِيَّونَ: حَسَنِيَّونَ وَحُسَيْنِيَّونَ، وَجَعْفَرِيَّونَ - رضي الله عن سلفهم الكريم - وهم من شظف العيش بحالٍ يتصدَّع له الجهاد إشفاقاً، وَيَسْتَخْدِمُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي كُلِّ مهنة من المهن: من إكراء جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حَطَبٍ يَحْتَطِبُونَهُ، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريقات بأنفسهنَّ،



فسبحان المُقدِّر لما يشاء، ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا، جعلنا الله ممن يدين بحُبِّ أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

استغلال الحجاج:

ويصف لنا ابن جبير طائفة من الناس تستغل الحجاج سرقة واعتداءً وتذيقهم من البلاء ما لا يوصف.

«وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فِرَق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يُعتقد في أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها: ينتهبونهم انتهاباً، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه».

إلى الحرم الشريف:

ثم يصف لنا ابن جبير طريقه من جدة إلى مكة وصفاً دقيقاً فيه سرعة البديهة، وأمانة النقل.

«وفي عشيّ يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور - ربيع الآخر - وهو في الثاني من شهر أغسطس، كان انفصالنا من جدة بعد أن ضمن الحاج بعضهم بعضاً، وثبتت أسماؤهم في زمام^(٤) عند قائد جدة علي بن موفّق، حسبما نفذ إليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مُكثّر بن عيسى....

وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا القرين مع طلوع الشمس، وهذا الموضع هو منزل الحاج، ومحط رحالهم، ومنه يُحرّمون وبه يُريحون اليوم الذي يصبحونه،

فإذا كانوا في عشية رَفَعُوا وَأَسْرَوْا لَيْلَتَهُمْ، وَصَبَّحُوا الْحَرَمَ الشَّرِيفَ، زَادَهُ اللَّهُ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً.

والصادرون من الحجّ ينزلون به أيضاً وَيُسْرُونَ منه إلى جدّة، وبهذا الموضع المذكور بئر مَعِينَة عذبة، والحاج بسببها لا يحتاجون إلى تزود الماء غير ليلة إسرائهم إليه، فأقننا بياض يوم الأربعاء المذكور مُرِجِينَ بِالْقَرِينِ، فلما حان العشي رُحْنَا منه مُحْرِمِينَ بِعُمْرَةٍ، فَأَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا تِلْكَ، فكان وصولنا مع الفجر إلى قريب الحرم، فنزلنا مُرْتَقِبِينَ لانتشار الضوء.

ودخلنا مكّة... وكان نزولنا فيها بدار تُعْرَفُ بالنسبة إلى الحلال قريباً من الحرم، ومن باب السُدّة أحد أبوابه في حجرة كثيرة المرافق المُسَكِّنَة مُشْرِفَة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة».

صفة المسجد الحرام:

ويعرج بنا ابن جبير - ونحن معه في زمانه داخل الحرم المكي الشريف - وصفاً لبنائه، وتعريفاً لعمرانه، وتبييناً لما حواه من هندسة.

«البيت المكرّم له أربعة أركان، وهو قريب من التربع... إن ارتفاعه في الهواء من الصفح^(٥) الذي يُقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، ومنه ابتداء الطواف، ويتقهقر الطائف عنه لِيُرَّ جميع بدنه به، والبيت المكرّم عن يساره، وأول ما يُلقَى بعده الركن العراقي، وهو ناظر إلى جهة الشمال، ثم الركن الشامي، وهو ناظر إلى جهة الغرب، ثم الركن اليماني، وهو ناظر إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الركن الأسود، وهو ناظر إلى جهة الشرق، وعند ذلك يُتم شوطاً واحداً.

وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود، وهو قريب من الحَجَرِ بعشرة أشبار مُحَقَّقة، وذلك الموضع الذي بينهما من

صفح البيت يُسمَّى المُلتَزَمَ، وهو موضع استجابة الدعاء، والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف، وهو من فضة مُذهبة، بديع الصنعة، رائق الصفة، يستوقف الأبصار حُسناً وخشوعاً للمهابة التي كساها الله بيته، وعُضاداته كذلك، والعتبة العليا كذلك أيضاً. وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز في سعته مقدار شبرين، وللباب ثَقَارَتَا فَضَّةٍ كبيرتان يتعلّق عليهما قُفل الباب، وهو ناظر للشرق، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً، وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار».

ثم يصف لنا ابن جبير - ونحن معه في رحاب التوحيد - ما يحوي البيت الكريم من فرش وأعمدة ورخام، وهو في ذلك لا يُغادر ما تقع عليه عينه دون أن يدوّنه:

«وأول ما يلقي الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، وقد علاهما في الركن بُؤْيُبان من فضة كأنهما طاقان مُلصَّقان بزاوية الركن.... وفي الركن الذي يليه وهو اليماني كذلك، لكنّهما انقلعا وبقي العمود الذي كانا ملصقيّين عليه، وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان، وفي جهة الركن العراقي كذلك، وعن يمينه الركن العراقي وفيه باب يُسمّى بباب الرحمة يُصْعَدُ منه إلى سطح البيت المكرّم، وقد قام له قَبُو فهو متّصل بأعلى سطح البيت، داخله الأدراج».

ثم يصف لنا ابن جبير طريق الطواف الدائري، وحجارتها ذات الألوان المتعددة كأنها الرخام:

«وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سُود وُسُمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض، واتّسعت عن البيت بمقدار تسع خُطًى إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدّت إليه حتّى أحاطت به، وسائر

الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة،...».

أما كيف يسقى الحاج من ماء زمزم فيصف لنا ذلك ابن جبير بقوله:
«ويُخْرَج مع الليل لسقي الحاج في قِلال يسمونها الدوارق، كل دَوْرَق منها ذو مقبض واحد، وتَنُور بُرّ زمزم من رخام قد الصَّقَّ بعضه ببعض إصاقاً لا تحيله الأيام، وأُفْرِغ في أثنائها الرصاص، وكذلك داخل التنور، وحفّت به أعمدة الرصاص المُلصَقة إليه بلاغاً في قوّة لَزّه ورَصّه: اثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتَّنُور كله، ودَوْرُه أربعون شهراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغِلظه شبر ونصف، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سَعْتها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تُمَلأ ماءً للوضوء، وحوها مصطبة دائرة يرتفع الناس إليها ويتوضأون عليها».

ثم يذكر لنا وهو يتحدث عن الحجر الأسود، موقعه وصفته، وما يلاقيه الحاج من لدونة عند تقبيله، ويصف الحجر الأسود تشبيهاً بالحال:
«والحجر الأسود المبارك مُلصَقٌ في الركن الناظر إلى جهة المشرق، ولا يُدْرَى قدرُ ما دخل في الركن، وقيل إنّه داخل في الجدار بمقدار ذراعين، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعُقْد، وفيه أربَعُ قِطَعٍ ملصَقة.

ويقال: إن القَرَمَطِيَّ^(٦) - لعنه الله - كان الذي كسره، وقد شُدّت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه الصقيل، فيبصر الرائي من ذلك منظراً عجيباً هو قَيْدُ الأبصار.

وللحَجَر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يودّ اللاثم أن لا يقلع فمه عنه، وذلك خاصّة من خواصّ العناية الإلهيّة، وكفى أن النبي ﷺ قال:

«الركن يمين الله في الأرض يضاف بها عباده كما يضافح أحدكم أخاه».

وفي القطعة الصحيحة من الحجر مما يلي جانبه الذي يمين المستلم له - إذا وقف مُستقبِلَه - نقطة بيضاء صغيرة مُشرِقة تلوح كأنها خالٌ في تلك الصفحة المباركة، وفي هذه الشامة البيضاء أثر: «إن النظر إليها يجلو البصر»، فيجِبُ على المقبل أن يقصد بتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع».

ويتابع ابن جبير وصفه للحرم الشريف بذكر صوامعه.

«وللحرم سبع صوامع: أربع في الأربعة جوانب، وواحدة في دار الندوة، وأخرى على باب الصفا، وهي أصغرُها، وهي عَلم لباب الصفا، وليس يُصْعَدُ إليها لضيقها، وعلى باب إبراهيم صومعة قد ذُكرت عند باب إبراهيم فيما بعد».

ثم يصف لنا ابن جبير كيفية كسوة الكعبة في ذلك الزمان بقوله:

«وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر، وهي أربع وثلاثون شُقة: في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضاً، وفي الصفح بين العراقي والشامي ثمان، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمان أيضاً، قد وُصِلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب، وقد أحاط بها من أسفلها تكيف مبني بالجص، في ارتفاعه أزيد من شبر، وفي سعته شبران أو أزيد قليلاً، في داخله خشب غير ظاهر، وقد سُمِّرَتْ فيه أوتاد حديد في رؤوسها حلقات حديد ظاهرة، قد أدخل فيها مَرَس من القُنب غليظ مفتول، واستدار بالجوانب الأربعة بعد أن وُضع في أذيال الستور شبه حُجَز^(٧) السراويلات، وأدخل فيها ذلك المَرَس، وخُيِّطَ عليه بخيوط من القُطن المفتولة الوثيقة، ومجتمع الستور في الأركان الأربعة مَخِيْط إلى أزيد من قامة، ثم منها إلى أعلاها تتصل بعرى من حديد يُدْخَلُ بعضها في بعض، واستدار أيضاً بأعلاها على جوانب السطح تكيف ثانٍ، وقعت فيه أعالي الستور في

حَلَقَات حديد على تلك الصفة المذكورة، فجاءت الكسوة المباركة مَخِيطةً الأعلى والأسفل، وثيقة الأزرار، لا تُخْلَعُ إلا من عام إلى عام عند تجديدها، فسبحان مَنْ خَلَدَ لها الشرف إلى يوم القيامة، لا إله سواه».

ثم يصف لنا ابن جبير منبر الخطيب - خطيب المسجد الحرام يوم الجمعة - ويبين لباسه الذي يرتديه. وذكر الرايتين السوداوين اللتين تركزان في أول درجة من المنبر.

«وبإزاء المقام الكريم منبر الخطيب، فإذا كان يوم الجمعة، وقَرُبَ وقت الصلاة، ضُمَّ إلى صفح الكعبة الذي يقابل المقام، وهو بين الركن الأسود والعراقي، فيُسْنَدُ المنبر إليه، ثم يُقْبَلُ الخطيبُ داخلاً على باب النبي ﷺ، وهو يقابل المقام في البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال، لابساً ثوب سَوَادَ مرسومًا بذهب ومتعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً، وعليه طيلسان شَرَبَ رقيق، كل ذلك من كُسا الخليفة التي يُرْسَلُها إلى خُطباء بلاده، يرفُلُ فيها وعليه السكينة والوقار، يتهادى رُويداً بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قَوَمَةِ المؤذنين، وبين يديه ساعياً أحدُ القَوَمَةِ، وفي يده عودٌ مخروط أحمر قد رُبَطَ في رأسه مَرَسٌ من الأديم المفتول دقيق طويل، في طَرَفِهِ عَذْبَةٌ صغيرة ينفُضُها بيده في الهواء نفْضاً فتأتي بصوت عالٍ، يُسْمَعُ من داخل الحرم وخارجه، كأنه إِيذان بوصول الخطيب، ولا يزال في نفْضِها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها «الْفَرْقَعَةُ»، فإذا قَرُبَ من المنبر عَرَجَ إلى الحجر الأسود فقبَّله ودعا عنده، ثم سعى إلى المنبر والمؤذن الزمزمي، رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، ساع أمامه، لابساً ثيابَ السواد أيضاً، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلُّدٍ له، فعند صعوده في أول درجة قلَّده المؤذن المذكور السيف، ثم ضَرَبَ بنعْلِهِ سيفه فيها ضربةً أسمع بها الحاضرين، ثم في الثانية، ثم في الثالثة، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة، ووقف داعياً مُسْتَقْبِلَ



الكعبة بدعاء خفي، ثم انفتل عن يمينه وشماله وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإرد الناس عليه السلام، ثم يقعد، ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالأذان على لسان واحد، فإذا فرغوا قام للخطبة فذكر ووعظ وخشع فأبلغ، ثم جلس الجلسة الخطيبية، وضرب بالسيف ضربة خامسة، ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد ﷺ وعلى آله ورَضِيَ عن أصحابه، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضي الله عن جميعهم، ودعا لعمي النبي ﷺ حمزة والعباس وللحسن والحسين، وإلى الترضي عن جميعهم، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ورَضِيَ عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ....

وفي أثناء الخطبة تُركّز الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر، ويمسكهما رجلان من المؤذنين، وفي جانبي باب المنبر حلقتان، تُلقى الرايتان فيهما مركزتين، فإذا فرغ من الصلاة، خرج والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقة أمامه على الصفة التي دخل عليها، كأن ذلك أيضاً إيدان بانصراف الخطيب، والفرغ من الصلاة، ثم أعيد المنبر إلى موضعه بإزاء المقام.

ثم يذكر لنا ابن جبير خصائص يمتاز بها الحرم المكي، والبيت العتيق لما له من بركة واهتمام سماوي وسماوات نورانية:

«والبيت العتيق مبني بالحجارة الكبار الصمّ الشمر، قد رُصّ بعضها على بعض، وألصقت بالعقد الوثيق الصاقاً لا تُحِيلُهُ الأيام، ولا تقصمه الأزمان، ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليماني فُسِّمَتْ بمسامير فضة، وأعيدت كأحسن ما كانت، والمسامير فيها ظاهرة.

ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد وله التنزيه الأعلى. وحمام الحرم لا تُحصى كثرة، وهي من الأمن بحيث يُضربُ بها المثل، ولا

سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة، ولا تحلّ فيه بوجه، ولا على حال، فترى الحِمَامَ يتجلّى على الحرم كله، فإذا قرّبت من البيت عرّجت عنه يميناً أو شمالاً، والطيور سواها كذلك.

ومن آياته أن بابه الكريم يُفْتَحُ في الأيام المعلومة المذكورة، والحرم قد غصّ بالخلق، فدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عزّ وجلّ ولا يبقى فيه موضع إلا ويصلي فيه كل أحد، ويتلاقى الناس عند الخروج منه، فيسأل بعضهم بعضاً: هل دخل البيت ذلك اليوم؟

فكلُّ يقول: دخلتُ وصليتُ في موضع كذا وموضع كذا حيث صليّ الجميع، والله الآيات البينات والبراهين المعجزات، سبحانه وتعالى.

ومن عجائب اعتناء الله - تبارك وتعالى - به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار، ولا وقتاً من الليل، فلا تجد من يُخبر أنه رآه دون طائف به، فسبحان من كرّمه وعظّمه وخلّد له التشريف إلى يوم القيامة».

أبواب الحرم:

ثم نخرج مع ابن جبير عند ذكره لأبواب الحرم المكي الشريف معدّداً إياها مميزاً بينها.

«للحرم تسعة عشر باباً، أكثرها مُفْتَحٌ على أبواب كثيرة، حسبما يأتي ذكره إن شاء الله:

باب الصفا: يفتح على خمسة أبواب، وكان يسمّى قديماً بباب بني مخزوم.

باب الخلقين: ويسمّى بباب جياد الأصغر مُفْتَحٌ على بابين، هو مُحَدَّث.

باب العباس عليه السلام: هو يفتح على ثلاثة أبواب.

باب علي عليه السلام: مفتوح على ثلاثة أبواب.



باب النبي ﷺ: يفتح على 'بايين'.
 باب صغير أيضاً بإزاء باب بني شيبه المذكور: لا اسم له.
 باب بني شيبه: وهو يفتح على 'ثلاثة أبواب، وهو باب بني عبد شمس،
 ومنه كان دخول الخلفاء.
 باب دار الندوة: ثلاثة^(٨)، البابان من دار الندوة منتظمان، والثالث في
 الركن الغربي من الدار.
 فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين باباً.
 باب صغير بإزاء بني شيبه خُوخة^(٩) الأبواب: لا اسم له، وقيل: إنه يُسمى
 باب الرباط، لأنه يُدخَل منه لرباط الصوفية.
 باب صغير لدار العَجَلَة: مُحَدَّث.
 باب السدّة: واحد.
 باب العُمرة: واحد.
 باب حَزْوَرة: على 'بايين'.
 باب إبراهيم عليه السلام: واحد.
 باب يُنسَب لحَزْوَرة أيضاً: على 'بايين'.
 باب جِيَاد الأكبر: على 'بايين'.
 باب يُنسَب لجِيَاد أيضاً: على 'بايين، ومنهم من ينسب البايين من هذه
 الأبواب الأربعة الجيادية إلى الدقاقين، والروايات فيها تختلف، لكننا اجتهدنا في
 إثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة، والله المستعان لا ربّ سواه».

مَكَّةُ وَآثَارُهَا الْكَرِيمَةُ، وَأَخْبَارُهَا الشَّرِيفَةُ:

ثم يصف لنا ابن جبير جغرافية مَكَّةَ، وما تتضمنها من تضاريس وتكوينات بيولوجية، وذكر أبوابها، ومدافن المسلمين فيها:

«هي بلدة قد وضعها الله - عزّ وجلّ - بين جبال مُحَدِّقَةٍ بها، وهي بطن واد مقدس، كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ عزّ وجلّ.

ولها ثلاثة أبواب: أولها باب المَعْل، ومنه يُخْرَجُ إِلَى الجَبَّانَةِ المباركة، وهي بالموضع الذي يُعرف بالحَجُون، وعن يسار المازِّ إليها جبل في أعلاه ثنِيَّةٌ عليها علم شبيه البرج، يُخْرَجُ منها إِلَى طريق العُمَرَة، وتلك الثنِيَّة تُعرف بكَدَاء، وهي التي عني حَسَّان بقوله في شعره:

تُثِيرُ النِّقْعَ موعِدُهَا كَدَاءٌ^(١٠).

وبالجَبَّانَةِ المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دَثَرَتْ مشاهدُهم المباركة، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم....

ثم باب المَسْفَل: وهو إِلَى جهة الجنوب، وعليه طريق اليمن....

ثم باب الزاهر: ويعرف أيضاً باب العُمَرَة، وهو غربي، وعليه طريق مدينة الرسول ﷺ وطريق الشام وطريق جُدَّة، ومنه يُتَوَجَّهُ إِلَى التنعيم، وهو أقرب ميقات المعتمرين، يُخْرَجُ من الحرم إِلَيْهِ عَلَى باب العمرة، ولذلك أيضاً يسمَّى هو بهذا الاسم».

ويستمر ابن جبير في حديثه فيذكر مشاهدتها المكرمة من قُبَّةِ الوحي، والبقعة التي تبركت بولادة الرسول ﷺ على ثراها، أو دار الحَيَزُرَان التي كان النبيُّ يعبد الله فيها سرّاً، وجبل ثور وغير ذلك ذكراً جميلاً ويصفها وصفاً بارعاً.

«فمن مشاهدتها التي عاينّاها قُبَّةُ الوحي، وهي في دار خديجة أمّ المؤمنين - رضي الله عنها - وبها كان ابتناء النبي ﷺ بها، وقبة صغيرة أيضاً في الدار



المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - وفيها أيضاً وكُدت سيدي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين - رضي الله عنهما^(١١) - وهذه المواضع المقدسة المذكورة مُغلقة مصونة قد بُنيت بناءً يليقُ بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبي ﷺ، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مسّت جسمه الطاهر، بُني عليها مسجد لم يرَ أحفل بناءً منه، أكثره ذهبٌ منزل به، والموضع المقدس الذي سقط فيه ﷺ... يُفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافةً متبركين به في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه؛ لأنه كان شهر مولد النبي ﷺ وفي اليوم المذكور وُلد ﷺ، وتُفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها، وهو يوم مشهود بمكة دائماً.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً دار الخيْزُران، وهي الدار التي كان النبي ﷺ يعبد الله فيها سرّاً مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه - رضي الله عنهم - حتى نشر الله الإسلام منها....

ومن الجبال التي فيها أثر كريم ومشهد عظيم، الجبل المعروف بأبي ثور، وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد، وفيه الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه....

وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك، ويتجنبون دخوله من الباب الذي حدث الله - عزّ وجلّ - فيه، ويرومون دخوله من الشق الذي دخل النبي ﷺ منه تبرّكاً به، فيمتد المحاول لذلك على الأرض، ويبسط خدّه بإزاء الشق، ويولج يديه ورأسه أولاً، ثم يعالج إدخال سائر جسده، فمنهم من يتأقّى له ذلك بحسب قِصَافَة بدنه^(١٢)، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضّه^(١٣) فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر فينشَب^(١٤)، ويلاقى مشقة وصعوبة، حتى يُتناوَل بالجدب العنيف من ورائه.



۹۷۰/۳



الهوامش :

- (١) تعسف الصحراء : خبط فيها على غير هداية .
- (٢) المجهلة : الأرض التي لا يهتدى فيها .
- (٣) المستحيلة : المتغيرة .
- (٤) الزمام : لعله أراد السجل .
- (٥) الصفح : الجانب والوجه .
- (٦) يشير إلى طاهر الجنابي وإغارته على مكة، وقتله الحاج، وقلعه الحجر الأسود، وحمله معه إلى البحرين .
- (٧) الحجز / الواحدة حجة : موضع التكة من السراويل .
- (٨) أي يفتح على ثلاثة أبواب .
- (٩) الخوخة : الباب الصغير في الباب الكبير .
- (١٠) هو عجز بيت لحسان بن ثابت صدره : عدنا خيلنا إن لم تروها .
- (١١) في سائر التواريخ أن الحسن والحسين ولدا في المدينة .
- (١٢) القضاة : النحافة .
- (١٣) يعضه : أراد يمسك به .
- (١٤) ينشب : يعلق .



٩٧٢/٣